

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



الهجاء والهجاءون

فِي صَدْرِ الْأَسْلَافِ

892.7109

Ha393hA

تأليف

الدكتور م. محمد عيسى

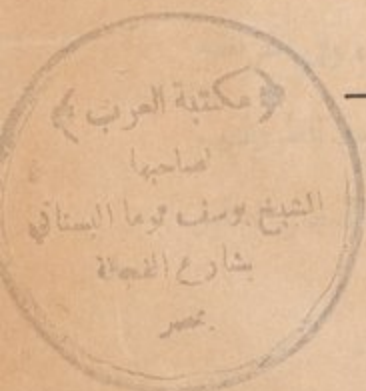
مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

٢٥

الناشر : مكتبة الآداب بالجواميز تليفون ٤٢٧٧٧

المطبعة (المنوفية)

٦ بكة الشاذلي بالجواميز



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا هو القسم الثاني من تاريخ فن المهجاء . وهو يؤرخ هذا الفن في العصر الإسلامي . وأقصد بالعصر الإسلامي عصر النفوذ العربي الذي انتهى بغلبة النفوذ الفارسي ، وتقويض هذه الدولة العربية ، التي كان من أبرز صفاتها التعصب للعروبة في شتى مظاهرها الأخلاقية والاجتماعية والأدبية .

والعصر الأدبي الذي تؤرخ هذا الفن فيه ، لا يساير التقسيم التاريخي ، ولا يجري على ما جرى عليه جمهور مؤرخي الآداب ، من تقسيمها تبعاً للتقسيم التاريخي . فهو يبدأ منذ وفاة النبي ، وينتهي بانتهاء القرن الأول الهجري .

والواقع أن المطابقة التامة بين تاريخ الأدب وبين التاريخ السياسي ، تعرض الباحث لأخطاء كثيرة ، وتورطه في تعسف غير قليل . فدارس الأدب — وهو

مرآة صادقة دقيقة لحضارة العصر ولمزاج أفراده — لا يلاحظ فرقا كبيرا بين لون هذا الأدب في عصر الخلفاء ، وبين لونه في الصدر الأول من العصر الأموي .

بيد أنه يلاحظ هذا الفرق واضحا إذا قارن بين الصدر الأول من العصر الأموي وبين الشطر الأخير من حياة هذه الدولة . فالأدب في عصر الخلفاء ، وفي الصدر

الأول من العصر الأموي — وهو ما نسميه بالعصر الإسلامي — أدب عربي خالص ، يجري على ما جرى عليه الأدب العربي القديم ، في أسلوبه ، وفي أغراضه

وفي صوره ، وفي أوزانه ، مع بعض التطورات التي اقتضتها طبيعة الظروف . فهو أدب عربي خالص . أما الأدب في القسم الثاني من ذلك العصر ، فهو

متأثر بالحضارة الفارسية ، وبالترف والخلاعة ، الذين نشأ من شيوع الغناء والمجون ، وكثرة الجوارى وغلبتهن على قلوب العرب .

ولسنا هنا في مقام المقارنة بين العصرين ، وتفصيل الفوارق بينهما . ولكننا أحيينا أن نوضح السبب الذي جعلنا نعدل عن التقسيم المألوف ، فنخلط بين عصر الخلفاء وبين قسم من العصر الأموي من جهة ، ونفصل بين شطر هذا العصر الأول وشطره الثاني من جهة أخرى .

وليس يفهم من هذا أننا ننكر الصلة القائمة بين التاريخ السياسي وبين تاريخ الأدب . فهذه الصلة قائمة بينهما ، قيامها بين الأدب وبين ألوان المعارف الإنسانية . ولكن الذي ننكره هو وضع العصور الأدبية في حدود التواريخ التي تعين قيام الدول وسقوطها . فليست العبرة في ذلك بقيام دولة وسقوط أخرى . ولكن العبرة في شكل الحضارة السائدة ، وألوان الثقافة الغالبة ، وحالة المجتمع القائمة . وليس هناك ما يمنع أن تتقارب هذه العناصر جميعا وتتشابه في دولتين ، هما عصران مختلفان عند المؤرخ ، بينما تتباين أشد التباين في دولة واحدة ، هي في عرفه عصر واحد .

رمل الاسكندرية ٢٣ أبريل سنة ١٩٤٨

نشأة الأحزاب السياسية

رأينا فيما سبق أن الاسلام لم يستطع أن يقضى على العصبية القبلية بين العرب ، أو يخفف من حدتها ، وكل الذي حدث أن شخصية النبي القوية ، قد استطاعت أن تدبرها ، وتتفادى شرورها ، وتوجهها توجيهاً نافعاً لصالح الدعوة . لم تستطع العقلية الجاهلية أن تسيغ هذا النظام الذي جاء به الاسلام ، وأن تنسى وطنها الأول الصغير ، لتتفانى في هذا الوطن الكبير ، والاتحاد الجديد ، الذي نشأ من ضم هذه الأوطان الصغيرة ، تحت سلطة مركزية واحدة . لم يكن العربي يحمل لهذا الوطن الجديد شيئاً من الحب أو التقديس ، وكل الذي فهمه أن قريشاً قد فرضت سيادتها على بقية القبائل العربية . وكان أثقل شيء على نفسه ، هذه الأموال التي فرضها عليهم الاسلام ، وسماها « زكاة » . ولم تكن الزكاة في حقيقة الأمر ، إلا نوعاً من الضرائب ، التي يدفعها الأفراد للدولة الآن ، مقابل حمايتهم وتدير شؤونهم ، بما يكفل لهم حياة مطمئنة ، قريبة غاية الجهد من تحقيق السعادة لسائر الأفراد . ولكن العربي لم يفهم هذا الوطن الجديد ، ولم يعرف شيئاً عن الدولة ، ولم يستطع شعوره البدائي أن يفهم الحكمة في وجودها ، أو الفوائد التي تحققها . فهو يختص القبيلة بكل حبه وعواطفه ، ويرى قوتها كقبيلة بتحقيق غاياته ، ويرى أن فناءها في هذا العالم المجموع الكبير ، تضحية لا مبرر لها . فالزكاة في نظره ، ليست إلا أتاوة تدفع لقريش ، وتوضع تحت تصرفها ، لتنفقها حيث تشاء . لذلك لم يكذب النبي يموت ، حتى انبعثت هذه العصبية قوية جارفة ، تريد أن تتحلل من كل قيد ، وأن تعود إلى حياتها الأولى الحرة الطليقة . منكرة حق قريش في الزكاة ، ممتنعة عن أدائها لهذا الأمير القرشي الجديد . الذي يسمى نفسه خليفة . وخير ما يصور هذا التفكير البدوي ، الذي ينفر من النظام ، ويأبى الاعتراف بالسلطة

بالسلطان ، ولا يرضى إلا حياة الخلاف والتناحر ، آيات الخطيئة التي قالها
في الردة :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا عجبا ما بال دين أبي بكر
أبورها بكراً إذا مات بعده ؟ وتلك لعمر الله قاصمة الظهر !

ورأت القبائل أن قريشاً لم تفضلهم وترجع عليهم إلا بالنبوة . فليكن
فيهم إذن أنبياء . ففي ربيعة نبي من حنيفة هو مسيلم . وفي مضر نبي ونبيه .
أما النبي فمن أسد وهو طليحة من خريلد ، وأما النبيه فمن تميم وهي سجاح .
وفي اليمن نبي هو الأسود العنسي .

وينهض رجل الإسلام الكبير للجهاد في سبيل إعادة بناء الدولة
الإسلامية ، بعزيمة لا تعرف وهناً ولا فتوراً ، وإيمان صادق عنيف ، ينتهي
والخضوع للدولة . والقارى لشعر القبائل في حركة الردة لا يجد فيه معارضة
لمبادئ الإسلام . فالحركة ليست ثورة على الدين الجديد . ولكنها محاولة
لاسترداد سلطة القبيلة المسلوقة . فالشعر منصب كله على القبائل والأفراد .
والمسألة في حقيقتها عصبية خالصة .

يقول الخطيل بن أوس أخو الخطيئة (١) :

فدى لبني ذبيان رجلي وناقتي عشيّة يحدى بالرماح أبو بكر
ولكن يد هدى بالرجال فهبته إلى قدر ما إن تقيم ولا تسرى (٢)
ولله أجناد تذاق مهانة لتحسب فيما عُد من عجب الدهر (٣)

(١) الطبرى ٤٧٧١٢

(٢) دهديت الحجر فتدهدى دحرجته ، هبته كذلك هي بالنص لعلها من أهاب
بالابل والحيل إذا زجرها قائلها هاب هاب ، فيكون المقصود أن هؤلاء الرجال يزجرون
أبا بكر وجيوشه ويدفعونهم إلى قدرهم وحينهم

(٣) يسخر بهم فيما يزعمون من أنهم جنود الله ؛ يقول هل رأيتم أعجب من هذا ؟
جنود الله تذوق الذل والهوان !

ويقول أبو شجرة بن عبد العزى وهو ابن الخنساء^(١) :

صحا القلبُ عن مَحْيٍ هَوَاهُ وَأَقْصَرَا وطاوع فيها العاذلين فأبصروا
وَأَصْبَحَ أَدْنَى رَائِدِ الْجَهْلِ وَالصَّبَا كما وُدُّهَا عَنَا كَذَاكَ تَغْيِرَا
أَلَا أَيُّهَا الْمُدْلَى بِكَثِيرَةِ قَوْمِهِ وحظُّكَ مِنْهُمْ أَنْ تُضَامَ وَتُقْهَرَا
سَلَ النَّاسِ عَنَا كُلَّ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ إِذَا مَا التَّقِينَا دَارِعِينَ وَحُسْرَا
أَلَسْنَا نُعَاطِي ذَا الطَّمَّاحِ لَجَامِهِ ونطعن في الهيجا إِذَا الْمَوْتُ أَقْفَرَا
وَعَارِضُهُ شَهْبَاءُ تَخْطِرُ بِأَلْقِنَا ترى الْبُلُقَ فِي حَافَتِهَا وَالسُّنُورَا^(٢)
فَرَوَيْتُ رُحْمِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ وَإِنِّي لِأَرْجُو بَعْدَهَا أَنْ أُعْمَرَا

وما يصور أن العصية روح هذه الحركة والدافع إليها ، ما يروى الطبرى من خروج الزبرقان بن بدر والأقرع بن حابس إلى أبي بكر ، وفولهم له (اجعل لنا خراج البحرين ، ونضمن لك أن لا يرجع من قومنا أحد) . وقد رضى أبو بكر بهذا الشرط وكاد ينفذه . لولا أن عمر اعترض ومزق الصحيفة غاضباً^(٣) .

ويمضى أبو بكر بعد سنتين من خلافته ، ويخلفه عمر ، فيحكم الجزيرة بحزمه الصارم . مندفعاً في الفتوح كالسيل لجارف . لا يقف في سبيله شيء . ثم ينتهى حكمة بهذه المأساة المروعة ، التى ذهب الخليفة الكبير ضحيتها ، فتنتهى الخلافة إلى بيت من قریش ، عريق النسب فى الجاهلية ، كانت المنافسة قائمة بينه وبين بنى هاشم . وقد امتدت الدولة العربية ، واتسعت رقعتها ، حتى أصبحت إمبراطورية كبيرة ، قد ابتلعت دولتين عريقتين . هما الفرس والروم . ولم تعد النظم العربية الساذجة ، التى تركز السلطة فى يد الخليفة ،

(١) الطبرى ٢ : ٤٩٣

(٢) عارضة قابلة بمثل ما أتى . شهباء كتيبة شهباء . السنور كل سلاح جديد .

(٣) الطبرى ٢ : ٥٠٠

والتي تقوم على الزهد المطلق ، وتنفر من ادخار المال ، وتتحرج من إنشاء خزانة للدولة . لم تعد هذه النظم كافية لضبط ذلك الملك العريض . ولم يعد الأمر كما كان ، مقصوراً على إقامة حدود الدين ، وحمل الناس عليه بالاقناع أو التهديد . والتمسك بقانونه الأخلاقي القويم . فالعرب الذين كانوا يعيشون منذ سنوات قلائل على النظام القبلي . قد أصبحوا أمام مشاكل جديدة خطيرة ، هي سياسة هذه الأباطورية المترامية الأطراف ، وتدير أمرها . وضبط شئونها . فهم أمام مشاكل مالية واجتماعية وسياسية ، لا عهد لهم بمثلها في عزلتهم القديمة .

وتضطرب الأمور وتتعدد في يد عثمان بن عفان ، ويفلت زمام الأمر من يده ، وقد غلت الأمصار بالفتنة . ويندفع الدهماء في طوفان مدمر ، يحوف في طريقة هذا الخليفة الطيب القلب ، الذي ذهب ضحية الانتقام المفاجيء ، من العزلة العربية القديمة إلى الملك الواسع العريض . وكان قتله وقتل عمر من قبله ثم قتل علي بعد ذلك ، برهاناً قاطعاً على أن نظام الحكم القديم لم يعد صالحاً للبقاء . فلم يعد العرب في حاجة إلى رجل دين وتقوى . ولكنهم أصبحوا في حاجة إلى رجل حزم وسياسة قبل كل شيء . بل هم في حاجة إلى عبقرية سياسية . تستطيع أن تنشئ قواعد للحكم إنشاء . وتخلق من العدم نظاماً وقوانين ، تستطيع أن تسير التوسع الحديد . وقد وجد العرب ضالتهم آخر الأمر ، في عاهل العرب الأول ، ومنشئ الأباطورية الإسلامية معاوية بن أبي سفيان .

وكان بين قتل عثمان وبين ما يسميه المؤرخون عام الجماعة الأول ، الذي انتهى فيه الأمر إلى معاوية ، ست سنوات ، اضطربت فيها الجزيرة بالفتن ، واجتاحها موجة من الحروب المدمرة في كل مكان ، كانت كلها قتالا حول شخص الحاكم ونظام الحكم . وقد ظهر في هذه الحروب لون جديد من العصية

هو العصية الإقليمية ، فقد أصبح الشام حزب معاوية ، وأصبح العراق حزب
على ، وأصبح الحجاز موطناً للعارضين ، يقودها زعماء قریش الطامعون
في الخلافة الذين لا يقرون عليها على بن أبي طالب ، فيهم طلحة والزبير
وعبد الله بن عمر وعائشة أم المؤمنين . وفي هذه الحروب ، وضع أساس
الأحزاب الثلاثة التي كان لها أعمق الأثر فيما يلي من الناحيتين التاريخية والأدبية ،
وهي حزب الشيعة ، وحزب الخوارج ، وحزب الأمويين .

لم يكن علي رجل الساعة ، فقد كانت عقليته السياسية من هذا الطراز
القديم ، الذي تقوم شهرته على التقوى والورع ، والفقہ بأمور الدين ، والنزاهة
المطلقة ، والصرامة السافرة التي لا تعرف مكرراً أو مخاتلة . وهذه صفات
خلقية سامية ، قد ترفع صاحبها إلى مرتبة القديسين المطهرين ، ولكنها
لا تجعل منه حاكماً أو زعيماً . فقد كان مع هذه الصفات السمحة ، بعيداً
عن المرونة التي تنبغى لرجل السياسة . وكان بعيداً عن الإدراك الصحيح
لروح الجماعات ، والفهم الدقيق لدوافعها العقلية والنفسية — وهي تختلف
عن دوافع الأفراد اختلافاً كبيراً — خسر كثيراً من الزعماء ، وكان يستطيع
أن يكسبهم ، كالزبير وطلحة وعمر بن العاص والمغيرة بن شعبه . ونهى
أهل العراق عن نهب أموال أهل الشام ، لأنهم مسلمون لا يحل منهم سبي
أو غنم . فمل الناس القتال ، وسئموا هذه الحروب التي لا مطمع فيها . ونهى
عن شتم معاوية وشيعته ، ضارباً صفحاً عن آثار ذلك في الدعوة السياسية .
ولم يقبل نصيحة المغيرة في إقرار معاوية وعمال عثمان على أعمالهم ، حتى تأتي
بيعتهم . وكان شديد التزم في أمور الدين ، مدققاً في تحري العدالة ،
وفي توزيع الأموال والصدقات ، قليل الاهتمام بالشعر وإغراء الشعراء
بالمال ، حتى لقد جلد شاعره النجاشي ، حين رفع إليه وقد أفطر في رمضان
مع صاحب له ، وشربا حتى علا صوتهما ، فجده سبعة وثمانين سوياً — وحد

الشارب ثمانين — فقال النجاشي : ما هذه العلاوة يا أبا الحسن ؟ فقال :
هذا لجرأتك على الله في شهر رمضان . فهبجا النجاشي أهل السكوفة قائلاً (١) :

إذا سقى الله أرضاً صوبَ غاديةٍ فلا سقى الله أرضَ السكوفةِ المطرا
التاركين على طهرٍ نساءهم والناكحين بشطى درجته البقرا
والسارقين إذا ما جنَّ ليلهم والتالين إذا ما أصبحوا الشورا

أما معاوية . فقد مرّن على السياسة في هذه الحقبة الطويلة التي ولى فيها
أمر الشام ، وأعانته على ذلك أنهم أهل طاعة ، قديمو العهد بالنظام والملك .
وقد استطاع بحلمه وسعة صدره ونعومة مكره ، أن يكسب حبهم وإعجابهم .
وكان مع هذا داهية عارفا بالرجال ، يحسن اختيار بطاقته ، ويعرف أين يضع
ثقله . وكان بعد هذا مرنا ، لا يأخذ جانب الدين كله ، ولا يميل عنه دفعة ،
ولكنه يتوسط بين الدين والدنيا ، يأخذ بأحسنهما ، ويكمل أحدهما بالآخر .
وقد علم منذ اللحظة الأولى ، أن هذه الدولة الناشئة ، لا تصلح إلا بالملك ،
الذي يكفل لها الاستقرار والثبات ، ويكفيها شر هذه المحن والثورات ، التي
تعرض لها فيما يقع بين الناس من خلاف عند موت كل خليفة . فبايع لابنه
يزيد ، وعنى بوضع أركان حزب سياسي ، قوامه الشعراء . يذوق عليهم العطاء ،
وتألف قلوب أعدائه من أصحاب النفوذ . ولم يتورع عن لعن على من فوق
المنابر ، إقراراً لبعضه في قلوب الناس . وأحسن اختيار ولاته من أصحاب
الحزم ، ثم أطلق يدهم في أقاليمهم ، إلا فيما يمس السياسة العامة . ثم أوجد
نظام البريد ، ليسهل الاتصال بينه وبين عماله . وأوجد ديوان الخاتم ، ليكون
سجلاً لتوقيعات الخليفة التي يبعث بها إلى الأقاليم . واتخذ الحجاب والحرس ،
لأن من في مثل مكانه ، لا يأمن أن يكون بين رعاياه موتور مهوس ، ينتهز

منه غرة فيقتله . كل هذه السجايا . جعلت معاوية خائفاً بما وصفه به ابن عباس حين قال : ما رأيت أليق من أعطاف معاوية بالرياسة والملك .

ولكن هذا الاستقرار لم يطل عهده بعد معاوية ، فقد كان من سوء حظ الناس : أن جاء بعد يزيد ابنه معاوية الثاني وكان ضعيفاً زاهداً ، فأبى أن يستخلف ، وترك أمر الناس فوضى ، فثارت الفتنة من جديد ، وكثر المطالبون بالملك والخارجون في كل مكان ، من زيرية وشيعة وخوارج .

وتفرقوا شيعاً فكل مدينة فيها أمير المؤمنين ومنبرٌ واحتكم الناس إلى السيف من جديد وأصبح الملك للغالب ، كما يقول كعب بن جعيل التغابي .

أصبحت الأمة في أمر عجب والملكُ مجموعٌ غداً لمن غلب فقلتُ قولاً صادقاً غيرَ كذبٍ إنَّ غداً نَهْلِكُ أعلامُ العرب وأسرف الناس في القتل وفي إراقة الدماء ، حتى ملوا الحرب ، ورأوا أنهم إنما يقاتلون من أجل قريش ، كما تقول هذه المرأة الشكلى ، التي فقدت أولادها الثلاثة في صفين (١) .

أعينني جوداً بدمعٍ سَرَبُ على فنيةٍ من خيار العرب
وما ضرَّهم غيرُ جنى النفوس بأى امرئٍ من قريشٍ غَلَبَ
وكما يقول الشاعر الطائي :

وإن امرءاً يعطى الأسنة نحره وراء قريشٍ لا أعدُّ له عقلاً
يذمون لى الدنيا وقد ذهبوا بها فما تركوا فيها لمُلتَمَسٍ ثُعلاً
تم يقرر السيف للمرة الثانية ، أن بنى أمية هم أولى الناس بالملك ، فيستقر لهم الأمر على نظام ملكي ثابت الأركان ، وطيد الدعائم .

كان لهاتين الشورتين الكبيرتين آثار خطيرة في التفكير العربي ، لا تخلو من خير . فقد صحبتهما حركة فكرية عنيفة ، لا تضارعها إلا هذه الحركة التي صحبت ظهور الإسلام . وللمرة الأولى بدأ الناس يناقشون نظام الحكم ، وأتيح لهم أن يروا ألوانا مختلفة من البرامج السياسية ، يعرضها عليهم المرشحون للحكم ، كل منهم يحاول استمالتهم إلى جانبه . وبدأت العصبية الجاهلية القديمة تتخذ صورة حزبية مهيبة ، تقوم على نظريات سياسية واضحة محددة . فأتباع بني أمية في الشام — ومعظمهم من اليمنية ، الذين أصهر معاوية إلى قبيلة كبيرة منهم هي قبيلة كلب — يقرون النظام الملكي الجديد ، الذي يقوم على التوريث ، وتأخذ فيه الشيعة شكلا صورياً . وأتباع ابن الزبير في الحجاز متمسكون بالنظام الجمهوري القديم ، الذي يقوم على الانتخاب ، ولكنهم يحصرون حق الخلافة في قريش . والشيعة يرون في الخلافة أو الإمامة كما يسمونها شيئاً من القداسة التي لا تسكتسب اكتساباً ، ولكنها تورث تورثاً ، فهناك دم ملكي مقدس ، ورث هذه القداسة عن النبي ، وهم وحدهم أصحاب الحق في الملك ، وحقهم في ذلك ثابت من عند الله ، ليس للناس فيه رأى أو خيار . والخوارج يمثلون التفكير الديمقراطي المتطرف ، فهم لا يرون الخلافة حقاً لقريش أو لفرع معين منها ، بل لا يرونها حقاً للعرب مقصوراً عليهم لا يتجاوزهم إلى غيرهم . فالخلافة عندهم تصلح في أفناء الناس كلهم ، من كان منهم قائماً بالكتاب والسنة عالماً بهما ، ثم هم بعد ذلك يخالفون بقية الأحزاب ، في حق سحب الثقة من الإمام الجائر ، فالخلافة عندهم ليست بالحق الذي يوهب مدى الحياة ، وهناك فرقة من الخوارج هم النجدية ، يمثلون الفوضوية اللا حكمومية ، فهم يرون أن الناس يستطيعون أن يتعاطوا الحق فيما بينهم ، وأن ينظموا أمورهم ، من غير حاجة إلى إمام .

وقد كان للعصبية الجاهلية أثر واضح في نشأة الأحزاب الجديدة وتكوينها ، فخروب العراق والشام ليست إلا امتداد للنزاع القديم بين المناذرة

والغساسنة من ناحية ، وبين النزارية والقحطانية من ناحية أخرى . شاعت الظروف أن يكون جند معاوية يمينيين ، لأنهم معظم أهل الشام ، فلم يكن لأهل العراق بد — ومعظمهم نزارية — من أن يكونوا جند المعارضة . وانساق اليمينيون منهم مع جمهور الناس متأثرين بعصية الأقليم ، ولسكنهم ظلوا متمسكين بعصيتهم اليمينية لا ينسونها . فالأشعث بن قيس لا يرشح في التحكيم بين علي ومعاوية إلا بأموسى الأشعرى . فإذا اعترض علي عليه ورشح ابن عباس ، قال الأشعث وأصحابه : والله لا يحكم فينا مضرى^(١) . ثم هو يثبب الناس عن علي ، حين طلب إليهم أن يعضوا لقتال معاوية في الشام ، بعد أن هزموا الخوارج ، قائلاً : قد كلت سيوفنا ، ونفدت نبالنا ، ونصلت أسنة رماحنا ، فدعنا نستعد بأحسن منها^(٢) . والعداء بين الأمويين وبين الأنصار — مع أنهم يمينية — ليس إلا أثرًا من آثار العداوة القديمة بين يثرب وبين مكة ، التي كان يتزعما في ذلك الوقت أبو سفيان بن حرب .

ولم تنته هذه العصبيات بانتهاء الفتن واستقرار الأمور ، فقد ظل الأمويون على كرههم للقيسية وأهل العراق . دخل رجل من قيس على عبد الملك بن مروان فقال : زيرى ! والله لا يحبك قلبي أبداً . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما يجزع من فقد الحب النساء . ولكن عدل وإنصاف^(٣) ودخل مسكين الدارمي على معاوية ، وسأله أن يفرض له ، فأبى — وكان لا يفرض إلا لليمن^(٤) . فاليمينية لم يقاتلوا مع معاوية ، ثم مع مروان ، إلا بعد أن اشترطوا عليهما شروطاً . يقول المسعودى : واشترط حسان بن مالك — وكان رئيس قحطان وسيدها في الشام — على مروان ، ما كان لهم من الشروط على معاوية وابنه

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٨

(٢) مروج الذهب ٢ : ٢٨

(٣) العقد الفريد ٤ : ١١٤

(٤) خزائن الأدب ٢ : ٢٥٥

يزيد وابنه معاوية بن يزيد ، ومنها أن يفرض لهم لآلئ رجل ألفين ألفين ، وإن مات قام ابن عمه مكانة ، وعلى أن يكون لهم والنهي وصدر المجلس ، وكل ما كان من حل وعقد ، فعن رأى منهم ومشورة . فرضى مروان بذلك وانقاد إليه . وقال له مالك بن هبيرة اليشكري : إنه ليست لك في أعناقنا بيعة . وليس نقاتل إلا عن عرض دنيا ، فإن تكن لنا على ما كان لنا معاوية ويزيد نصرناك ، وإن تكن الأخرى ، فوالله ما قرش عندنا إلا سواء^(١) . وظل الأمويون على بغضهم للأنصار ، ولكنهم كانوا يصانعونهم ويدارونهم . لسابق صنيعهم في الإسلام ، ولوصية رسول الله . دخل قيس بن سعد بن عبادة على معاوية بعد وفاة علي ووقوع الصلح ، في جماعة من الأنصار . فقال لهم : يامعشر الأنصار . بيم تطلبون ما قبلي ، فوالله لقد كنتم قليلا معي كثيرا على ، ولقد فللتم حدى يوم صفين ، حتى رأيت المنايا تتلظى في أسنتكم ، وهجوموني في أسلافي بأشد من وقع الأسنة ، حتى إذا أقام الله ما حاولتم ميله قلت : ارع وصية رسول الله ! هيهات ، يأبى الحقيير الغدرة^(٢) . وحضرت الوفود بباب معاوية ، فاستأذن لهم حاجبه وقال : الأنصار بالباب ، وكان عمرو بن العاص حاضرا فغاضه هذا اللقب ، فقال لمعاوية ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين ؟ أردد القوم إلى أنسابهم . وخرج الحاجب فقال : من كان هنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل ، فلم يدخل الأنصار ، ثم خرج فقال : من كان هنا من الأوس والخزرج فليدخل ، فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير ، وهو يقول :
يا سعدُ لا تُجِبْ الدُّعَاءَ فَمَا لَنَا نَسَبٌ يُجِيبُ بِهِ سَوَى الْأَنْصَارِ
نَسَبٌ تَخَيَّرَهُ الْإِلَهُ لِقَوْمِنَا أَثْقَلُ بِهِ نَسَبًا عَلَى الْكَفَارِ
إِنِّ الَّذِينَ ثَوَّوْا بِيَدِ مَنْكُمْ يَوْمَ الْقَائِمِ هُمْ وَقَوْدُ النَّارِ

(١) مروج الذهب ٢ : ١٠٦

(٢) مروج الذهب ٢ : ٦٣

فنظر معاوية لعمر و قائلاً : إن كنا لأغنياء عن هذا (١) .

هذه العصبيات القديمة التي انتهت إلى الصورة الحزبية الناضجة التي قدمناها ، قد أوجدت في العصر الأموي معارضة قوية فعالة ، تخشى الحكومة بأسها ، فتأخذها بالدين تارة ، حريصة على إرضائها ، وتأخذها بالعنف أخرى حين لا يكون بد من العنف . وكان موطن هذه المعارضة في الغالب هو العراق ، ويرجع ذلك لأسباب كثيرة ، منها بعده عن مركز السلطان ، فالخارج على الحكومة ، يستطيع أن يجد له مهرباً إلى الشرق أو إلى الصحراء إذا انهزم ، فهو في مكانه هذا أبعد عن يد السلطان . وآمن على سلامته . لذلك اضطرب العراق بالثورات والحروب طوال العصر الأموي . ولم يعرف الاستقرار . إلا بعد إنتقال عاصمة الملك إليه ، بقيام الدولة العباسية . وقد أعان على هذا الاضطراب تباين البيئات فيه ، واختلاف المذاهب والآراء ، من زيرية وخوارج وشيعة . فهو مثابة الشائرين ، ومعقل الخارجين . وملجأ الهاربين . هذا والنازحون إلى العراق من البدو كثير . والجفاء وحب الخلاف غالب على خلقهم . فهم ينفرون من قيود القانون ، ولا يحتكمون إلا إلى السيف ، لأن اقتصاص السلطان لا يشفي صدورهم . فهو عندهم من مظاهر العجز . وخير ما يصور ضيق هؤلاء البدو بالقانون والنظام ، قول شبيب بن عوانة الطائي :

قضى بيننا مروانُ أمس قضيةً فما زادنا مروانُ إلا تنائياً
فلو كنتُ بالأرض الفضاء لعفيتها ولكن أتتْ أبوابه من ورائيا
والبدوى لا يعتقد أن للسلطان حقاً فيما يستمتع به من سلطات . ولا يراه

إلا مغتصباً قد أكل أموال الناس . وراح يتصرف فيها على حسب ميله
وهواه . يقول عتبة الأسدى ^(١) :

معاوى إننا بشرٌ فأسجِحْ فلسنا بالجبال ولا الحديد ^(٢)
أكلتم أرضنا وجددتمونا فهل من قائمٍ أو من حصيد
فهبنا أمةً هلكت ضياعاً يزيدُ أميرُها وأبو يزيد
أتطمعُ بالخلود إذا هلكنا وليس لنا ولا لك من خلود
ذرُّوا خولَ الخلافة واستقيموا وتأمينَ الأراذلِ والعبيد ^(٣)

(١) العقد الفرید ٦ : ١٦٨

(٢) السجح بضم السين والسجج اللين السهل .

(٣) الخول محركة ما أنعم الله على الرجل من النعم والعبيد والأماء وغيرهم من

الحاشية ، يستعمل الواحد وللجمع والمذكر والمؤنث . ١٠ : ٥٢١

الهجاء السياسى

كان الهجاء السياسى من أظهر فنون الشعر فى العصر الأموى : فقد عرف معاوية وخلفاؤه ما للشعر من أثر فى نفوس الناس ، فحرصوا على أن يجمعوا حولهم أكبر قدر ممكن من الشعراء . ولم يحدوا حرجا من أن يتألفوا قلوب أصحاب النفوذ والجاه بالمال والعطاء ، وكان لهم فى رسول الله أسوة حسنة بما فعل من تشجيع الشعر ، وتألف الناس بالمال ، فى سبيل نشر الدعوة وإقرارها . ولازم هذه الحركات العنيفة والحروب المضطربة شعر كثير مضطرب عنيف يؤيد الطامعين فى الحكم والمحاربين فى سبيله ، ويهاجم خصومهم وأعداءهم . وبذلك عاد الشعراء مرة ثانية للظهور ، بعد أن اختفى أثرهم وخفت صوته منذ وفاة النبي . عادوا يحتلون من الحياة السياسية مكانا ممتازا ، ويشرفون على توجيه رأى العام ، بما يذيعون من شعر ، فى تأييد أحزابهم ومعارضة أعدائهم ومنافسيهم . وحرص القادة والزعماء والمطالبون بالملك عليهم . فاصبح الشعر — كما كان فى الجاهلية — نظير الرمح وقرينة . وشطر عدة المحارب وروح دعوته . وصحبههم فى حربهم ، كما فعل عبد الرحمن ابن الأشعث ، حين خرج من سجستان مقبلا إلى العراق ، وبين يديه أعشى همدان ، قد تقدم الجيش على فرسه يرتجز : (١)

شطت نوى من داره بالايوان إيوان كسرى ذى القرى والريمان
فالبندنجين إلى طرداستان فالجسر فالكوفة فالغريان
من عاشق أضحي بزابليستان إن ثقيفا منهم الكذابان
كذابها الماضى وكذاب ثان أمكن ربى من ثقيف همدان (٢)

(١) الطبرى ٥ : ٤٧ وديوانه ٣٤١

(٢) الكذاب الأول هو المختار بن عبيد الثقفى ويقصد بالكذاب الثانى الحجاج بن

يوسف الثقفى .

يوماً إلى الليل يُسَلَّى ما كان إنا سَمَوْنَا للكُفُورِ الفَتَّانِ
 حين طغى في الكُفْرِ بعد الإيمان بالسيد الغَطْرِيفِ عبدِ الرحمن
 سار بِجَمِيعٍ كالدَّبَى من قحطان ومن مَعَدٍ قد أتى ابنِ عدنان (١)
 بِجَحْفَلٍ جَمٍّ شديدٍ الارنان فقل لحجَّاجٍ ولى الشيطان (٢)
 يَثُبْتُ لجمعٍ منحجٍ وهمدان والحقى من بكرٍ وقَيْسِ عيلان
 فانهم ساقوه كَأْسَ الذِّيفَانِ وملحقوه بقرى ابن مروان (٣)

واعتمد الزعماء على الشعراء في إعداد الناس لما يدبرون من مشاريع ،
 يمهّدون لها بالشعر ليتحسّسوا رأى الناس ، ومدى استعدادهم لقبولها ، قبل أن
 يفجئوهم بها ، كما فعل معاوية ، حين هم أن يباع لابنه يزيد ، مستحدثاً بذلك
 سنة ولاية العهد فأوعز إلى مسكين الدارمي أن يتكلم في ذلك فقال : (٤)

ألا ليتَ شِعْرِي ما يقول ابنُ عامر ومروان أم ماذا يقول سَعِيدُ
 بَنِي خلفاء الله مهلاً فإنما يَبُوءُهَا الرحمنُ حيثُ يريد
 إذا المنبرُ الغربيُّ خلّاهُ ربُّه فإن أميرَ المؤمنين يزيد

وحرصوهم على هجاء معارضهم : عاملين على إذاعة هجائهم في الجامع
 والمحافل ، كما فعل عبد الملك بن مروان بأبي العباس الأعشى ، حين حج فطلب
 إليه أن ينشده هجاء ابن الزبير على ملأ من الناس ، يقصد بذلك إلى التأثير فيهم ،
 وهو يعلم أن الحجاز معقل صحبه وأتباعه ، ومنشأ المعارضة القوية للحكم

(١) الدبى أصغر الجراد والنمل ، يريد كثرة هذا الجيش ، كما نقول نحن اليوم في
 تشبيها العامى عددهم كثير كالنمل .

(٢) الارنان الصباح والماضى رن وأرن صاح .

(٣) الذيفان السم القاتل . ملحقوه بقرى ابن مروان يعنى الشام حيث يقيم الخليفة

عبد الملك بن مروان .

(٤) الاغانى ١٨ : ٧١

الأموى . قال صاحب الأغاني : حج عبد الملك بن مروان ، فجلس للناس بمكة فدخلوا على مراتبهم ، وقامت الشعراء والخطباء فتكلموا ، ودخل أبو العباس الأعشى ، فلما رآه عبد الملك قال ، مرحباً بك يا أبا العباس ! أخبرني بخبر الملحد المحل . حيث كسا أشاعه ولم يكسك ، وأنشدني ما قلت في ذلك . فأخبره بخبر ابن الزبير ، وأنه كسا بني أسد وأحلافها ولم يكسه ، وأنشده الأبيات : (١)

بني أسد لا تذكروا الفخر بينكم متى تذكروه تكذبوا وتُحمقوا
بعيدات بين خيركم لصديقكم وشركم يغدو عليه ويطرُق (٢)
متى تُسألوا فضلاً تَضِنُّوا وتبخلوا ونيرانكم بالشر فيها تحرق
إذا استبقت يوماً قریش وجِدْتُم بني أسد سُكتاً وذو المجد يسبق (٣)
تحيئون خلف القوم سوداً وجوهكم إذا ما قریش للأضاميم أصفقوا (٤)
وما ذاك إلا أن للؤم طابعا يلوح عليكم وشمه ليس يخلق

فقال عبد الملك ، أقسم على كل من حضر من بني أمية وأحلافهم ومواليهم ثم على كل من حضر من أوليائي وتبعي على دعوتهم ، إلا كسا أبا العباس . وبذلك أصبحت السياسة والحزبية حرفة يتكسب منها الشعراء . وهذا هو أعشى همدان ، يذكّر ابن الأشعث ببلائه وصبره معه في الشدة ، ويطلبه بضمن شعره وولائه . في قصيدة طويلة منها : (٥)

(١) الأغاني ٥ : ٦٢

(٢) الطرق والطروق الاتيان بالليل ، والغدو ضد الرواح ، والغدوة ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس ، بعيدات بين خيركم كذلك هي بالأصل ولعله محرف .

(٣) سكت جمع سكيت يوزن كمث وقد تشدد الكاف وهو آخر خيل الحلبة .

(٤) الضمة الحلبة في الرهان والجمع أضاميم وهي جماعات الخيل . أصفقوا اجتمعوا . وأصفق القوم على الشيء أطبقوا عليه .

(٥) ديوان أعشى قيس والأعشون الآخرون ص ٣٢٤ .

كم قد أُسدي لك من مدحة تُروى مع الصادِر والوارد
وكم أجبنا لك من دعوة فاعرف فما العارف كالجامد
مالك لا تُعطى وأنت امرؤ مُثِرٍ من الطارف والتالد
تَجِبِي سِجِسْتَانَ وما حولها مُتَكِنًا في عيشك الراغد
لا ترهبُ الدهرَ وأيامها وتَجَرُّدُ الأرضَ مع الجارد
إن يكُ مكروهٌ تَرَجُّنا له وأنت في المعروف كالراقد
ثم ترى أنا سنرض بذنا كلا وربُّ الراحم الساجد
وحرمة البيتِ وأستاره ومن به من ناسك عابد
ما أنا إن هاجك من بعدها كهَيِّجْ بآتيك ولا كابد
ولا إذا ناطوك في حلقة بجاملٍ عنك ولا ناقد
فأعط ما أعطيته طيبًا لا خير في المنكود والناكد (٦)
وأنجز الوعد إذا قلته ليس الذي يُنجز كالواعد

وقد أعان التشجيع من جانب الخلفاء والزعماء ، والطمع من جانب الشعراء ، على استتعمال الهجاء السياسي ، فاستطار شره بين الناس ، حتى أصبحوا يجتمعون لذلك فينشدون أهاجيهم ، ولا يفترقون إلا بعد قتال ، كما كان يفعل سديف (١) مولى بنى هاشم وشيب مولى بنى أمية . قال أبو الفرج في أخبار سديف : شاعر مقل من شعراء الحجاز . ومن مخضرمي الدولتين . وكان شديد التعصب لبنى هاشم ، مظهرًا لذلك أيام بنى أمية . وكان يخرج إلى صحار صغار في ظاهر مكة ، يقال لها صفار الشراب (٢) ويخرج مولى لبنى

(١) نكد فلان فلانا منعه ما سأله أو لم يعطه إلا أقله .

(٢) الأغاني ٤ : ٦٢

(٣) كذا بالنص . وفي الأغاني ٩ : ٧٥ ط . دار الكتب صفا السباب وهو أصح .

أمية معه يقال له سباب^(١) . فيتشاتمان ويذكران المثالب والمعائب . ويخرج
معهما من سفهاء الفريقين من يتعصب لهذا ولهذا . فلا يبرحون حتى يكون الجراح
والشجاج ، ويخرج السلطان إليهم فيفرقهم ويعاقب الجناة . فلم تزل العصبية
بهم . حتى شاعت في العامة والسفلة . وكانو صنفين ، يقال لهم السديفية
والسبائية^(٢) . وقال في موضع آخر^(٣) ، في قول الشاعر :

سكنوا الجزع جزع بيت أبي مو سى إلى النخل من صنى السباب

(وصنى السباب بفتح الفاء وكسرهما جميعاً . وهو شعب من شعاب
مكة ، فيها صفاء أى صخر مطروح ، وكانت قریش تخرج فتقف على ذلك الموضع ،
فيفتخرون ثم يتشاتمون ، وذلك فى الجاهلية ، فلا يفترقون إلا عن قتال . ثم
صار ذلك فى صدر من الإسلام أيضاً ، حتى نشأ سديف ، مولى عتبة بن
أبى سديف ، وشبيب مولى بنى أمية ، فكان هذا يخرج فى موالى بنى هاشم ،
وهذا فى موالى بنى أمية ، فيفتخرون ثم يتشاتمون ثم يتجادلون بالسيوف .
وكان يقال لهم السديفية والشيبية . وكان أهل مكة مقتسمين بينهما فى العصبية) .

بل لقد غرى الناس بالهجاء . حتى أصبح بدعا فى ذلك الوقت . وصاروا
يتهاجون لغير خصومة ، كلفا باللجاج والمرء . جاء البردخت إلى جرير ، فقال :
تهاجبنى ؟ قال : ومن أنت ؟ قال أنا البردخت . قال : وما البردخت ؟ قال :
الفارغ بالفارسية . قال : ما كنت لأشغل نفسى بفراغك^(٤) . ورحل قوم
إلى عدى بن الرقاع ليهاجوه ، فتقدمت إليهم بنته فقالت :

تجمعتن من كل أوبٍ ومنزل على واحدٍ لازلتن قرنَ واحد

(١) كذا بالنص . وهو شبيب . الأغاني ٩ : ٧٦ ط . دار الكتب

(٢) كذا بالنص والصواب الشيبية .

(٣) الأغاني ٩ : ١٧٥

(٤) الشعر والشعراء ٢٧٣

فانصرفوا عنه ولم يهاجوه^(١). وكان المغيرة بن حبناء يهاجى أخاء صخر ابن حبناء، ولهما قصائد يتناقضانها كثيرة^(٢). وكان ابن ميادة متعرضاً للشر، طالباً للمهاجاة الشعراء ومساباة الناس. وكان يضرب يده على جنب أمه ويقول:

اعزّ نَزِمِي مِيَادُ للقوافي واستمعين ولا تخافى

ستجدين ابنك ذا قذاف^(٣)

ولا نكاد نعرف في هذا العصر شاعراً مشهوراً، إلا قد أخذ من الهجاء بنصيب. يقول ابن قتيبة في أخبار ذى الرمة: وإنما وضعه عندهم، أنه كان لا يجيد المدح ولا الهجاء^(٤).

واحتل المربد في العراق — موطن الفتن والاضطرابات والهجاء في العصر الأموي — مكان عكاظ من الحجاز في الجاهلية، فصار مجمع الناس في خصوصاتهم الخاصة، وفي محافلهم السياسية العامة. يقول ابن عبد ربه قدم طلحة بن عبدالله والزبير بن العوام وعائشة أم المؤمنين البصرة، فتلقاهم الناس بأعلى المربد، حتى لو رموا بحجر ما وقع إلا على رأس إنسان. فتكلم طلحة، وتكلمت عائشة، وكثر اللغط. فجعل طلحة يقول: أيها الناس أنصتوا. وجعلوا يرهجون ولا ينصتون. فقال — أف! أف! فراش نار وذباب طمع! ^(٥) وفي المربد كانت تنشد نقائض جرير والفرزدق. وكان لكل منهما حلقة معروفة ومكان معين يجتمع فيه بأصحابه. قال أبو فرج: وكان لراعى الأبل والفرزدق وجلسائهما حلقة معروفة بأعلى المربد بالبصرة يجلسون فيها. ثم أصبح (جرير)، حتى إذا عرف أن الناس قد أخذوا مجالسهم

(١) الشعر والشعراء ٢٣٧

(٢) الأغاني ١١ : ١٦٢

(٣) الأغاني ٢ : ٢٦٣، الشعر والشعراء ٢٩٨

(٤) الشعر والشعراء ٢١٠

(٥) العقد الفريد ٥ : ٧١

بالمربد — وكان جرير يعرف مجلس الراعى ومجلس الفرزدق — فدعا بدهن فادهن وأصلح وجهه ، حتى إذا كان بموضع السلام لم يسلم ، ثم قال : يا غلام قل لعبيد الراعى أبعثك نسوتك تكسبهم المال بالعراق ؟ والذى نفس جرير بيده لتؤوبن إليهن بمير يسوؤهن ولا يسرهن . ثم اندفع فى القصيدة (وهى التى يقول فيها بيته المشهور : فغض الطرف إنك من نمير) فنكس الفرزدق رأسه ، وأطرق الراعى ^(١) . وفى المربد تهاجى النابغة الجعدي وأوس بن مغراء ، وحضرهما العجاج والأخطل وكعب بن جعيل ، وكلهم شارك فى المهاجاة يعين صاحبه بشعره . ^(٢) وكثيراً ما كانت تنتهى المهاجاة بالقتال كما يروى صاحب الأغاني فى خبر جرير والفرزدق . يقول : ولما توافق جرير والفرزدق بالمربد للهجاء ، اقتتلت بنو يربوع وبنو مجاشع ، فأمدت بنو العم بنى مجاشع ، وجأؤوهم فى أيديهم الخشب ، فطردوا بنى يربوع ، فقتل جرير : من هؤلاء ؟ قالوا : بنو العم . فقتل جرير :

ما للفرزدق من عز يلوذ به إلا بنى العم فى أيديهم الخشب ^(٣)

وربما أنشد فيه الشعراء شعرهم فى غير الهجاء ، وقد خرجوا على الناس فى أحسن لباسهم وأبهى زينتهم ، كما يروى أبو الفرج فى وقوف ذى الرمة بالمربد ، وقد اجتمع عليه الناس ، وهو قائم وعليه برد قيمته مائتا دينار ، وهو ينشد ودموعة تجرى على لحيته :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلِّ مفريّةٍ سَرِب ^(٤)

وقد اختلفت صور الهجاء السياسى فى ذلك العصر وتعددت مذاهبه ، ففضى بعضه على الأسلوب الجاهلى الذى يقوم على العصبية القبلية . واتجه

(١) الأغاني ٢٠ : ١٦٩

(٣) الأغاني ٥ : ١٢

(٣) الأغاني ٣ : ٢٥٧

(٤) الأغاني ١٦ : ١٢٣

بعضه إلى مهاجمة أصحاب الدعوة والمحاربين في سبيل الملك ، وإنكار حقهم في ذلك ، وتتبع سقطاتهم ، والتشنيع بأفعالهم وهفواتهم . وانصب بعضه الآخر على الولاة ، مهاجماً سياستهم البعيدة عن العدل والانصاف ، والمخالفة لما ألف الناس من عادات . وذهب فريق من الناس مذهب الساخط على كل هؤلاء الزعماء القرشيين ، الذين امتلأت نفوسهم بالطمع ، فجروا على الناس هذه الولايات ، التي لا تعود عليهم بغير الشر والفناء .

أما شعر العصية فهو جاهلي في روحه وخصائصه ، لم يتأثر بالمثل الإسلامية الجديدة في قليل أو كثير ، فهو امتداد لشعر الحروب التي كانت تقع بين القبائل في الجاهلية . فالقيسي لا يحس أنه يقاتل من أجل ابن الزبير ، وليس الذي يدفعه للتمثال عداؤه للأمريين ، ولكنه يحارب هذه القبائل اليمنية ، التي عادت للظهور بعد أن أخمها الإسلام ، وقضى على مجدها الجاهلي القديم . واليمنية — ومعظمهم من الشام — يقاتلون في سبيل الظهور إلى الحياة ، واستعادة سلطانهم السياسي ، وإقرار الملك في الشام بعد أن أزاله الإسلام ونزله إلى الحجاز ، والأمويون عندهم مطية لتحقيق أغراضهم ، وسبب لما يحاولون من السيادة والملك . والدارس لهذا اللون من ألوان الهجاء السياسي ، يرى أن القيسي عميق الشعور بمضريته ، واليمني عميق الشعور بيمينيته . فالقيسي لا يحس أنه تابع لابن الزبير ، ولكنه قيسي قبل كل شيء وبعد كل شيء . واليمني لا يحس أنه من جند معاوية أو مروان ، ولكنه يمني أولاً وآخراً . فالفريقان كلاهما لم يكرنا مدفوعين إلى القتال بفكرة سياسية حول نظام الملك أي أنواعه أصلح ، وأياها أدنى لتحقيق العدالة وإقامة الإسلام ، ولكنهما كانا مدفوعين إليه بالعصيات الجاهلية والثرات القديمة ، ولم تكن هذه الفتنة الإسلامية الجديدة إلا منفذاً أو ثغرة لهذه الحزازات ، التي تلمست طريقها إلى الوجود عن طريق هؤلاء الزعماء الذين يتقاتلون على الحكم .

يقول زفر بن الحارث الكلابي في مرج راهط (١) :

أريني سلاحي لا أباك إنني أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتاني عن مروان بالغيب أنه مُقِيدٌ دمي أو قاطعٌ من لسانيا
ففي العيس منجاةٌ وفي الأرض مهربٌ إذا نحن رفعنا لهن المثنائيا (٢)
فلا تحسبوني إن تغيبت غافلا ولا تفرحوا إن جئكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على در من الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا (٣)
أتذهب كلبٌ لم تنلها رماحنا وتترك قتلى راهط هي ما هيا (٤)
لعمري لقد أبقت وقعة راهط لحسان صدعا بيننا متنائيا
أمن بعد عمرو وابن معن تنابعا ومقتل همّام أمني الأمانيا (٥)
فلم تر مني نبوة قبل هذه فرارى وتركى صاحبى ورائيا
عشية أعدو بالقران فلا أرى من الناس إلا من على ولايا
أيذهب يومٌ واحدٌ إن أسأته بصالح أيامي وحسن بلاءيا

(١) الطبرى ٤ : ٤١٨ ، ابن الأثير ٣ : ٣٢٩

(٢) المثنى معاطف الوادى ، وركبتا الدابة ومرقأها والمعنى يصلح بكليهما .

(٣) الدمن أرواث البهائم المتلبدة والأبعاد . يقول إن الحقد الدفين يظل كامنا في النفس وإن سترته مظاهر البشاشة كما أن المراعى الخضر الزاهية تنبت فوق الدمن فتخفيها عن الأعين ولسكنها باقية كما هي .

(٤) كلب قبيلة يمنية تسكن بادية الشام أصهر إليهم معاوية ، منهم أم ولده يزيد . وقد كانوا منذ ذلك الوقت عصية أموية . قتلى راهط يقصد وقعة مرج راهط وهي من المواقع العظيمة الحاسمة كانت بين الزبيرية بقيادة الضحاك بن قيس وبين الأمويين يقودهم مروان بن الحكم . وقد كان جند مروان في هذه الواقعة من اليمنية (كلب وغسان والكاسك والسكون) وكان جند الضحاك من قيس عيلان . وقد قتل من القيسية في هذه الواقعة عدد ضخم .

(٥) هؤلاء قيسية قتلوا في مرج راهط .

فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا
ألا ليت شعري هل تُصين غارتى
فيجيبه جواس بن قعـطل :

لعمري لقد أبت وقعة راهط
مقيماً ثوى بين الضلوع محله
تبكى على قتلى سليم وعامر
كدعى بسلاح ثم أحجم إذ رأى
عليها كأسد الغاب فتیان نجدة
ويجيبه عمرو بن مخلاة الكلبى :

بكى زفر القيسى من هلك قومه
يبكى على قتلى أصيت براهط
أبجنا حى للحى قيس براهط
يُبكيهم حران تجرى دموعه
فمت كمداً أو عش ذليلاً مَهْضاً
إذا خطرَتْ حولى قضاة بالقنا
خبطت بهم من كادنى من قبيلة

ويعز على زفر أن يقتل ابن الزبير وهو قرشى مضرى ، بينما يمدل وابن
بمدل — أخوال يزيد بن معاوية ينعمان بالحياة — وهما يمنيان فيقول :

(١) كلب وتنوخ وطفى قبائل يمنية اشتركت مع الأمويين فى مرج راهط .

(٢) سليم وعامر رذيان قبائل من قيس عيلان .

أَفِي اللَّهِ أَمَّا بِحَدَلٍ وَابْنُ بَحْدَلٍ فَيَحْيَا وَأَمَّا ابْنُ الزَّبِيرِ فَيُقْتَلُ
كَذَبْتُمْ وَبَيَّتَ اللَّهُ لَا تَقْتُلُونَهُ وَلَمَّا يَكُنْ يَوْمٌ أَغْرَى مُحَجَّلُ
وَمَا يَكُنْ لِلْمَشْرِفِيَّةِ فَوْقَكُمْ شُعَاعٌ كَقَرْنِ الشَّمْسِ حِينَ تَرَجَّلُ
فِيحْيِيهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ (أَخُو مِرْوَانَ) :

أَتَذْهَبُ كَلْبٌ قَدْ سَحَمَتْهَا رِمَاحُنَا وَتُتْرَكُ قَتْلَى رَاهِطٍ مَا أُجِنَّتْ
لِخَالِ اللَّهِ قَيْسًا قَيْسَ عَيْلَانَ إِنِّهَا أَضَاعَتْ ثَغُورَ الْمُسْلِمِينَ وَوَلَّتْ
فَبَاغَ بِقَيْسٍ فِي الرِّخَاءِ وَلَا تَكُنْ أَخَاهَا إِذَا مَا الْمَشْرِفِيَّةُ سَلَّتْ
وَمَا يَنَاسِبُ هَذَا النُّوعَ شَعْرُ ابْنِ بَقِيلَةَ ، الَّذِي قَالَهُ فِي فَتْحِ خَالِدٍ لِلْعِرَاقِ
يَتَحَسَّرُ عَلَى مَا كَانَ لِلْيَمْنِيَّةِ مِنْ مَجْدٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ دَفْعِ الْجَزْيَةِ
لِلْخُلَفَاءِ وَالْحُكَّامِ مِنْ مَضَرٍّ (١) .

أَبْعَدَ الْمُنْذَرَيْنِ أَرَى سَوَامًا تَرَوِّحُ بِالْخُورَنُقِ وَالسَّيْرِ (٢)
وَبَعْدَ فَوَارِسِ النُّعْمَانِ أُرْعَى قَلْوَصًا بَيْنَ مِرَّةٍ وَالْحَفِيرِ
فَضَرْنَا بَعْدَ هُلُوكِ أَبِي قُبَيْسٍ كَجُرْبِ الْمَعْرِزِ فِي الْيَوْمِ الْمَطِيرِ (٣)
تَقْسَمُنَا الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ عَلَانِيَةً كَأَيْسَارِ الْجَزُورِ (٤)

(١) الطبري ٢ : ٥٦٦

(٢) المنذران ملوك الحيرة هما المنذر بن النعمان الذي بنى الخورنق والمنذر بن ماء السماء .
وماء السماء أمه كانت مشهورة بحسنها وجمالها وأبوه الأسود بن النعمان بن المنذر . الخورنق
والسدير قصران مشهوران لملوك الحيرة .

(٣) أبو قبيس يقصد أبا قابوس النعمان بن المنذر صاحب النابغة الذبياني .

(٤) هو معد بن عدنان الجد الأكبر لعرب الشمال من ربيعة ومضر . ويقال له قحطان
الجد الأكبر لعرب الجنوب من كهلان وحير . وملوك الحيرة والشام من عرب الجنوب
يقول الشاعر . بعد أن كان عرب الجنوب من القحطانية ملوك الناس أصبح عرب الشمال
يملكون عليهم ويتقسمونهم بينهم كما يتقسم لاعبو اليسر الجزور . والجزور من الإبل الناقة
أو الجمل يطلق على الذكر والأنثى .

وَكُنَّا لَا يُرَامُ لَنَا حَرِيمٌ فَنَحْنُ كَضَرَّةِ الصَّرْعِ الْفَخُورِ
تَوَدَّى الْخُرْجَ بَعْدَ خُرَاجِ كِسْرَى وَخَرَجَ مِنْ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ
كَذَاكَ الدَّهْرُ دَوْلَتُهُ سِجَالٌ فَيَوْمٌ مِنْ مَسَاءَةٍ أَوْ سُرُورِ
ومنه شعر النجاشي ، في معارضة سياسة معاوية إزاء اليمنيين في الحروب ،
إذ كان يغزيهم في البحر ويغزي تيميا في البر (١) :

أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ الَّذِينَ تَجَمَّعُوا بَعَكَا أَنْاسُ أَنْتُمْ أَمْ أَبَاعِرُ
أَتَتْرَكُ قَيْسَ آمَنِينَ بِدِرَارِهِمْ وَتَرْكَبُ ظَهَرَ الْبَحْرِ وَالْبَحْرُ زَاخِرُ ؟
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَسَائِلُ أَهْمَدَانُ تَحْمِي ضِيَمَهَا أَمْ يَحْكُمِرُ ؟
أَمْ الشَّرَفُ الْأَعْلَى مِنْ أَوْلَادِ حَمِيرَ بَنُو مَالِكٍ أَمْ تَسْتَمِرُّ الْمَرَائِرُ (٢)
أَوْصَى أَبُوهُمْ بَيْنَهُمْ أَنْ تَوَاصَلُوا وَأَوْصَى أَبُوكم بَيْنَكُمْ أَنْ تَدَابَرُوا ؟
وهناك نوع جديد من هذا الهجاء العصبي لم يعرفه الجاهلون ، هو هجاء
الإقليم . وهو يصور تعلق الناس بأوطانهم التي نزحوا إليها ، وشعورهم برابطة
جديدة تجمعهم على اختلاف قبائلهم ، هي الإقليم . فالعربي الذي لم يعرف
الاستقرار في الجاهلية ، ولم تكن تحركة إلا العصبية للأفراد من قبيلته ،
قد بدأ يحس بشيء من العطف نحو الأرض التي سكنها واستقر فيها وتعلق بها .
ومن أمثلة هذا النوع ، هجاء أعشى همدان لأهل العراق ، في تلونهم وإرصادهم
الفتنة ونكوصهم في الحروب :

أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتَمَّمَّ نَوْرَهُ وَيُطْفِئَ نَوْرَ الْفَاسِقِينَ فَيُخَمِّدَا

(١) خزائن الأدب ٣ : ٢٥٥

(٢) همدان قبيلة يمنية . وحير أحد فروع قحطان من عرب الجنوب ومالك هو مالك
ابن حير وهو جد لعدة قبائل منها كلب وعدرة ونهد وجرم وغيرهم . المرة بكسر الميم وتشديد
الراء القوة . وأمر الحبل على البناء للمجهول شد قتله . استمر مريره واستمرت
مريرته استحكم .

وَيُظْهِرُ أَهْلَ الْحَقِّ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ وَيُنْزِلُ ذُلًّا بِالْعِرَاقِ وَأَهْلِهِ
وَمَا أَحَدُهُمْ مِنْ بَدْعَةٍ وَعَظِيمَةٍ وَمَا نَكَشُوا مِنْ بَيْعَةٍ بَعْدَ بَيْعَةٍ
وَجُبْنًا حِشَاءَ رَبُّهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ فَلَا صَدَقَ فِي قَوْلٍ وَلَا صَبَرَ عِنْدَهُمْ
فَكَيْفَ رَأَيْتَ اللَّهَ فَرَّقَ جَمْعَهُمْ فَقَتَلَهُمْ قَتْلًا ضَالًّا وَفِتْنَةً
وَمِنْهُ هَجَاؤُهُ لِأَهْلِ الْبَصْرَةِ مَفْتَخَرًا عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْجَمَلِ: (الاعشى)

أَكْشَعُ الْبَصْرِيِّ إِنْ لَا يَدَيْتَهُ إِنَّمَا يُكْشَعُ مِنْ قَلٍّ وَذَلٍّ (٢)
وَأَجْعَلُ الْكُوفِيَّ فِي الْخَيْلِ وَلَا تَجْعَلُ الْبَصْرِيَّ إِلَّا فِي النَّفْلِ (٣)
أَفْخَرْتُمْ أَنْ قَتَلْتُمْ أَعْبَدًا وَهَزَمْتُمْ مَرَّةً آلَ عَزَلٍ
نَحْنُ سَقَنَاهُمْ إِلَيْكُمْ عَنُوءَةً وَجَمَعْنَا أَمْرَكُمْ بَعْدَ فَشَلٍ
وَإِذَا فَاخَرْتُمُونَا فَاذْكُرُوا مَا فَعَلْنَا بِكُمْ يَوْمَ الْجَمَلِ
بَيْنَ شَيْخٍ خَاضِبٍ عَشُونَةٍ وَفَتًى أَيْضٍ وَضَّاحٍ رَفِيعٍ (٤)

(١) الصيد محرّكة بفتح الصاد داء بالعتق لا يستطيع أن يلتفت معه . والمقصود به هنا الكبير .

(٢) كسعه مثل منعه ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه .

(٣) النفل محرّكة بالفتح الغنيمة وجمعها أنفال . يقول إن الكوفي يصلح للقتال أما البصري فهو لا يصلح إلا لاقتسام الغنائم .

(٤) العشون بضم العين اللحية أو ما فضل منها بعد العارضين . وإنما يخضب الرجل لحيته إذا شاب لينطى بالخضاب شبيهه . رفل مختال يتبختر .

جاءنا يَهْدِجُ في سَابِغَةٍ فنبحناه ضَحَى ذَبْحِ الْجَلِ (١)
وعفونا فنسيتم عَفُونَا وكفرتم نعمةَ الله الأَجَلِ
وقتلتم خَشَبِيَّينَ بهم بَدَلًا من قَوْمِكم شَرَّ بَدَلِ

ومنه هجاؤه لمكران — والظاهر أنه قد سار إليها غازياً على كره منه —
وشعره هنا يصور إلى جانب النزعة الأقليمية ضيقاً بالغزو ، وبما يليق الجند
من عنت ، يجره الإيغال في الفتوح . يقول الأعشى بعد تشييب طويل يبلغ
سنة وثلاثين بيتاً :

وَأَنْتَ تَسِيرُ إِلَى مُكَّرَانَ	فَقَدْ شَحَطَ الْوَرْدُ وَالْمَصْدَرُ
وَلَمْ تَكْ مِنْ حَاجَتِي مَكَرَانَ	وَلَا الْغَزْوُ فِيهَا وَلَا الْمَتَجَرُّ
وُخْبِرْتُ عَنْهَا وَلَمْ آتِهَا	فَمَا زِلْتُ مِنْ أَذْكَرِهَا أَذْعَرُ
بَأَنَّ الْكَثِيرَ بِهَا جَائِعٌ	وَأَنَّ الْقَلِيلَ بِهَا مُقْتَرٌ
وَأَنَّ لِحَيِّ النَّاسِ مِنْ حَرِّهَا	تَطُولُ فَتُجْلَمُ أَوْ تُصْفَرُ
وَيَزْعُمُ مَنْ جَاءَهَا قَبْلَنَا	بَأَنَّ سُنُسَهُمْ أَوْ نُنَحَرُ
أَعُوذُ بِرَبِّي مِنَ الْمُخْزِيَّاتِ	فِيمَا أُسِرُّ وَمَا أُجْهَرُ
وَحَدَّثْتُ أَنَّ مَالَنَا رَجَعَهُ	سَنِينَ وَمِنْ بَعْدِهَا أَشْهُرُ
إِلَى ذَلِكَ مَا شَابَ أَبْنَاؤُنَا	وَبَادَ الْأَخِيَاءَ وَالْمَعَشَرَ
وَمَا كَانَ بِي مِنْ نَشَاطٍ لَهَا	وَإِنِّي لَذُو عُدَّةٍ مُؤَسِّرُ
وَلَكِنْ بُعِثْتُ لَهَا كَارَهَا	وَقِيلَ انْطَلِقْ لِلَّذِي يُؤَمَّرُ

(١) الهدجان والهداج بضم الهاء مشية الشيخ المرتعشة . سابغة درع سابغة تغطي
سائر الجسم .

فكان النجاء ولم ألتفت إليهم وشرُّهم منكراً
هو السيفُ جرد من غمده فليس عن السيف مُستأخراً
وكم من أخ لي مستأنس يظل به الدمع يستعسر
يودُّ عني وانتحى عبرة له كالجداول أو أغزر
فلست بلاقيه من بعدها يد الدهر ما هبت الصرصر
وقد قيل إنكم عابرو ن بجرّاً لها لم يكن يُعبر
إلى السند والهند من أرضهم هم الجن لكنهم أنكر
وما رام غزوا لها قبلنا أكبر عاد ولا حمير
ولا رام سابور عزوا لها ولا الشيخ كسرى ولا قيصر
ومن دونها معبر واسع وأجر عظيم لمن يؤجر!
ومن الهجاء الذي تظهر فيه عصبية الإقليم ، قول عدى بن زيد بن عدى
ابن الرقاع العامل ، في حرب مصعب بالعراق ^(١) :

لعمري لقد أصحرت خيلنا بأكناف دجلة للمصعب ^(٢)
إذا ما مُنافق أهل العرا ق عوتب مُمت لم يُعنب ^(٣)
كلفنا إليه بنى تدرئ قليل التَّقْد للغيّب ^(٤)
يُزون كلّ طويل القنا ة ملتئم النصل والثعلب ^(٥)

(١) الطبرى ٥ : ٢

(٢) أصحرت خرجت للصحراء .

(٣) أعتبه سره بعد ما ساءه . والاسم منه العتبي .

(٤) دلف الشيخ والمقيد دليفاً ودلوفاً وهو فوق الديب . درأ العدو دفعه وذو

تدرء قوى على دفع أعدائه .

(٥) الثعلب رأس الرمح .

كَانَ دُعَاهُمْ إِذَا مَا غَدَاوا ضَجِيجُ قَطَابِلٍ مُخْصِبِ
فَقَدَّمْنَا وَاضِحٌ وَجْهَهُ كَرِيمُ الضَّرَائِبِ وَالْمَنْصِبِ
أَعَيْنَ بَنَّا وَنُصِرْنَا بِهِ وَمَنْ يَنْصُرُ اللَّهَ لَمْ يُغْلَبْ

ومنه شعر نعيم بن هبيرة الشيباني ، الذي كتب به إلى أخيه مصقلة بن هبيرة ،
وقد انتقل إلى الشام ، وانضم إلى جند معاوية ، ثم أرسل إلى أخيه يطمعه
في ترك علي ، والانضمام لمعاوية (١) :

قَدْ كُنْتَ فِي مَنَظَرٍ عَنْ ذَا وَمُسْتَمَعٍ تَحْمِي الْعِرَاقَ وَتُدْعَى خَيْرَ شَيْبَانَا
حَتَّى تَقَحَّمْتَ أَمْرًا كُنْتَ تَكْرَهُهُ لِلرَّاكِبِينَ لَهُ سِرًّا وَإِعْلَانَا
لَوْ كُنْتَ أَدَّيْتَ مَا لِلْقَوْمِ مُصْطَبِرَا لِلْحَقِّ أَحْيَيْتَ أَحْيَانَا وَمَوْتَانَا
لَكِنْ لَحَقْتَ بِأَهْلِ الشَّامِ مُلْتَمِسَا فَضْلَ ابْنِ هَنْدٍ وَذَاكَ الرَّأْيَ أَشْجَانَا
ومنه قول النجاشي في هجاء أهل الكوفة (٢) :

إِذَا سَقَى اللَّهُ أَرْضًا صَوَّبَ غَادِيَةً فَلَا سَقَى اللَّهُ أَهْلَ الْكُوفَةِ الْمَطْرَا
الْتَارِكِينَ عَلَى طَهْرٍ نَسَاءَهُمُ وَالنَّاكِحِينَ بِشَطْطٍ دَجَلَةُ الْبَقْرَا
وَالسَّارِقِينَ إِذَا مَا جَنَّ لِيَأْهُمُ وَالتَّانِينَ إِذَا مَا أَصْبَحُوا السُّورَا

ومما تظهر فيه عصبية الشام وعصبية العراق ، شعر ابن جعيل يعارض
عليًا ، ويتهمه بايواء قتلة عثمان والإغضاء عنهم (٣) :

أَرَى الشَّامَ تَكْرَهُهُ مُلْكُ الْعِرَاقِ وَأَهْلُ الْعِرَاقِ لَهَا كَارَهُونَا

(١) الطبري ٤ : ١٠١

(٢) الشعر والشعراء ١١٥

(٣) وقعة صفين ٦٣

وكلُّ لصاحبه مُبْغِضٌ يَرى كلَّ ما كان من ذاك دينا
إذا ما رمونا ورميناهم ودرناهم مثل ما يُقرضونا
وقالوا علىَّ أُمَامٌ لنا فقلنا لهم لا نرى أن ندرينا
ومن دون ذلك خرطُ القناد وضربُ وطعنُ يُقرُّ العيونا
وكلُّ يُسرُّ بما عنده يرى غثاً ما في يديه سمينا
وما في علىَّ لمستعربٍ مقالٌ سوى ضُمَّه المُحْثَرِينَا^(١)
وأيَّساره اليومَ أهلَ الذُّنوبِ ورفع القصاص عن القاتلينا
إذا سيلَ عنه حدا شُبُهَةٌ وعمى الجواب على السائلينا^(٢)
فليس براضٍ ولا ساخطٍ ولا في النُّهارة ولا الآمرينا
ولا هو ساء ولا سرَّه ولا بد من بعض ذا أن يكونا

وإذا تجاوزنا هذا اللون المتغلب الرجعي من الهجاء السياسي ، وجدنا شعراً قد تخطى هذه النزعات القبلية ، ليصور حياة أرقى وتفكيراً أسمى من الناحية الاجتماعية ، ونظرة أوسع وأففاً أشمل من الناحية الوطنية . فهو يترفع عن الفكرة القبلية الضيقة ، ويناقش نظام الحكم في هذا الوطن الجديد الواسع ، مهاجماً هذا أو ذاك من الطامعين في الملك ، معارضاً حقهم فيه . وهذا الشعر يتميز بإدراكه للحياة الجديدة ، وتأثره بمثل الإسلام وأسلوب القرآن . فالشعراء هنا لا يستمدون نغزهم وهجاءهم من قديمهم الجاهلي ، ولكنهم يستمدونه من حياتهم الإسلامية ، وما لهم فيها من سابقة وفضل ، ويزنون الأمور بالمعايير الإسلامية الجديدة . ومما يصور هذا اللون ، شعر

(١) يقصد بالمحدثين قتلة عثمان . يتهم علياً بأبوائهم .

(٢) إذا سيل يقصد إذا سئل عن القصاص من قتلة عثمان . حدا شبهة ساقها .

سعيد بن عبد الرحمن بن حسان ، في قتل مصعب لزوجة المختار بن عبيد الثقفي ،
وهي بنت النعمان بن بشير^(١) :

أتى راكبٌ بالأمر ذى النبأ العَجَبُ بقتل ابنة النعمان ذى الدين والحسب
بقتل فتاة ذاتِ دلٍّ وسيرة مهذبة الأخلاق والخيَم والنسب
مُطَهَّرَةٌ من نسل قوم أكارِم من المؤثرين الخيرِ في سالف الحُقب
خليل النبيِّ المصطفى ونصيرِهِ وصاحبه في الحرب والنكب والكُرب
أتانى بأن الملُحدين توافقوا على قتلها لا جُنُبوا القتلَ والسلب
فلا هنأت آكل الزبير معيشةً وذاقوا لباس الذل والخوف والحربُ
كانهم إذ أبرزوها وقُطعتْ بأسيا فهم فازوا بمملكة العربُ
ألم تعجب الأقوامُ من قتل حُرَّةٍ من المحصنات الدينِ محمودِ الأدب
من الغافلاتِ المؤمناتِ بريئةٍ من الدم والبُهتان والشكِّ والكذب
علينا كتابُ القتل والبأسِ واجبٌ وهن العِصافُ في الحِجال وفي الحُجب
على دين أجدادِها وأبوةٍ كرامٍ مضت لم تُخز أهلاً ولم تُرب
من الخفريات لا خروجٌ بذيةٍ ملايمةً تبغى على جارها الجُنُب
ولا الجار ذى القربى ولم تدْرِ ما الخنا ولم تَزْدلف يوماً بسوءٍ ولم تُحِب
عجبتُ لها إذ كفنتُ وهي حية ألا إن هذا الخطبُ من أعجب العَجَب

فهو هنا لا يعير مصعباً ضعفه أو خمول أجداده ، مستعينة على ذلك
بتاريخهم ومن أذلهم من القبائل وغلبهم ، ولسكنه يعيره خروجه على الدين
الذى يدعو باسمه ، محتجاً عليه بأنه قد أباح دم مسلمة لا يحل له قتلها ، مستنداً

(١) الطبري ٤ : ٥٧٤ .
(٢) ...

إلى صنيع قومها في الإسلام ، وسابقتهم في نصر النبي . وهذا الشعر واضح التأثير بالقرآن في ألفاظه وأسلوبه ومبادئه الأخلاقية ، في مثل قوله (وذاقوا لباس الذل والخوف والحرب) ، وقوله (علينا كتاب القتل والبأس واجب) وقوله (على جارها الجنب) ؛ ثم (ولا الجار ذى القربى) .

وبعض هذا الهجاء منصب على نظام الحكم ؛ مثل شعر عبد الله بن هشام السلولي في مبايعة معاوية لابنه يزيد ، وهو يهاجم نظام الوراثة الذى ابتدعه معاوية ، قائلاً إنه كسروية ليس من الإسلام فى شيء ^(١) :

فَإِنْ تَأْتَوْا بِرُمْلَةٍ أَوْ بَهْنَدٍ نَبَايَعُهَا أَمِيرَةٌ مُؤْمِنِينَ ^(٢)
إِذَا مَا مَاتَ كَسْرِي قَامَ كَسْرِي نَعْدُ ثَلَاثَةً مُتَنَاسِقِينَ
فِيَا لَهْفَا لَوْ أَنَّ لَنَا أُلُوفًا وَلَكِنْ لَا تَعُودُ كَمَا عُنِينَا
إِذَا لَضُرْبَتُمُو حَتَّى تَعُودُوا بِمَكَّةَ تَلْعَقُونَ بِهَا السَّخِينَا ^(٣)
حُسَيْنَا الْغَيْظُ حَتَّى لَوْ شَرَبْنَا دِمَاءَ بَنِي أُمِيَّةٍ مَارُونَا
لَقَدْ ضَاعَتْ رَعْيَتُكُمْ وَأَنْتُمْ تَصِيدُونَ الْأَرَانِبَ غَافِلِينَ

وبعضه منصب على أشخاص الحكام ، ونقد سياستهم ، واتهامهم بمجافاة الدين والخروج على الشرع فيما يفعلون ، مثل شعر جارية بن قدامة السعدي ، يندد بما فعل طلحة والزبير ، من إخراج عائشة أم المؤمنين للقتال ؛ وقد أمرها الله أن تقرر في بيتها ^(٤) :

(١) مروج الذهب ٢ : ٧٠

(٢) رملة بنت معاوية وهند أمه . يسخر به ويقول كنا مستعدين لأن نباع بالخلافة لامرأة ما دمت تريد ذلك وتفرضه على الناس .

(٣) السخينة كسفينة طعام رقيق يتخذ من دقيق . وهو لقب لقريش كانت تعير به لانتهازها إياه .

(٤) الطبرى ٣ : ٤٨٢

صُنِّمُ حَلَالِكُمْ وَقُدِّمُ أَمِّكُمْ هذا لعمرك قَلَّةُ الْإِنصَافِ
أُمِرْتُ بِجَرِّ ذِيولِهَا فِي بَيْتِهَا فَهَوَتْ تَشْقُ الْبَيْدَ بِالْإِجَافِ
غَرَضًا يُقَاتِلُ دُونَهَا أَبْنَاوُهَا يالْبَلَّ وَالْخَطِيءُ وَالْأَسِيفِ
هَتَكْتُ بِطُلْحَةِ وَالزَّبِيرِ سُرُورُهَا هذا الْمُحَبَّرُ عَنْهُمْ وَالْكَافِ
وقول عمرة بن بحرة ، يلومها على خروجها للقتال ، وتحريضها على سفك
الدماء (١) :

يَا أُمَّنَا أَعَقَّ أُمَّ نَعْلَمُ وَالْأُمُّ تَغْذُو وَلَدًا وَتَرْحَمُ
أَلَا تَرَيْنَ كَمْ شَجَاعٍ يُكَلِّمُ وَتُخْتَلِي مِنْهُ يَدُهُ وَمِعْصَمُ
وقول ابن أم الكلاب لها ، يتهمها بتهييج الناس على عثمان ، إذ تقول
(اقتلوا نعثلا فإنه قد كفر) حتى إذا قتل واجتمع الناس على بيعة على ،
قامت تطالبه بدم عثمان (٢) :

مَنْكَ الْبِدَاءُ وَمَنْكَ الْغَيْرُ وَمَنْكَ الرِّيحُ وَمَنْكَ الْمَطَرُ
وَأَنْتِ أُمِرْتِ بِقَتْلِ الْأَمَامِ وَقُلْتِ لَنَا إِنَّهُ قَدْ كَفَرَ
فَهَبْنَا أَطْعَمَانَا فِي قَتْلِهِ وَقَاتَلَهُ عِنْدَنَا مَنْ أَمَرَ
وَلَمْ يَسْقُطِ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِنَا وَلَمْ يَنْكَسِفْ شَمْسُنَا وَالْقَمَرُ
وَقَدْ بَايَعَ النَّاسُ إِذْ تَدْرَأِ يُزِيلُ الشَّبَا وَيُقِيمُ الصَّمَرَ (٣)
وَيَلْبَسُ لِلْحَرْبِ أَثْوَابَهَا وَمَا مَنْ وَفَى مِثْلَ مَنْ قَدْ غَدَرَ

(١) الطبرى ٣ : ٢٥٦

(٢) الطبرى ٣ : ٤٧٧

(٣) الدرء الدفع وذو تدرا قوى على مذاكرة العدو . الشبا جمع شبة وهى العقرب
ساعة تولد وإبرتها وحد كل شيء . والشبا كذلك الطحلب وهو أقرب للمتصود هنا أى
يزيل الشوائب . الصعر الميل فى الحدا خاصة وهو وصف المتكبر .

هذا شعر يناقش المسائل على ضوء الدين ، مروياً فيها متفكراً . وهو يذهب في هذا التفكير إلى أبعد حدوده ، فلا يتحرج من أن ينقد شخصاً له حرمة وقداًسة كأم المؤمنين ، وأن يهاجمها في قسوة وعنف :

ومن هذا النوع شعر أبي حرة — مولى ابن الزبير — في هجائه ، بعد أن انصرف عنه لبخله . وقد كان ابن الزبير لا يزال يقول للناس : إنما بطني شبر ، فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا ، وأنا العائد بالبيت ^(١) :

ما زال في سورة الأعراف يقرؤها حتى فؤادى مثل الخز في اللين
لو كان بطنك شبراً قد شبت وقد أفضلت فضلاً كثيراً للمساكين
إن أمراً كنت مولاه فضيئني يرجو الفلاح عمرى حق مغبون
وكذلك شعر الضحاك بن فيروز الديلمي فيه :

تخبرنا أن سوف تكفيك قبضة وبطنك شبر أو أقل من الشبر
وأنت إذا ما نلت شيئاً قضمته كما قضمت نار الغصى حطب السدر
فلو كنت تجزى أو تُثيبُ بنعمة قريباً لردتكَ العطوف على عمرو ^(٢)

وشعر أبي الطفيل عامر بن وائلة ، يؤيد ابن عباس في دعوتهما للعلويين ويهجو ابن الزبير لتضييقه عليهما ، ومنع الناس من لقاءهما والجلوس إليهما ^(٣) :

لادرّ درّ الليالي كيف تُضحكننا منها خطوب أعاجيب وتُبكيننا

(١) مروج الذهب ٢ : ٩٩

(٢) عمرو بن الزبير أخوه وقد كان خارجاً عليه يحاربه مع جند الشام . خرج في جيش لحربه في أيام يزيد فانهزم ، وظفر به أخوه عبد الله بن الزبير ، فأقامه بباب المسجد الحرام مجرداً ، ولم يزل يضربه بالسياط حتى مات .

(٣) خزنة الأدب ٤ : ٣٠

وما ذنبه أن نال عثمانَ معشرُ
فتار إليه المسلمون بيته
فبايعه الشيخان ثم تحملاً
فكان الذى قد كان مما اقتصاصه
فما أنتم والنصر منا وأنتم
وما أنتم الله درُّ أبيكم
أتوه من الأحياء يجمعهم مضرُ
علانيةً ما كان فيها لهم قصر
إلى العمرة العظمى وباطنها الغدر
رجيعُ فيالله ما أحدث الدهرُ
بعيشاً حروبٍ ما يبوخ لها الجمرُ
وذكر كما الشورى وقد فلبج الفجرُ

وبعض هذا الهجاء السياسى ، يصور ضيقاً شديداً بزعماء هذه الأمة ،
الذين قادوها إلى ما صارت إليه من التطاحن وسفك الدماء . فقد أيقظت
هذه الأحداث المتتابة عقول الناس ، وفتحت عيونهم على ما حولهم ،
وأخرجتهم من سذاجتهم ، فلم يعودوا يحسنون الظن بقائد من قوادهم ،
أو زعيم من زعمائهم ، فكلهم متهاك على حطام الدنيا ، لا يدفعه إلا الجشع
والغرور ، يقولون غير ما يعملون ، ويضللون الناس بما يظهرون من النسك
والورع ، والحرص على إقامة الدين وإعلاء شأنه ، واتهام خصومهم بالمروق
والتهاون فى الأخذ بسننه . مل الناس هذا الرياء ، ولم يعد من السهل خداعهم
بالخطب والوعود ، بعد أن أسرع هذه المعارك بالتفكير إلى النضج ،
ونبهت ملكة النقد ، ففتحت بذلك باب الهجاء الاجتماعى ، الذى نضج
فى القرن الثانى الهجرى ، ثم بلغ الذروة على يد المتنبي والمعرى :

فن الشعر الذى يصور ضيق الناس بما آل إليه أمرهم من اضطراب
وخلاف ، قول الصلتان العبدى (١) :

أرى أمةً شهرت سيفها وقد زيدَ فى سوطها الأصبَحى (٢)

(١) الكامل للمبرد ٢ : ١١٨

(٢) الأصبَحى السوط نسبة إلى ذى أصبح من ملوك اليمن ..

بِنَجْدِيَّةٍ وَحَرُورِيَّةٍ وَأَرْزَقَ يَدْعُو إِلَى أَرْزَقٍ^(١)
فَمَلَّئْنَا أَتْنَا الْمُسْلِمِينَ عَلَى دِينِ صِدِّيقِنَا وَالنَّبِيِّ

وَمِنْهُ :

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفَى الْكَبِيرَ كَرُّ الْغَدَاةِ وَمَرُّ الْعَشِيِّ
إِذَا لَيْلَةٌ هَرَمَتْ يَوْمَهَا أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ فَتَى
نُورُهُ وَنَعْدُو لِحَاجَاتِنَا وَحَاجَةُ مَنْ عَاشَ لَا تَنْقُضِي
تَمُوتُ مَعَ الْمَرَّةِ حَاجَاتُهُ وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِيَ
وَمِنْهُ شَعَرَ عَلَى بْنِ الْغَدِيرِ الْغَنَوَى . وَهُوَ يَرَى أَنَّ النَّاسَ لَا يَتَمَاتِلُونَ
إِلَّا مِنْ أَجْلِ قَرِيشٍ ، فَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ أَصْلُ الشَّرِّ وَأَسُّ الْبَلَاءِ ، وَمَنْ الْخَيْرُ
لِلنَّاسِ أَنْ يَدْعُوهُمْ وَشَأْنَهُمْ ، وَلَا يَهْلِكُوا أَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِهِمْ^(٢) :
مَنْ مَبْلَغُ قَيْسَ بْنِ عِيلَانَ كُلَّهَا بِمَا أَحْتَازَ مِنْهَا أَرْضَ نَجْدٍ وَشَامَهَا
فَلَا تَهْلِكُنْكُمْ فِتْنَةُ كُلِّ أَهْلِهَا كَحِيرَانٍ فِي طَخِيَاءٍ دَاجٍ ظَلَامُهَا
فَشَانَ قَرِيشٍ وَالْخُصُومَةَ بَيْنَهَا إِذَا اخْتَصَمْتَ حَتَّى يَقُومَ إِمَامُهَا
هُمْ اخْذُوهَا بَيْنَ حَتْفٍ مَعْجَلٍ وَخُطَّةٍ خَسْفٍ لَا تَزَالُ تَسَامُهَا
فَضُمُوا جَنَاحِيكُمْ إِلَى مُرْجَحِنَةٍ مَعَ حَرْبِهَا إِنْ حَارَبَتْ أَوْ سَلَامَهَا
وَشِيمُوا سَيُوفَ الْهِنْدِ حَتَّى تَبَيَّنُوا عَلَى أَيٍّْ أَعْدَاءُ يُسَلُّ حَسَامُهَا^(٣)

(١) النجدية والأزارقة فرقتان من الحوارج والحرورية اسم للحوارج سموا بذلك لانحيازهم إلى حروراء بعد صفين .

(٢) نقائض جرير والأخطل ٢٣

(٣) شام من الأضداد في اللغة تقول شام سيفه أسلته وشامه غمده أيضا والمقصود هنا المعنى الأخير . ضموا جناحيكم إلى مرجحنة أي كتيبة مرجحنة أو خطة مرجحنة من الرجحات .

وخلوا قريشاً تقتل إن ملكها لها وعليها يرُّها وأثامها
فإن وسعت أحلامها وسعت لها وإن عجزت لم يدَمْ إلا كلامها
فإن قريشاً مهلكٌ من أطاعها تنافسُ دنيا قد أحم أنصرامها
ومنه شعر حنظلة الكاتب في فتنة عثمان (١) :

عجبت لما يخوضُ عنهم يرومون الخلافة أن تزولا
ولو زالت لزال الخير عنهم ولاقوا بعدها ذلاً ذليلاً
وكانوا كاليهود أو النصارى سواء كلهم ضلوا السبيلا
وقد غلب الحزن والرثاء على هجاء الشيعة ، لكثرة من قتل منهم ، ولشدة
ما وقع عليهم من ظلم واضطهاد ، مثل شعر هند ابنة مخزومة الأنصارية ، في مقتل
حجر بن عدى (٢) :

ترفعُ أيها القمرُ المنيرُ تبصرُ هل ترى حُجراً يسيرُ
يسيرُ إلى معاويةَ بنِ حربٍ ليقته كما زعم الأميرُ
تجبرَّت الجبابرُ بعد حُجر وطاب لها الخورنقُ والسديرُ
وأصبحت البلادُ لها مُحولاً كأن لم يحبها مزنٌ مطيرُ
ألا يا حُجْرُ حُجْرُ بنى عدِيٍّ تلقنك السلامةَ والسرورُ
أخافُ عليك ما أَرَدَى عَدِيّاً وشيخاً من دِمَشقَ له زئيرُ
يرى قتلَ الخيارِ عليه حقاً له من شرٍّ أُمته وزيرُ
ألا ياليتَ حُجراً مات موتاً ولم ينحَرْ كما نحر البعيرُ
فإن يهلكُ فكلُّ زعيمٍ قومٍ من الدنيا إلى هلك يصيرُ

(١) الطبرى ٣ : ٤١٧

(٢) الطبرى ٤ : ٢٠٩

ومما يصور هذا الهجاء الحزين ، شعر امرأة من بني عبد المطالب ،
في قتل الحسين (١) :

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ماذا فعلتم وأنتم آخرُ الأمم
يعترتني وبأهلي بعد مفقدي منهم أسارى وقتلى ضُرِّجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحتُ لكم أن تخلُّفوني بسوء في ذوى رحمي
وتمثلت الفداية والإخلاص الهبداً إلى حد الموت والفناء في شعر
الخوارج فكان هجاءهم السياسي مختلطاً بالحماسة ، في الوقت الذي نرى فيه هجاء
الشيعة مختلطاً بالثناء . وكان شعرهم صورة صادقة لجراثيم النادرة ، وتطرفهم
الشديد في فهم الدين ، وإيمانهم العميق بهذه الآراء المتطرفة .
يتمول قطري بن الفجاعة ، مخاطباً أبا خالد التمناني - وهو من قحَّـد
الخوارج (٢) :

أبا خالد يا أنفَرُ فلست بخالدٍ وما جعل الرحمنُ عذراً لقاعد
أترغمُ أنَّ الخارجيّ على الهدى وأنتَ مقيمٌ بين لصٍ وجاحد
ويقول عيسى بن فاتك (من بني تيم اللات بن ثعلبة) ، في وقعة آسك ،
متهكماً بجيوش بني أمية (٣)

فلما أصبحوا صلّوا وقاموا إلى الجُرْدِ العِناقِ مُسَوِّمينَا (٤)
فلما استجمعوا كملوا عليهم فظلَّ ذوو الجعائل يُقَتِّلُونَا (٥)

(١) انطربى ٤ : ٢٩٤

(٢) الكامل ٣ : ١٠٧

(٣) الكامل ٢ : ١٥٧

(٤) مسومين معلمين ، والسومة العلامة يتخذها الفارس في الحرب ليعرف بها
من بين الناس .

(٥) الجعائل جمع جمالة كسحابة وهو ما تجعل للمحارب من أجر . يصف جنود
بني أمية بأنهم مأجورون لا يحاربون عن عقيدة .

بقيَّة يومهم حتى أتاهم سواد الليل فيه يُراوِغونا
يقول بصيرُهم لما أتاهم بأنَّ القومَ ولَّوا هاربينا
ألفا مؤمنٍ فيما زعمتم ويقتلهم بأسك أربعة — ونا
كذبتم ليس ذاك زعمتم ولكنَّ الخوارجَ مؤمنونا
هم الفئةُ القليلةُ غير شكٍّ على الفئةِ الكثيرةِ يُنصرونَا

وقال معاذ بن جوين ، يحض الناس على الثورة . وكان الخوارج قد
اجتمعوا إلى المستورد بن علفة ، عازمين على الخروج سنة ٤٣ هـ ، بعد أن
اجتمع الأمر لمعاوية ، ثم بلغهم أن المغيرة بن شعبه يكيد لهم ، وأنه قد أخذ
العهد على كل قبيلة أن تنفي من كان بينهم من الخوارج (١) :

ألا أيُّها الشارون قد حان لامرئٍ شَرى نفسه لله أن يترحَّلا
أقمتمُ بدارِ الخاطئين جهالةً وكلُّ امرئٍ منكم يُصادُ ليقتلَا
فشدُّوا على القومِ العداةِ فإنما إقامتكم للذبحِ رأياً مضللاً
ألا فاقصدوا يا قومُ للغايةِ التي إذا ذُكرتْ كانت أبرَّ وأعدلا
فياليتنى فيكم على ظهرِ سابجٍ شديدِ القصيرى دارعاً غير أعزلا (٢)
وياليتنى فيكم أعادى عدوكم فيسقينى كأسَ المنيةِ أولاً
يعز على أن تخافوا وتطرَّدوا ولما أُجرَّد فى المُحلِّين مُنصلاً
ولما يفرق جمعهم كلُّ ماجد إذا قلتُ قد ولَّى وأدبرَ أقبلا

(١) الطبرى ٤ : ١٤٣

(٢) القصيرى أسفل الأضلاع أو آخر ضلع فى الجنب وأصل العنق . غير أعزلا لضرورة
الشعر وحته غير أعزل .

مُشِيداً بِنَصْلِ السِّيفِ فِي حَمْسِ الْوُغَى يرى الصَّبْرَ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ أَمْثَلَا
وَعَزَّ عَلَى أَنْ تَضَامُوا وَتُقْصُوا وَأَصْبَحَ ذَا بَثٍّ أَسِيرًا مَكْبَلَا
وَلَوْ أَنِّي فِيكُمْ وَقَدْ قَصَدُوا لَكُمْ أَثَرْتُ إِذَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ قَسْطَلَا
فِيَارُبَّ جَمْعٍ قَدْ فَلَّتْ وَغَارَةٌ شَهِدْتُ وَقِرْنٍ قَدْ تَرَكْتُ مَجْدَلَا
وَمَا يَصُورُ إِخْلَاصَهُمُ الْعَمِيقَ لِمَبَادِئِهِمْ ، وَزَهْدَهُمْ فِي الْحَيَاةِ وَزَخْرَفِهَا ،
مَا كَتَبَ بِهِ قَطْرِي إِلَى سِيرَةِ بْنِ الْجَعْدِ الْخَارِجِي ، وَكَانَ سَمِينِ الْحِجَاجِ ، وَلَمْ يَكُنْ
يَعْرِفُ أَمْرَهُ (١) .

لِشَتَانِ مَا بَيْنَ ابْنِ جَعْدٍ وَبَيْنِنَا إِذَا نَحْنُ رَحْنَا فِي الْحَدِيدِ نُظَاكِهِرِ
نَجَاهِدُ فِرْسَانَ الْمَهْلَبِ كُلُّنَا صَبُورٌ عَلَى وَقَعِ السِّیُوفِ الْبَوَاتِرِ
وَرَا حَ يَجْرُ الْخَرَّ عِنْدَ أَمِيرِهِ أَمِيرٌ بِتَقْوَى رَبِّهِ غَيْرُ أَمْرِ
أَبَا الْجَعْدِ أَيْنَ الْعِلْمُ وَالْحِلْمُ وَالنُّهَى وَمِيرَاثُ آبَاءِ كِرَامِ الْعُنَاصِرِ
أَلَمْ تَرَأِ الْمَوْتَ لَا شَكَّ نَازِلَ وَلَا بَدَّ مِنْ بَعَثِ الْأَوَّلَى فِي الْمَقَابِرِ
حَفَاةً عِرَاءَةً وَالتَّرَابُ لَدِيهِمْ فَمِنْ بَيْنِ ذِي رِبْجٍ وَآخِرِ خَاسِرِ
فَإِنَّ الَّذِي قَدْ نَلْتَ يَقْنَى وَإِنَّمَا حَيَاتِكَ فِي الدُّنْيَا كَوَقْعَةِ طَائِرٍ
فَرَا جِعَ أَبَا جَعْدٍ وَلَا تَكُ مُغْضِيًّا عَلَى ظُلْمٍ أَعَشْتَ جَمِيعَ النَّوَاطِرِ
وَتُبُّ تَوْبَةً يُهْدَى إِلَيْكَ شَهَادَةٌ فَإِنَّكَ ذُو ذَنْبٍ وَلَسْتَ بِكَافِرٍ (٢)
وَسِرْ نَحُونَا تَلْقَ الْجِهَادَ غَنِيمَةً تُفِدُّكَ ابْتِغَاءً رَابِحًا غَيْرَ خَاسِرٍ (٣)

(١) مروج الذهب ٢ : ١٣٨

(٢) في هذا البيت إشارة إلى ما يرى الخوارج من تكفير مرتكب الذنوب .
(٣) يقصد أن الذي يبيع حياته يشتري بها الجنة وذلك قوله تعالى (إن الله اشترى
من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا
عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم
الذي بايعتم به . وذلك هو الفوز العظيم) .

هي الغاية القصوى الربيحُ ثوابها إذا نال في الدنيا الغنى كلُّ تاجر
ويقرأ سبرة الشعر فيبكي لشدة تأثره ، ويأخذ سلاحه لا حقا بقطري .
وفي ذلك يقول :

فَمَنْ مُبْلِغُ الْحِجَّاجِ أَنْ سَمِيرَهُ قَلَّا كُلَّ دِينَ غَيْرَ دِينِ الْخَوَارِجِ
رَأَى النَّاسَ إِلَّا مَنْ رَأَى مِثْلَ رَأْيِهِ مَلَاعِينَ تَرَا كَيْنَ قَصْدُ الْخَارِجِ
فَأَقْبَلْتُ نَحْوَ اللَّهِ بِاللَّهِ وَاثِقًا وَمَا كُرْبَتِي غَيْرَ الْإِلَهِ بِفَارِجِ
إِلَى عَصْبَةٍ أَمَّا النَّهَارُ فَإِنَّهُمْ هُمُ الْأَسْدُ الْأَسَدُ الْفِيلُ عِنْدَ النَّهَائِجِ
وَأَمَّا إِذَا مَا اللَّيْلُ جَنَّ فَإِنَّهُمْ قِيَامٌ بِأَنْوَاحِ النَّسَاءِ النَّوَاشِجِ
يُنَادُونَ لِلتَّحْكِيمِ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ رَأَوْا حُكْمَ عَمْرٍو كَالرَّيَّاحِ الْهُوَاجِ
وَحُكْمَ ابْنِ قَيْسٍ مِثْلَ ذَلِكَ فَأَعْصَمُوا بِحُبْلٍ شَدِيدٍ الْمَتَنِ لَيْسَ بِنَاهِجٍ (١)

ولدينا بعد هذا هجاء لا يتصل بأصول الحكم ، ولا يصور ميولا حزبية
معينة ، ولكنه يتصل بالولاية في الأقاليم ، يعارض سياستهم ، وينقد تصرفاتهم .
وهذا اللون من الهجاء السياسي مختلط بالهجاء الاجتماعي وهو من أمتع ألوان
الشعر السياسي ، وأكثرها دقة ووضوحا ، في الكشف عن معائب هذا المجتمع
الذي تعقدت فيه الحياة ، وتعارضت فيه الآراء والأهواء وهو لا يصور
معارضة حزبية ، ولكنه يصور سخطا على النظم الاجتماعية القائمة . فقد
تدفقت الأمثال على الناس ؛ وبدأت الفوارق الاجتماعية تتسع بينهم شيئا
فشيئا ، بعد أن كانوا قريبا من قريب ، فارتفع بعضهم من صفوف الشعب

(١) كان مما أنكر الخوارج على قبوله التحكيم حين ندب أبا موسى الأشعري
وندد معاوية عمرو بن العاص . وقد قالوا له فيما جرى بينه وبينهم من نقاش (لم حكمت
الحكمين ؟ فان كنت في شك من خلافتك فذكرك أولى بالشك . وجلتهم المشهورة في ذلك
(لا حكم إلا لله) .

إلى طبقة الحكام ، وانغمس في الترف والملاذ ، هذا يشرب ويطرب ، وذاك يسرق وينهب ، وآخر يتأنق في طعامه ولباسه . واتخذوا الحجاب ، فصار العربي لا يصل إلى الحاكم إلا بعد استئذان ، وربما دفع عن حاجته فلم يبلغ إليه ؛ فكان ذلك من أثقل الأشياء على نفس العربي ، الذي لم يألف مظاهر الملك والسلطان ، والذي كان يدخل على الخليفة نفسه قبل ذلك حين يشاء ، ويكلمه في غير كلفة . وتأثر الخلفاء والولاة بالعصية . فولوا أعمال الدولة قوما ليسوا من أهل الكفاية . هذا يقود الجيوش وهو جبان لا يصلح لقتال ، وذاك يلى أمور الناس وهو منافق يصطنع الرياء ، يظهر عليهم في ثياب النسك والورع ، فإذا خلا إلى نفسه كان أفسق خلق الله . وأحس الناس ثقل هذه النظم الإدارية الجديدة . التي جعلتهم طبقتين . تتميز إحداهما من الأخرى تميزا واضحا . طبقة الحكام وطبقة المحكومين . ولم يكن للحكام بد . بعد هذه الفتن الطويلة . التي فقد فيها الناس روح النظام واحترام القانون — من أن يأخذوا الناس بالعقوبات الرادعة . فاتسمت أفعالهم بالقسوة الخارجة على الدين وأحكامه في كثير من الأحيان . واستحدثوا ألوانا من التعذيب والتنكيل والتشهير ، ليس للناس بها عهد . وراح بعضهم يغلو في جباية الضرائب ، وبشتد في ذلك ، متجاوزا حق الدولة ، حتى ضجت الأمصار ، وفسدت العلاقات بين الحاكم والمحكوم ، وبدأ الناس يمتقون هذا النظام الجديد ويضيقون به . وصب الشعراء هذا الضيق على الولاة والعمال ، الذين يمثلون هذا النظام ويشرفون على تنفيذه .

انظر إلى هذه الصورة التي يقدمها يحيى بن نوفل الحميري يهجو أبان بن الوليد البجلي وأخاه بلالا . حين ولاهما خالد القسرى بعض الأعمال . كيف يصور ما ينغمس فيه العمال من ترف . وما يحيطون به أنفسهم من مظاهر الجاه . بعد عيش خشن . ورزق ضيق ضنين^(١)

تقولُ هُشَيْمَةُ فيما تقول ملأت الحياة أبا معمر ؟
ومالي أن لا أمل الحياة وهذا بلالٌ على المنبر !
وهذا أخوه يتودُّ الجيوش عظيم الشراذق والعسكر !
وأما ابنُ سلمى فشبههُ القناة رءُوحٌ بكورٌ على الجِجَمَر^(١)
دُبوبُ العشاء إذا أُطعمت حليمة كل فتى مُعُور
وأما ابنُ أشعث ذو الترهات وذو الكذب والزور والمنكر
فلو قيل عبْدٌ شرته التجار سيئٌ من الروم لم يُنكر
وهذا ابنُ ما هان بعد الشقاء وبعد الخياطة في كسْكَر
يروحُ يُسامي ملوك العراق وقد عاش دهرًا ولم يُذكر
وأما المكحلُ وهبُ الهناة فلو قيّد الدهر لم يصبر
عن الزفنِ والصنَجِ والمُسَمِّعات وقرع القوارير والمزهر
ولا عن هناتٍ له لو ظهرن فمات عليهن لم يُقبر
وهذا ابنُ زيدٍ له جُبَّةٌ تفوح من المسك والعنبر
وهذا أبانُ بنى الوكيد خطيبٌ إذا قام لم يحصر
أبعدَ الدواقِ وبعد الطُّروس وبعد الكتابِ على الدفتر !
ولو حلَّ ضيفٌ به لم يزده على الأبيضين مع الصعتر^(٢)

وانظر قوله في بلال بن أبي بردة الأشعري . ذاك الذي يدمن الشراب .
فلا يصبر عنه ليلاً ولا نهارة^(٣)

(١) الجمر والحجرة الذي يوضع فيه الجمر والبخور ، يقول لا هم له إلا التطيب
بالبخور وهو شأن النساء .

(٢) الأبيضان الماء واللبن : والصعتر ضرب من النبات وهو الذي نسميه الآن (زعتر)

(٣) العقد الفريد ٨ : ٦٤

وأما بلالٌ ف— ذاك الذى يميلُ الشرابُ به حيثُ مالا
يبيتُ يَمُصُّ عتيقَ الشرابِ كمْصُ الوليدِ يخافُ الفصلاً
ويُصبحُ مضطرباً ناعساً تخالُ من السكرِ فيه احولاً لا
ويمشى ضعيفاً كمشى النزيفِ تخالُ به حين يمشى شكلاً^(١)

وانظر إليه كيف يصور بلالاً هذا فى نفاقه وريائه . يظهر النسك والورع
ويخدع الناس بتلاوة القرآن ، وهذه العلامة التى اتخذها فى جبهته ، كأنها من
أثر السجود وإدمان الصلاة^(٢)

أبلالُ إني رابني من شأنكم قولُ تزيينه وفعلُ منكرك
مالى أراك إذا أردتَ خيانةً جعل السجودُ بحرَّ وجهك يظهر
متخشعاً طنباً لكل عزيمة تتلوا القرآنَ وأنت ذئبٌ أغبرُ
وفيه يقول متشفياً . وقد أصيب بالجذام .

فأما بلالٌ فإنَّ الجذا م جَلَّ ما جازَ منه الوريدا
فأنقع فى السمنِ أوصاله كما أنقع الأدمون الثريدا
فأكسدَ سمنَ تجارِ العرا ق فينا وأصبح فينا كسيدا

ثم انظر إلى ما يقول هذا الشاعر الكثير الهجاء ، الذى لا يكاد يمدح
أحداً ، فى سعيد ابن رشد . ذلك المنين الخامل ، الذى ارتقى للأماره . فليس
الخز وركب البغال فى المواكب ، واتخذ الحجاب .

بكى الخبز من إبطى سعيد بن راشد ومن إسته تبكى بغالُ المواكب

(١) النزيف الذى سال دمه والمجنون والسكران . والشكال الجبل الذى تشد به
قوائم الدابة إذا قيدت .

(٢) الشعر والشعراء ٢٨٧

فواعجبا حتى سعيد بن راشد له جاجب في الباب من دون حاجب !
ومن هذا اللون شعر أنس بن أبي إلياس ، في حارثة بن بدر النداني وقد
طلب من عبيد الله بن زياد أن يوليه . فخيره فاختر (سُرَّق) ، لما وصف له
من شرايها وكان مدمنا للخمر — فولاه إياها^(١)

أحار بن بدر قد وليت إمارة فكن جرذا فيها تخون وتسرق
وباه تيماً بالغنى إن للغنى لشأناً به المرء الهيوبه ينطق
فإن جميع الناس إما مكذب يقول بما يهوى وإما مصدق
يقولون أقوالاً ولا يعرفونها وإن قيل هاتوا حَقُّوا لم يُحَقِّقُوا
فلا تحقرن يا حار شيئاً أصبته فحظك من ملك العرايين (سُرَّق)^(٢)

ومنه شعر عبد الله بن همام السلولي . يهاجم النعمان بن بشير وإلى السكوفة .
وكان معاوية قد أمر لأهلها بزيادة عشرة دنانير في أعطياتهم . فخبسها النعمان
عنهم ولم ينفذها . لسابق إخلاصهم لعل^(٣)

زيادتنا نعمان لا تحرمنا خف الله فينا والكتاب الذي تتلو
فإنك قد حملت فينا أمانة بما عجزت عنه الصلابة البزل^(٤)
فإن يك باب الشعر تحسن فتحه فلا يك باب الخير ليس له قفل
فقد نلت سلطاناً عظيماً فلا يكن لغيرك جمات الندى ولك البخل^(٥)

(١) الشعر والشعراء ٢٨٤ ، العقد الفرید ٨ : ٥٧

(٢) سرق اسم الولاية التي وليها حارثة . (حار) ترخيم حارثة .

(٣) الأغاني ١٤ : ١٢٠

(٤) بعير صلخام بكسر الصاد وصلخم بفتح الصاد صلب شديد . البزل جمع بازل
وهو البعير الذي بزل نابه أي ظهر وذلك في السنة التاسعة

(٥) الجمل الكثير من كل شيء . ومن الماء معظمه وكثرته .

وأنت أمرؤٌ حلو اللسان بليغهُ فما بالهُ عند الزيادة لا يحلو
وقبلك قد كانوا علينا أئمةً يهيمهم تقويمنا وهم عُصْلُ
إذا أنصتوا للقول قالوا فأحسنوا ولكنَّ حُسْنَ القولِ خالفه الفعلُ
يذُمون دنياهم وهم يرضعونها أفأويقَ حتى ما يديرُ لها تُعْلُ (١)

ومن الشعر الذى يصور سخط الناس . لتأثر الولاة بالعصية والقرابة
فى اختيار العمال . قول الحارث بن خالد المخزومى . يهجو عبد العزيز أخا خالد
ابن عبد الله بن أسيد . وقد ولاد قتال الخوارج فانهزم (٢)

فرَّ عبدُ العزيز لما رأى الأبطال بالسفح نازلوا قطرياً (٣)
عاهدَ الله إن نجا مِلْمَنائياً ليعودنَّ بعدها حرَمِياً (٤)
يسكن الخلل والصفاجَ فمرّاً نَ وساعاً وتارة نجدياً (٥)
حيث لا يشهد القتال ولا يس مع يوما لكرّ خيلٍ دويّاً
ومما يصور سخط الناس لعدم توافر الكفايات فى العمال . شعر رجل
من بنى عامر بن صعصعة . يهجو عبيد بن أبى ربيعة بن أبى الصلت الثقفى .
رسول الحجاج إلى المهلب . يقول : تسمع هذا الرجل حين يخطب فلا ترى
بأساً . فإذا رأيته فى القتال . عجبت لما كان يتشدد به من حث الناس
على القتال (٦) .

(١) أفاريق جمع فيقة بكسر الفاء وهو اللبن يجتمع فى الصرع بين الحلبتين . والشعل
بفتح الثاء وضما زيادة فى أطباء الناقة والبقرة والشاة .

(٢) الكامل للمبرد ٢ : ٢١٧

(٣) قطرى بن الفجاءة من زعماء الخوارج وشعرائهم المشهورين

(٤) ملمنيا أصلها من المنيا حذف النون لقرب مخرجها من اللام . حرما نسبة إلى

الحرم . أى يقيم هناك ولا يشهد حرباً .

(٥) الخلل موضع وأصله الطريق فى الرمل . والصفاج ومران وسلع مواضع . نجديا

نسبة إلى نجد ، يعنى أنه يتنقل بين هذه الأماكن بعيداً عن خطر الخوارج خوفاً منهم .

(٦) الكامل ٢ : ٢٤١

مازلت يا ثقفى تخطب بيننا وتغننا بوصية الحجاج
حتى إذا ما الموت أقبل زاحراً وسما لنا صرفاً بغير مزاج
وليت يا ثقفى غير مناظر تنساب بين أحزّة وفجاج
ليست مقارعة الحكمة لدى الوغى شرب المدامة في إناء زجاج

وقد كثرت شكوى شعراء العراق ، من ظلم العمال في جباية الأموال .
والذى يبدو أن هؤلاء العمال كانوا يختارون من الغلاظ الشداد ، الذين
يأخذون الناس بالعنف الصارم ، لما عرف به أهل هذا الإقليم من الشتماق ،
والخروج عن طاعة السلطان . وكان بعض هؤلاء العمال يستغل بعده عن
موطن الخلافة ، فيشتط على الناس ، ويطالبهم بأكثر مما توجب عليهم فروض
الزكاة ، مدخراً لنفسه بعض ما يجمع . وهذا هو الراعى ، يشكو العصاة إلى
عبد الملك ، فيقول إنهم يأخذون فوق ما يوجب القانون ، ويتمدون بذلك
ما أمرهم الخليفة . فهم يأخذون العشار من كرام الإبل . بينما يكتبونها للأمير
فصيلاً ، ويغلون لأنفسهم الزيادة . ويشتطون على الناس في هذه الأحكام
الجائرة ، فلا يزالون يجلدون العريف بالسياط ، وقد أقاموه في الأغلال ،
حتى يقطعوا جلده . ثم يأتونه بصكهم وقد أخذ منه الرعب . فيغصبونه إبله
ويدعونه للضياع (يدعو أمير المؤمنين ودونه خرق تجرّبه الرياح ذيولا)
فكأنه حمام كسر الرماة جناحه . فهو لا يزال ينوح على قارعة الطريق ، وقد
وقع الربيع ، فتقارب خطوة ، وأخذته الفرع ، إذ رأى الذئب يقترب من
مخله ، في شراسة النهم الذى لا يبقى على شيء يصادفه . وهؤلاء هم قومه المسلمون
الذين لا يمنعون الزكاة ، والذين يشهدون أن لا إله إلا الله ، يهيمون
في الصحراء مطرودين ، كأنهم مجرمون أصابوا قتيلاً . يحدون إبلا عجافاً ،
قد تهدمت أسنمتها . فهم يتركونها في خارم الجبال ، تتساقط ضعفاً وإعياء ،
لأنها لا ترعى إلا الفاسد من النبات ، بين يابس وممر وخم . وماذا يصنعون

وقد أتاهم (يحيى) الجاني . فأخذهم بشروطه الظالمة . وكلفهم ما لا يطيقون .
فأفقر غنيهم . وأهزل فقيرهم ١١١

أخليفةَ الرحمنِ إنا معشرُ
حنفاءُ نسجدُ بكرةً وأصيلاً^(٢)
عربٌ نرى الله في أموالنا
حقَّ الزكاةِ منزلاً تنزيلاً
إن السَّاعةَ عصوكم يومَ أمرتهم
وأَتوا دواهي لو علمت وغولاً
إن الذين أمرتهم أن يعدلوا
لم يفعلوا مما أمرت فتيلاً
أخذوا العِشَارَ من الكرام ظلاماً
منّا ويُكتبُ للأمير أفيلاً^(٣)
أخذوا العريفَ فقطعوا حيزومه
بالأصبحية قائماً مغلولاً^(٤)
حتى إذا لم يتركوا لعظامه
لحمًا ولا لفؤاده معقولاً
جاءوا بصكِّهم وأحدبَ أسارتُ
منه السِّياطُ براعةً إجفيلاً^(٥)
نسيَ الأمانةَ من مخافةِ لُججِ
شمسٍ تركنَ بضيعه مجدولاً^(٦)
أخذوا حُمولته فأصبح قاعداً
لا يستطيع عن الديار حويلاً

(١) جهرة أشعار العرب ٣٥٦ ، خزنة الأدب ٢ : ٣٠٦

(٢) حنفاء مسلمون والحنيف المسلم .

(٣) العشار جمع عشراء مثل فقهاء ، وهي الناقة التي آتى عليها عشرة ثمور للحمها .
الأفيل ابن الخماض إذا كان صغيراً قبل أن يفصل من أمه .

(٤) العريف رئيس القوم . الحيزوم وسط الصدر ، وما يضم عليه الحزام . جمها
حيازيم : الأصبحية السياط واحداً أصبح نسبة إلى ذى أصبح ملك من ملوك حمير لأنه
هو الذى ابتدعها .

(٥) أحدب يقصد العريف نفسه وصفه بذلك لأن السياط قد آذته ونالت منه . أسأر
الشارب في الاناء سؤراً أى ترك فيه بقية . البراعة القصة الجوفاء شبه بها قلب العريف
الفرع . إجفيلاً خائفاً مجفلاً . يقول لم تترك منه السياط إلا رجلاً فرعاً مروعاً .

(٦) شمس طوال وهو وصف للسياط . البضيع اللحم .

يدعو أمير المؤمنين ودونه خرق تجرُّ به الرياح ذُبولا^(١)
 كهدهد كسر الرماة جناحه يدعو بقارعة الطريق هديلا^(٢)
 وقع الربيعُ وقد تقارب خطوه ورأى بعقوته أزلَّ نسولا^(٣)
 متوشح الأقارب فيه نهمة نهش اليدين تحاله مشكولا^(٤)
 أخليفة الرحمن إن عشيرتي أمسى سوامهم عزين فلولا^(٥)
 قطعوا اليمامة يُطردون كأنهم قومٌ أصابوا ظالمين قتيلا
 يحدون حدبًا مائلًا أشرافها في كل مقربة يدعن رعيلا^(٦)
 شهرى ربيع ما تدرق لبونهم إلا حموضًا وخمة وذبيلا^(٧)
 وأنهم (يحي) فشد عليهم عقدًا يراه المسلمون ثقيلا
 كتبًا تركن غنيهم ذا عيلة بعد الغنى وفقيرهم مهزولا
 فتركت قومي يقسمون أمورهم إليك أم يتربصون قليلا

(١) الخرق بفتح الحاء الصحراء الواسعة التي تخرقها الرياح .

(٢) الهداهد الحمام الكثير الهددة . الهديل صوت الحمام .

(٣) العقوة ما حول الدار والمحلة . أزل قليل اللحم يعنى الذئب . نسول تساقط شعره لجوعه فهو شرس .

(٤) متوشح الأقارب . كل هذا وصف للذئب . الأقارب الخاصرة . نهش قليل اللحم ، يشبه عريف قومه في خوفه من الجبابة بحمام ضعيف رأى ذئبا شرسا هذه صفاته يقترب من محلته .

(٥) سوامهم إبلهم التي تستام الكلاً أى ترعاه . عزين جماعات . الفلول جمع فل بفتح الفاء وهو المهزوم المتفرق .

(٦) يحدون يسوقون . الحدب الأبل المهزولة . أشرافها أسنمتها . وإنما تميل أسنمتها لضعفها وقلة شحمها . المقربة الطريق في الجبل . الرعيل القطيع .

(٧) الحموض جمع حمض بفتح الحاء وهو ما ملح وأمر من النبات . الأرض الوحمة التي لا ينجم كلؤها . الذيل اليابس من النبات .

أنت الخليفة عدله ونواله وإذا أردت لظالم تنكيلا
فارفع مظلالم عيئت أبناءنا عتًا وأنقذ شلونا المأكولا

وهذا هو الفرزدق، يشكو إلى سليمان بن عبد الملك من هذا الأمر نفسه، فيقول إن الناس قد نذروا أن يحجوا حفاة، وأن يصوموا لله، إن أنقذهم بولايتك الملك. وهاهم أولاء يوفون نذرهم، بعد أن أهلكهم ظلم من قبلك فلم يبق منهم إلا ألسنا وعظاما. كانوا يحبسون الجند في الثخور، ويؤخرونهم عن مواعيدهم في البر والبحر بغير أعطية. وكان الجباة يحاسبون الناس على ما ذهب من مالهم، وما هلك من إبلهم، حتى أصبح أهل العراق يحسدون الميتم، لنجاته من عذاب الظالمين. ويقول الفرزدق إن الناس قد أنقذوا من هذا الظلم بولاية سليمان للملك. مشيراً إلى السجون، التي كان الحجاج قد اتخذها لسجن نساء العصاة، ويعجب من أمره في ظلم أرامل، ليس لهن جريرة، وقد حبس عنهن ما يستحقن من عطاء

كم فيك إن ملكت يداك لنا يوما نواصينا من النذر
من حج حافية وصائمة سنتين أم أفيرخ زعر
لم يبق منهم غير السنة وأعظم وحوصل^(١) حمر^(٢)
ويجمر^(٢)ون بغير أعطية في البر من بعثوا في البحر^(٢)
ويكفون أباغرا ذهبته جيفاً بلين تقادم العصر

(١) يقول كم فيك من نذر نذرناه إن ملكت يداك نواصينا في يوم من الأيام. والناصية الرأس. من حج حافية. يعني قد نذر النساء أن يحجوا ستين حفاة صائمات. أم أفيرخ أم أطفال ضعاف لم يبق منهم غير السنة تنطق وعظام برزت من الهزال. صور بؤس القوم في حال أطفالهم الضعاف وحزن أمهاتهم عليهم.

(٢) التجبير حبس الجيوش في المنازى وتأخيرها عن موعد تسريحها. الأعطية جمع عطاء وهو المرتب الذي يصرف من بيت المال.

عثى غبطناً كلَّ محتملٍ يمشى بأعظمه إلى القبر
 وتمنت الأحياء أنهم تحت التراب وحيء بالحشر
 والراقصات بكل مبتهل من فجع كل عمايقٍ غير^(١)
 ما قلتُ إلا الحقَّ تعرفه في القول مرتجلاً وفي الشعر
 ما أصبحتُ أرضُ العراقِ بها ورقٌ لختبطٍ ولا قشر^(٢)
 أحييت أنفسنا وقد بلغتُ منا الفناء ونحن في دبر^(٣)
 فاقده عززنا بعد ذلتنا بك بعد ما نأبى عن القسر
 أحييت أنفسنا وقد هلكت وجبرت منا واهى الكسر
 بل ما رأيتُ ولا سمعتُ به يوماً كيوم صواحب القصر^(٤)
 يوماً سيؤمن كلُّ مندفنٍ أو لاحقٍ بأئمة الكفر
 فاذكروا أراهم لأعطاء لها ومسجّنين لموضع الأجر^(٥)
 لو يبتلون بغير سجنهم صبروا ولو حبسوا على الجمر
 ويصور الفرزدق ظلم الجبابة في موضع آخر من شعره ، يشكّوهم فيه إلى
 الوليد بن عبد الملك ، فيقول إنهم يشقون على الناس ، ويجلدونهم بالسياط
 حتى يلجئوهم إلى الربا الذي يدخلهم جهنم إرضاء لجشعهم

(١) الراقصات الأبل التي ترقص في سيرها . يخلف بالابل التي تحمل الحجاج من مختلف بقاع الأرض مبتلين إلى الله .

(٢) الخطب ورق الشجر ينفض بالخطاط ويحفف ويطحن ، يخلط بدقيق أو غيره ويمعجن بالماء فتطعمه الأبل . وإنما يفعلون ذلك في أوقات الجذب وانعدام الخضراء . والختبط الذي يفعل ذلك بآله .

(٣) الدبر هنا الهلاك .

(٤) كان الحجاج يأخذ نساء العصاة فيحبسهن في قصور ما بين البصرة إلى قصر أنس .

(٥) يصف النساء في سجون الحجاج ويذكر الخليفة بهن .

الأخطل

أول ما نعرف عن أيام غياث بن غوث الأولى ، وعن أخبار طفولته ، هذه القصة التي تصوره متهما مع زوج أبيه ، في حياة لا تخلو من ضيق وحرمان فهي تؤثر أبناءها بما لذ وطاب من طعام ، وتبعث به خلف أعزها يرعاها ، وهو يحتمل لنفسه في الوصول إلى ما يشتهي من ألوان الطعام ، فيزعم لزوج أبيه أن بعض جيرانها مريض ، ولا تكاد تمضي حتى يهوى إلى ما أخفت عنه من تمر وزبيب ، فلا يبقى على شيء منه . ثم تعود وقد تنبّهت إلى حيلته ، وتهم بضربة ، فيهرب ويقول في ذلك .

ألم على عنبات العجوز وشكوتها من غياث لم^(١)
فظلت تنادى ألا ويلها وتلعن^١ واللعن^٢ منها أمم

وهو هنا صبي محروم ، ولكنه متمرد ، لا يرضى بما فرض عليه من هذا الحرمان ، ولا يعدم الحيلة في الوصول إلى ما يحب . وهو في نفس الوقت حسن الاستعداد للشعر ، وللهجاء منه بروع خاص . وصورة أخرى لهذا التمرد والطموح ، ولهذه الموهبة الهجائية ، تحفظها لنا عنه كتب الأدب ، فيما تروى من قصته مع كعب بن جعيل ، وكان شاعر تغلب في وقته ، وكان لا يلم برهط منهم إلا أكرموه وأعطوه . فنزل على رهط الأخطل فأكرموه ، وجمعوا له غنما ، وحظروا عليها حظيرة ، فجاء الأخطل فأخرجها من الحظيرة وفرقها ، فخرج كعب وشتمه ، واستعان بقوم من تغلب فجمعوها له ، وردوها إلى الحظيرة . فارتقب الأخطل غفلته ففرقها ثانية ، فغضب كعب وقال : كفروا عنى هذا الغلام وإلا هجوتكم . فقال له الأخطل : إن هجوتنا هجوناك

(١) الشكوة بفتح الشين وعاء من الجلد يتخذ للماء واللين .

فقال كعب : ومن بهجوني ؟ قال : أنا . فقال له أبوه : أبغزمتك ^(١) تريد أن تقاوم ابن جعيل ؟ وضربه . والأخطل هنا غلام مبتدىء في معالجة الشعر ولكنه يطمع أن تكون له فيه مكانة ، ويلتمس السبيل لذلك بهذه التصرفات النزقة . التي تلفت إليه الأنظار . وتجعل له بين الناس أهمية خاصة . فهو لا يرضى أن يكون غلاماً ككل الغلمان . مغروراً خامل الذكر . ولكنه يلتمس الشهرة بأن يفعل الفعلة الكبيرة . التي تغضب الناس وتؤلمهم عليه . ولا يابث أن ينجح في إثارة هذا الشاعر الكبير . فيقول له :

شاهد هذا الوجه غيباً الجله

فيجيبه الأخطل :

فذاك كعب بن جعيل أمه

ثم يقول في كعب وأخيه :

هجانى المنتنان ابنا جعيل وأى الناس يقتله الهجاء
ولدت بعد إختوكم من أستي فهلاً جئتم من حيث جاؤا
ويقول :

سميت كعباً بشر العظام وكان أبوك يسمى الجعل ^(٢)

وإن محمك من وائل محل القراد من أستي الجل ^(٣)

ويلج الهجاء بعد ذلك بينه وبين كعب . فيقرن اسم هذا الغلام الناشئ بذلك الشاعر المشهور ويتحدث الناس بأمرهما . ويعرف غياث من ذلك الحين بلقب الأخطل . لبذاءته وسلطة لسانه .

(١) في القاموس المحيط الفذمة اختلاط الكلام . قلت كأن الكلمة بما تجمع من حروف متنافرة تحكى هذا التنافر الذى يكون في الكلام المختلط .

(٢) الجعل ضرب من الحشرات التي تقتات بالأقذار تشبه الخنفساء .

(٣) وائل هو الجد الأكبر الذى يجمع بكراً وتغلب (قبيلة كعب والأخطل) .

ولا يزال الأخطل يلمس الشهرة من طريق الهجاء والإفخاش على الناس حتى يتاح له هجاء الأنصار مستنداً إلى حماية يزيد بن معاوية ، بعد أن عرض الأمر على كعب بن جعيل ، فتخرج منه ودله على الأخطل . ويوافق العرض من هذا الشاب الطموح المغامر هوى فيرحب به ، على ما فيه من خطورة التعرض لهذه الطائفة المعروفة بتاريخها القديم في الإسلام ، وسابقتها في تدعيه وإقراره . فيها جمهم أعنف مهاجمة ، بأبياته المشهورة .

لَعَنَ الإلهُ بنى اليهود عصابةً بالجزع بين جلاجل وصرار^(١)

قومٌ إذا هدرَ العصير رأيتهم حمراً عيونهم كجمر النار^(٢)

ذهبت قريشٌ بالمكانم والعلَى واللؤم تحتَ عمائم الأنصار

فذرّوا المعالي لستمُ من أهلها وخذّوا مساحيكُم بنى النجار^(٣)

إن الفوارس يعرفون ظهوركم أولادُ كل مقبَح أكّار^(٤)

وإذا نسبت ابن الفريرة خلتها كالجحش بين حمارة وحمار^(٥)

ويذيع هذا الشعر . فيحدث في أوساط الأنصار ضجة هائلة . وتثور ثائرة زعيمهم النعمان بن بشير الأنصارى : فيقدم على معاوية غاضباً : مطالباً بتأديب هذا الغلام النصرانى ، لا يرضى في ذلك إلا بقطع لسانه . ويغضب معاوية ويهم بالأخطل ، لولا تدخل يزيد فى الأمر ، يترضى أباه حتى يرضى .

(١) الجزع منعطف انوادى . جلاجل وصرار موضعان .

(٢) العصير عصير العنب أو ما يعتصر ليخمر . هدر العصير وذلك حين يختمر . أى أنهم يسرفون فى الشراب حتى تحمر عيونهم .

(٣) المساحى جمع مسحاة بكسر الميم اسم آلة يحرف بها الطين والقشر . سحا الطين يسحبه ويسحوه جرفته وتشره . وبنو النجار بيت من بيوت الأنصار وهم قوم حسان بن ثابت الشاعر .

(٤) أكّار أجير حراث يحفر الأرض .

(٥) ابن الفريرة حسان بن ثابت والفريرة أمه .

والراجح أن هذه الحادثة كانت في أواخر أيام معاوية بعد سنة ٥٦ هـ .
فالأخطل يصور يزيد في قصيدته التي قالها في هذه المناسبة ولياً للعهد حين يقول:

فأصبحت مولاها من الناس بعده وأحرى قریش أن يهاب ويحمدا

وإنما بايع معاوية لابنه يزيد سنة ٥٦ هـ ، قبل وفاته بأربع سنوات . وقد
صور الأخطل في هذه القصيدة يد يزيد عنده ، وما تعرض له من شر . وهي
رائعة ، بل هي في غاية الروعة ، حين تصور ترضى يزيد لأبيه ، ذلك الملك
الصارم وما لقي فيه من جهد .

وإني غداة استعبرت أم مالك لراض من السلطان أن يتهددا
ولولا يزيد ابنُ الملوك وسيبه تجلت حدباراً من الشر أنكد^(١)
وكم أنقذتني من جرور جبالكم وخرساء لو يُرمى بها الفيل بلدًا^(٢)
ودافع عني يوم جلق غمرة وهماً ينسيني السلاف المهودا^(٣)
وبات نجيّاً في دمشق لحية إذا عضّ لم ينم السليم وأقصدا^(٤)
ينخفته طوراً وطوراً إذا رأى من الوجه إقبالا ألح وأجهدا
أبا خالد دافعت عني عظيمة وأدركت لحى قبل أن يتبددا
وأطفأت عني نار نعمان بعدما أغدّ لأمر عاجز وتجردا^(٥)

(١) الحدبار الناقة الداهية السنام العارية العظام يشبه نفسه في حال ورطته براكب نانة هذه حالها .

(٢) الجرور البئر البعيدة العر . الخرساء الداهية التي تذهل وتخرس .

(٣) جلق غوطة دمشق أو موضع قريب منها . غمرة كربة . السلاف الجر . المهود المسكن ، وأصل التهويد النوم .

(٤) يقصد بالحية معاوية . السليم الذي لدغته الحية . أقصدت الحية لدغت ففتلت .

(٥) نعمان هو النعمان بن بشير الأنصاري . الإغذاذ سرعة السير .

وأشار إلى ذلك في موضع آخر ، من قصيدة مدح فيها يزيد ، وكان لا يزال ولياً للعهد .

فلولا يزيدُ ابنُ الأمامِ أصابني قوارعُ يجنيها على لسانی
ولم يأتني في الصحف إلا نذيركم ولو شتم أرسلتم بأمانی
فأقسمت لا آتی نصيبين طائعاً ولا السجنَ حتى يمضي الحرمان
ومن ذلك الوقت بدأت صلة الأخطل يزيد . وزاد في توثقها توافق
طبعهما . فقد كان يزيد شاعراً وكانت خلائقه بدوية ، ينزع منزع فتیان العرب
الذين يهجمون على اللذة ، ولا يحرمون أنفسهم منها ، فاستراح إلى هذا الشاعر
البدوي ، الذي تلوح عليه مخايل النباهة ، واتخذ صديقاً ونديماً . ولسكن
الأخطل فيما يبدو ، ظل مكروها من معاوية لم يصل إليه ، فجنح لا نجد
في ديوانه شعراً في مدحه ، وكل ما نجد أربع قصائد في مدح يزيد ، اثنتين
منهما قبيل وفاة معاوية ، وهما اللتان قدمناهما ، وثنتين بعد وفاته وهما .

بانت سعاد في العينين تسهيد واستحقت لبه فالقالبُ معمود
وحلّت ضُبيرةُ أمواه العداة وقد كانت تحلُّ وأدنى دارها ثكدُ
وهو يشير في القصيدة الأولى إلى شبيهه حيث يتمول .

إما تريني حنّاني الشيبُ من كبر كالنسرٍ أرجفُ ولا إنسان مهود
فقد يكونُ الصبي مني بمنزلة يوماً ويقتادني الهيف الرّعاديد
يا قلّ خيرُ الغواني كيف رُغن به فشرُّه وشلُّه فيهن تصرّيد^(١)
أعرضن من شمط في الرأس لاح به فهنّ منه إذا أبصرنه حديدُ

(١) التصريد السقي دون الرى .

ويقول إن يزيد قد عطف عليه في محنة ، حين أفرده أهله لجرم ارتكبه ، فأصبح طريداً مشرداً .

جزاك ربك عن مستغدرٍ وحيدٍ نفاه عن أهله جُرم وتشريد
مستشرفٌ قد رماه الناسُ كلُّهمُ كأنه من سَمُومِ الصَّيْفِ سَفُودِ^(١)
ويشير إلى عطفه هذا في القصيدة الأخرى بقوله .
أنتم تداركتموني بعد ما ذلقت نعلي وأخرج عن أنيابه الأسدُ
ومن مودنةٍ أخرى تداركني مثل الرُّدَيْنِي لا وامي ولا أودُ
والهرة الأولى ، نرى الأخطل في هذه القصيدة شاعراً سياسياً ، يتجاوز مدح يزيد إلى الدفاع عن الدولة ، ومهاجمة خصومها ، مؤيداً حق الأمويين في الملك ، مقررّاً أن حقهم فيه ثابت ، بولايتهم لدم عثمان .

ويوم صفين والأبصارُ خاشعةٌ أمدهم إذ دعوا من ربهم مددُ
على الأولى قتلوا عثمانَ مظالمه لم ينههم نشدٌ عنه وقد نشدوا
فتمَّ قرَّتْ عيونُ الثَّأرينَ به وأدركوا كلَّ تَبَلٍ عنده قودُ^(٢)
فلم تزل فيلقُ خضراءَ تحطمهم تنعى ابنَ عفَّانَ حتى أفرخ الصيْدُ^(٣)
ويقول إن نصرهم جاء من عند الله . فانتهاه أمر المسلمين إليهم ، دليل على تفضيل الله لهم . وهذه فكرة جديدة ، وقف الأخصل جهده على تقريرها بمختلف الصور والوسائل ، كما سنرى :

تمت جدودهم والله فضَّلهم وجدُّ قوم سواهم خاملٌ نكدُ

(١) مستشرف على البناء للمفعول مظلوم من قولهم استشرفه حقه أى ظلمه . والسفود الحديدة التي يشوى بها اللحم ونسبها الآن (شيخ) .
(٢) التبل الثأر . القود القصاص .
(٣) الصيد الكبير . أفرخ سكن .

هم الذين أجاب الله دعوتهم لما تلاقت نواصي الخيل فاجتدوا
.. قوم إذا أنعموا كانت فواضلهم سيباً من الله لامن ولا حسد
.. ويوم صفين والأبصار خاشعة أمدهم إذ دعوا من ربهم مدد

ثم هو يهاجم أعداءهم من القيسية وأصحاب صفين :

ويوم شرطة قيس إذ منيت لهم حنت مثاكيل من إيقاعكم نكد^(١)
ظلوا وظل سحاب الموت يطرهم حتى توجه منهم عارض برد^(٢)
والمشرفة أشباه البروق لها في كل جمجمة أو بيضة خدد^(٣)
ويوم صفين والأبصار خاشعة أمدهم إذ دعوا من ربهم مدد

ويختم النصيدة بهذا البيت القرى يخاطب به يزيد

والمسلمون يخير ما بقيت لهم وليس بعدك خير حين تفتقد

من ذلك الوقت ، لم يعد الأخطل صديقاً ليزيد فحسب ، ولسكنه أصبح
شاعراً أموياً ، أعد نفسه للدفاع عن سياسة هذه الدولة ، ومهاجمة أعدائها ،
فنال عندهم حظوة رفعت من شأنه في قبيلته ، حتى احتل منها مكان الزعامة ،
وحتى كانت بكر بن وائل إذا تشاجرت رضيت به حكماً ، فكان يدخل المسجد
فيقدمون إليه .^(٤) وعظم جاهه حتى اتخذ دار ضيافة . قال أبو الفرج : كان
للأخطل دار ضيافة . فمر به عكرمة الفياض وهو لا يعرفه ، فقيل له — هذا

(١) يقول قدرك الله لأعدائك يوم مرج راهط إذ أوتعت بهم فأثكت الأمهات
وأبكيتهما على قتلاهما .

(٢) العارض السحاب المعترض في الأفق . البرد الذي يطر برداً .

(٣) البيضة الخوذة . خدد يقصد بها الجراح . والحدة في الأصل الحفرة المستطيلة

في الأرض .

(٤) في الأغاني ٨ : ٣٠٣

رجل شريف قد نزل بنا . فلما أمسى بعث إليه فتعشى معه ثم قال له : أتصيب من الشراب شيئاً ؟ قال — نعم . وإذا عنده قينتان خلفه ، وبينه وبينهما ستر ، وإذا الأخطل أشهب اللحية له صغيرتان ، فغمز الستر بتضييب في يده ، وقال : غياني بأردية الشعر ، فغنتاه بتمول عمرو بن شاس :

وبيضٍ تطلّى بالعير كأنما يطآن وإن أعنقن في جدٍ وحلا
لهونا بها يوماً ويوماً بشاربٍ إذا قلت مغلوباً وجدت له عقلاً^(١)
ولم يصرفه مكانه من الأمرين عن رعاية قبيلته ، وتتبع شؤونها ، ومهاجمة أعدائها .

وقد علمت أفناء تغلب أننى نضارٌ ولم أنبت بقرقرة أثلاً^(٢)
وأنى يوماً لامضيعٌ ذمارها ولا مقلقٌ هاج هجا تغلباً بطلا
بل لقد استغل مكانته هذه عند الأميين ، في إصلاح أمر قومه ، كلما وجد لذلك سبيلاً . وكان مثال الزعيم القوى ، الذى يحرص على وحدة القبيلة واجتماع كلمتها . فهو إذا وقع بينهم خلاف ، تدخل مصلحاً ، وسعى في حقن الدماء خوفاً من أن يقع بأسهم بينهم ، فتذهب ريحهم ، وتهدم قوتهم ، ويطمع فيهم عدوهم . فكان يحتمل الحملات عن الجنة ، ويدى القتلى ، ساعياً بين وجهاء القبيلة وأثريائها ، ويستعينهم على ما يحتمل من غرامات ، فيمدح من يعينه منهم مشيداً بوفاة للقبيلة وبذله في سبيلها ، ويهجو بخلافهم ، الذين يمتنعون عن المساهمة بأموالهم في الإصلاح . قال صاحب الأغاني : أتى الأخطل الكوفة فأتى الغضبان بن القبعثرى الشيباني ، فسأله في حمالة . قال : إن شئت أعطيتك ألفين . وإن شئت أعطيتك درهمين . قال : وما بال ألفين وما بال الدرهمين

(١) الأغاني ٨ : ٣١٨

(٢) أفناء تغلب قبائلها . الفضاء الذى ينبت في الجبل فيكون خشبه صلباً . القرقرة الأرض المطمئنة اللينة يكون خشبها هشاً ضعيفاً :

قال : إن أعطيتك ألفين لم يعطكها إلا قليل ، وإن أعطيتك درهمين لم يبق في الكوفة بكرى إلا أعطاك درهمين ، وكتبنا إلى إخواننا بالبصرة ، فلم يبق بكرى إلا أعطاك درهمين ، نخفت عليهم المؤونة ، وكثر لك النيل ، قال : فهذه إذن . قال نقسمها لك على أن ترد علينا ...^(١) ويروى الأصفهاني في بقية الخبر ، أن الأخطل قدم على أبي سويد بن منجوف السدوسي بالبصرة ، فلم يعطه شيئا ، وحض قومه على الامتناع ، مذكرا إياهم بما بين تغلب وبكر من قديم العدا . فجهل الأخطل بقوله :

فإن تبخل سدوس بدرهميها فإن الريح طيبة قبول
تواكلني بنو العلات منهم وغالب مالكا ويزيد غول
صريعا وائل هلكا جميعا كأن الأرض بعدها محول
وهجا سويد بن منجوف بقوله :

وما جذع سوء خرب الشؤس أصله لما حملته وائل بمطيق
تطيف سدوس حوله وكأنها عصي أشاء لوحه بجريق^(٢)
جماد الصفا ما إن يبض بقطرة ولو كان ذا زراعة ورقيق^(٣)
فإن نفع عن حمران بكر بن وائل فما إن لنا سودانهم بصديق

ووفد الأخطل الكوفة ، فأتى حوشب بن رويم الشيباني ، وقال : إني تحملت حمالتين ، لأحقن بهما دماء قومي ، فنهروا . فأتى سيار بن البزيعه ، فاعتذر إليه . فأتى عكرمة الفياض ، وكان كاتباً لبشر بن مران ، فسأله وأخبره بما رد

(١) الأغاني ٨ : ٣١٠

(٢) الأشاء النخل . لوح سودت وصفهم بالسواد والنحول .

(٣) الجماد الناقة التي لا لبن لها والجماد أيضا السنة المجدة ، الصفا المجارة يعني أنه بنخل كالصخرة لا يندى .

عليه الرجلان ، فقال : أما إني لا أنهرك ولا أعتذر إليك ، ولكنني أعطيك
إحداهما عينا والأخرى عرضاً^(١) وفي ذلك يقول الإخطل :

إن ابن ربيع كفاني سيبه ضغن العدو ونبوة البخل
أغليت حين تواكتني وائل^٢ إن المسكارم عند ذاك غوالى
ولقد شفيت مليتى من معشر نزلوا بعقوة حية قتال^(٣)
بعدت قعور دلائهم فرأيتهم عند الحمالة مغلق الأقال
ولقد مننت على ربيعة كلها وكفيت كل مواكل خدال
كزمت اليدين عن العطية ممسك^(٤) ليست تبض صفاته ببلال^(٥)
مثل ابن بزغة أو كآخر مثله أولى لك ابن مسيمة الأجمال^(٦)
إن اللئيم إذا سألت بهرته وترى الكريم يراح كالختال^(٧)
وإذا تبوع للحمالة لم يكن عنها بمنبر ولا سعال^(٨)
وإذا المئون تؤكل أعناقها فاحمل هناك على فتى حمال^(٩)
فهو الجواد لمن تعرض سيبه وابن الجواد وحامل الأقال

(١) الأغاني ٨ : ٣١٩

(٢) المليلة الحمى الباطنة والمر الكامن في العظم : استعاره لرغبة الانتقام . العقوة
الساحة والمباة والمحلة .

(٣) الكزمت الضيق الكف القصير الأصابع كنى بذلك عن بخله . الصفا الحجر .
تبض صفاته تندى . بلال وبلل واحد .

(٤) ابن البرزينة يعنى به سيار بن المنذر ويقصد بالآخر حوشب بن رويم الذين
ورد ذكرهما في القصة السابقة . ابن مسيمة الأجمال يعيره بأن أمه كانت ترعى الابل كالأماء .

(٥) بهره كلفه فوق طاقته . يراح أى تأخذه أريحية فيهرزها بنفسه .

(٦) تبوع للحمالة مد باعه لها .

(٧) تؤكل اتكل كل واحد على صاحبه . أعناقها جماعاتها .

ويشير الأخطل في موضع آخر من شعره إلى هذه الحملات ، مثنيا على من يفي للقبيلة ، فيستجيب لدعائها وقت الشدة ، معرضاً بمن يقعد عن المشاركة فيما يلم بها ، حيث يقول :

سعى لى قومي سعى قوم أعزّة فأصبحت أسمى للعلى والمكارم
تمنّوا لنبلى أن تطيش ريشها وما أنا عنهم فى النضالِ بنائم
وما أنا إن جارُ دعانى إلى التى تحمّل أصحاب الأمور العظام
ليسمعنى والليلُ بينى وبينه عن الجار بالجافى ولا المتناوم
ألم تر أنى قد وديتُ ابنَ مرفق ولم تؤدّ قتلى عبد شمس وهاشم^(١)
جزا الله فيها الأعورين مذمةً وعبدة ثفر الثورة المتضاجم^(٢)
فأعيوا وما الموكى بمن قلّ رفدُهُ إذا أجحفتْ بالناس أحدى العقائم^(٣)
وما الجار بالراعىك ما دمت سالماً ويزحلُّ عند المضلع المتفاقم

هذه المنزلة الكبيرة التى احتلها الأخطل عند البيت الحاكم من جهة أخرى ، قد ربطت بين التغلبين والإمويين ، وكان لها أثر عظيم فى توجيه سياسة القبيلة ، وتعليق مصالحها بقيام البيت الأموى . وقد ظهر أثر ذلك واضحاً فى أيام الفتنة التى تلت موت يزيد بن معاوية ، فقد شنت تغلب على قبائل العراق ، التى كانت يدا واحدة على الأمويين ، وقد بعثت من جديد تلك الحزازات القديمة بين الشام والعراق ، فوقفنا موقفاً ظاهره الحياد ، وباطنه الولاء للأمويين . كانت النصرانية غالبية على تغلب ، فلم يكن يقبل منهم

(١) ولم تؤدّ قتلى عبد شمس وهاشم هؤلاء رجال من قومه ذمهم لأنهم لم يعينوه فى جملة فقتلوا .

(٢) الثفر للسباع بمنزلة الحياء للناقة وهو فرجها . وقد يستعار من السباع فيجعل للانسان . الثورة يقصد بها أثنى الثور أو البقرة . المتضاجم المائل .

(٣) المولى هنا ابن العم المخلص لقبيلته . الرفد العطاء . العقائم الشدايد .

رأى في خلافة المسلمين ، ولم يكن من شأنهم أن يخوضوا فيما يخوض فيه الناس من حروب ، في سبيل إقرار هذا الخليفة أو ذاك . فاعتزلوا أول الأمر إلا قليلا من رجالهم المسلمين ، كانوا يغيرون مع عمير وزفر على كلب واليمنية ويدلون^(١)ها . ولسكن القبيلة في معظمها ظلت على حيادها الشاذ ، وسط هذه الكتلة الزبيرية ، التي تحيط بها من كل مكان ، تترقب الظروف ، وتشارك الأمويين بعواطفها ، ولسكنها لا تستطيع أن تفعل شيئا . ولم يكن بد من أن ينتهي موقفها بالحرب ، فالقيسية لا ينقطعون عن التحرش بهم ، لما هو معروف من ميلهم الأموي ، فهم يستأوون جوارهم ، ويسخرون مشايخهم من النصارى ، ويغيرون على إبلهم وماشيتهم . كل ذلك والتغليون يؤثرون السلم ، لكثرة عددهم حولهم . فهم يشتكون إلى زعيمهم عمير بن الحباب ، فلا ينهرهم ولا يكفهم ، فيتمادون في الإعتداء ، حتى ثارت ثائرة التغليين مستقتلين ، تتقدمهم أعلام النصرانية ، قد رسم عليها الصليب ، وفي ذلك يقول الأخطل :

لما رأونا والصليب طالعاً ومار سرجيس وسماءً ناقماً
والخيل لا تحملُ إلا دارعاً والبيض في أيماننا قواطعا
خلوا لنا الثرثارَ والمزارعا وحنطة طيساً وتمراً يانعا^(٢)

وتتابعت الوقائع بين تغلب وبين القيسية . الذين كان يتزعمهم الجحاف بن حكيم وعمير بن الحباب السليمان وزفر بن الحارث الكلابي . ووقف الأخطل الموقف الذي ينبغى لمثله ، يسجل انتصارات قومه ، ويهاجم للقيسية وشعراءهم ، كالنابغة الجعدي ، ونفيع بن صفار المحاربي ، تميم بن أبي بن مقبل . وكان من أعنف ما هجأهم به :

ألا يا أسلمي يا هندُ هذبني بدرْ وإن كان حيانا عدى آخر الدهر

(١) ابن الأثير ٤ : ٣

(٢) الطيس الكثير من المال والرمل والماء .

وهو يتتبع فيها قبائل قيس بأعنف الهجاء وأخشه ، ويفتخر بقتل ابن
الجباب ، معتدّاً بذلك عند الأمويين . والقصيدة تمتاز بقوة التصوير الهجائي ،
الذى ينزل إلى الفحش البذى فى بعض الأحيان ، وبالقسوة الوحشية
تصوير مناظر الحرب البشعة ، وطول النفس ، مع الاحتفاظ بالمستوى
الشعرى الممتاز حتى البيت الأخير منها . انظر إلى ما فى شعره من عنف حين
يخاطب القيسية :

لقد حملت قيس بن عيلان حربنا على يابس السيساء محدودب الظهر^(١)
ركوب على السّوءات قد خرّم آسته مقارعة الأعداء والنخس فى الدّبر
وانظر إلى بنى محارب فى جلبتهم وضوضائهم ، كأنهم الضفادع التى لا تنقطع
عن النقيق ، تتجاوب أصواتها ، فتجنى على نفسها ، لأنها تدل حية البحر
على موضعها :

تنقّ بلا شيء شيوخ محارب وما خلّتها كانت تريش ولا تبرى
ضفادع فى ظلماء ليل تجاوبت فدل عليها صوتها حية البحر
ثم انظر إلى هذه الصورة البشعة ، التى يخوض فيها حين يخاطب الشاعر
القيسى نقيع بن صفار المحاربى ، وإلى استخفافه به وبشعره ، الذى لا يثبت
لشعر الأخطل ، فكأنه إفك فرعون وسحرته ، أمام حية موسى ، لا يلبث
أن يتضاءل ويزول :

وكان ابن صفار هجين محارب كمقتبس منى شهاباً على دعر
وقد وسّمت عينيه إذ طرقت به من الورق دفراء المقدّين والنحر^(٢)

(١) السيساء العمود الفقرى الذى ينتظم فقار الظهر فى الحيوان . صور ما يحملون
من الحرب بما يحمل الراكب على دابة عجفاء محدودة الظهر بارزة فقاره .
(٢) طرقت المرأة والقطاة إذا عسر خروج الولد والبيضة . رجل ورق وامرأة
ورقة خسيان . دفراء المقدّين . الدفر نثن الرائحة المقدان ما خلف الأذنين . وهذا =

إذا انفرجت عنه الأشاعر رَدَّه عن القصد بظُرٍّ مثلُ أرنبة النسر

تخلُّ ابنَ صفار فلا تَرُمُ العلى ولا تذكرنَ حَيَّات قومك في الشعر

فقد نهضتُ للتغابيين حية كحبة موسى يوم أيد بالنصر

وانظر إلى هذا الشاعر القيسى الآخر ، تميم ابن أبي بن مقبل العامري ، وإلى رهطه بنى العجلان ، يسودهم قومهم وهم من ألام الناس . وتأمل هذه الصورة الساخرة ، التى يصور فيها هؤلاء الذين يتزعمون الناس ، ييخلون على غلبانهم بالزاد ، حتى يكاد يقتلهم الجوع ، ولا يزال غلامهم يبكي من شدة جوعه ، وقد تعبس وجهه ، وراح فى بكائه يدلك عينيه يديه ، كأنه الحفّاش ، حتى تمل الوليدة كثرة صياحه ، فتلقى به فى زاوية مظلمة من أركان البيت ، مصمة أذنيها عن صراخه . وانظر إلى رثاءة نسائهم وقماعتهن ، يتكلفن من أعمال الرعى وحمل المتاع ، قد لصقت الأوضار بجلودهن ، كأنما طليت سواد القدر . وتأكلت كعوبهن من طول الرعى . ويبدت أعجازهن من حمل القرب ومراكب النساء :

إذا التمس الأقوامُ فى الناس ذِكرَهم فذكرُ بنى العجلان من أقبح الذِكر

وقد سرنى من قيس عيلان أننى رأيتُ بنى العجلان سادُوا بنى بدر

وقد غَبَرَ العجلانُ حيناً إذا بكى على الزادِ أَلَقَتُهُ الوليدةُ فى النِكر

فيُصبحُ كأنْه الحفّاش يدلكُ عينه فقُبِّحَ من وجهٍ لثيمٍ ومن حَجَرٍ

وكنتم بنى العجلانِ أقصرَ أيدياً والأَمُّ من أنْ تبلُغُوا عالىَ الأمر

بنى كلِّ دِسماءٍ الإهابِ كأنما كساها بنو العجلان من حُمِّ القدر

== البيت والبيت الذى يليه وصف لعسر ولادة نقيع بن صغار وهو تصوير يشع يقشع منه البدن . وهذه البشاعة والوحشية والتصوير الكالح اللفظ من مميزات الأخطل كما سئرى .

نرى كعبها قد زال من طول رعيها وقاح الذنابي بالسوية والزفر^(١)

وانظر إلى هذه الصورة البشعة ، التي يصور فيها امرأة من نساء قيس ،
قد أثنختها الجراح ، فخرت صريعة على الأرض ، قد تدلى منها جنينها ، ملففاً
في هذه اللفائف التي تسكون على الجنين في البطن ، والطير تحوم من حولها
تضرب عينيها ، وتعبت بأحشائها ، وهي تلفظ آخر أنفاسها :

وكم من جنين بات ينزع نفسه لقيسية قد هكها السيف بالخضر

سليمية سوداء أو عامرية تجر سلاها حين تنهض بالصدور^(٢)

بها رمق فالطير تبقر بطنها وتضرب عينيها قوادم من نسر

وانظر إلى هذه الصورة الدقيقة الرائعة . التي يصور فيها هذا السيد القيسي
الذي أخذته الرماح من كل مكان ، حتى ألجأته إلى الهرب . فهو يستحث
فرسه على العدو ، وقد تحلب من أعطافها الماء . كأن في بطنها ويجرى حزامها
قرباً تسبح الماء . ترمى برجليها موسعة الوثب . ولا تكاد تمس الأرض .
كأنها تسبح في الفضاء ، أو تعوم في بحر من النبار المتكاثف ، الذي يثيره
من حولها هذا الزحام المضطرب العنيف . والرماح تنوشه من كل جانب ،
تكاد تناله ولما تنله ، وقد انخلع قلبه من الذعر ، فراح يلهب ظهر الفرس
في عدو جنوني . فسكأنه عقاب يسرع إلى وكره ، وقد أقبل عليه ظلام الليل .
وظل في شدة فزعه وذهو له ، يفديها بنفسه وأمه ، قائلاً : فدى لك أمي
إن دأبت إلى العصر . وبالله لو أدركته الرماح ، لتركته جثة مهملة في الصحراء
يتوسد كفه ولا يضمه قبر ، فهو نهب الضباع وكواسر الوحوش .

(١) الذنابي يعني به هنا العجز . قاح من القيح . السوية القتب العاري . الزفر الحمل
يقول إن عجزها قاح . من كثرة ما تحمل الحمل وتتركب الدواب على القتب عارياً فيجرحها
ويؤذيها .

(٢) السلي الكيس الذي يكون الجنين في داخله .

ونجى ابن بدر ركضه من رماحين
إذا قلت نالته العوالى تقاذفت
كانهما والال ينجاب عنهما
كان بطبيعتها ومجرى حزامها
فظل يفديها وظلت كأنها
وظل يجيش الماء من متفصد
يسر إليها والرماح تتوشه
وبالله لو أدركته لاضطررته
فوسد فيها كفه أو لحجبت
بنضاحة الأعطاف ملهبة الحضر^(١)
به سوحق الرجلين سابحة الصدر
إذا هبطا وعثا يعومان في غمر^(٢)
أداوى تسح الماء من حور وقر^(٣)
عقاب دعاها جنح ليل إلى وكر^(٤)
على كل حال من هزائمه يجرى
فدى لك أمي إن دأبت إلى العضر
إلى صعبة الأرجاء مظلمة انقعر^(٥)
ضباع الصحارى حوله غير ذى قبر

وهو في آخر القصيدة يتجه إلى الخليفة فيقول : إننا نستغنى بك عن
عداك ، فما بنا من حاجة إلى صلح قيس وأنت أمير المؤمنين . لقد بايعت
قيس ، وفزعت إليك تطلب العذر عما قدمت ، ولسكنهم لم يفعلوا ذلك
عن إسلام أو هوى ، وإنما دفعهم إليه الذل كارهين . ويفتخر بعد ذلك

(١) نضاحة الأعطاف يعنى فرساً تنضح أعطافها بالعرق لشدة ما أجهدها الجرى ،
الحضر العدو . ملهبة العدو ألهمت ليستخرج أقصى ما عندها من العدو . سوحق الرجلين
طويلتهما . سابحة الصدر كأن صدرها ساج في الفضاء لسرعتها فهي لا تكاد تمس الأرض .
(٢) كأنهما يعنى ابن بدر وفرسه . ينجاب ينكشف إذا دخلا فيه ثم ينطبق عليهما
فينغمسان فيه . الوعث الأرض السهلة الرخوة تغيب فيها الأقدام . الغمر الماء الكثير
يشبه حين يحيطه الغبار الذى يثور حوله وحول فرسه بالذى يسبح في ماء .
(٣) الأطباء : الأتداء واحدها طبي بضم الطاء وسكون الباء . الحور جلد مدبوغ .
وفر ضخام . يصف العرق الذى يتحلب من بين ثدييها ومن موضع حزامها بالماء المتدفق
من قرب ضخام .

(٤) يفديها يقول لها (جعلت فداك) .
(٥) صعبة الأرجاء مظلمة القمر ، ذلك هو القبر أو الحفرة الضيقة التى يوارى فيها .

بموقف قبيلته من الدولة وعدائها لمصعب بن الزبير ، ومحاربتهم جنده من القيسية ، وقتلهم رأسهم الذي دفعهم إلى الفتنة ، عمير بن الحباب :

وأنت أمير المؤمنين وما بنا إلى صالح قيس يا ابن مروان من فقر
فإن تك قيس يا ابن مروان بايعة فقد وهلت قيس إليك من العذر^(١)
على غير إسلام ولا عن بصيرة ولكنهم سيقوا إليك على صغر^(٢)
ولما تبينا ضلالة مصعب فتحنا لأهل الشام باباً من النصر
قد أصبحت مني هوازن كلها كواهي السلامي زيد وقرأ على وقر^(٣)
سمونا بعزني أشم وعارض لنمنع ما بين العراق إلى البشر^(٤)
فأصبح ما بين العراق ومنبج لتغلب تردى بالردينية السمر
إليك أمير المؤمنين نسرها تخب المطايا بالعرائين من بكر
برأس امرئ دلي سليماً وعامراً وأورد قيساً لج ذى حدب غمر^(٥)
فأسرين خمساً ثم أصبحن غداة بُجُرن أخباراً ألد من الحر

وما يصور قسوة الأخطل الوحشية في الهجاء ، وبشاعة تصويره لمناظر القتال ، هذه الأبيات التي يصف فيها جثة عمير بن الحباب ، وقد تركت في الصحراء عارية من الأكفان ، تذبعت منها الروائح العفنة ، فتدل الضباع

(١) الوهل الفرع . أي أن قيساً فرعت إليك تطلب عذراً عما قدمت .

(٢) الصغر الذلة والهوان .

(٣) السلامي عظام خف البعير . الوقر الصدع .

(٤) العرين الأنف يريد الشرف . العارض الجمع الكثير وأصله السحاب . البشر ماء

لبنى تغلب .

(٥) أورد قيساً لج ذى حدب غمر ، أي أوردتها بجرأ من المصائب . ذو الحدب

البحر . الغمر الكثير الماء .

على موضعها ، ومن حولها جثث مبعثرة على جوانب الوادي ، قد انتفخت بطونها ، وخرجت أحشاؤها :

أَمَعَشَرَ قَيْسٍ لَمْ يَمْتَعِ أَخُوكمَ عَمِيرٌ بِأَكْفَانٍ وَلَا بِطُهورٍ
تَدُلُّ عَلَيْهِ الضَّبْعُ رِيحٌ تَضَوَّعتْ بِلا نَفْحٍ كَافُورٍ وَلَا بِعَبيرٍ
وَقَتْلَى بَنِي رَعْلٍ كَانَتْ بِطُونُهَا عَلَى جِلْهَةِ الْوَادِي فِي بِطُونِ حَمِيرٍ^(١)

ومن قصائده التي تمتاز بالفحش ، وبالاغتهاب على الصريح الهجائية ، قصيدته في هجم النابغة الجعدي أحد شعراء قيس :

لَقَدْ جَارَى أَبُو لَيْلَى بِقَحْمٍ وَمُنْتَكِثٍ عَلَى التَّقْرِيبِ وَأَنْ^(٢)
فَمِنْ إِخْفَاشِهِ فِيهَا قَوْلُهُ :

خَنَافْسُ أَدَجَّتْ لِمَبِيتِ سَوْءٍ وَرِثْنُ فِرَاشِ زَانِيَةٍ وَزَانٍ
وَمَا أُمُّ رَبُوتٍ عَلَى يَدَيْهَا بِطَاهِرَةِ الثِّيَابِ وَلَا حَصَانٍ
كَأَنَّ عِجَابَهَا ثَلْبًا جَزُورٍ تَحَسَّرَ عَنْهُمَا وَضُرُّ الْجِرَانِ^(٣)

وقد عرف الأمويون لتغلب وشاعرها إخلاصهم للدولة في محنتها ، وقتالهم في سبيلها ، فأعظموا مكانهم ، وقربوا الأخطال ، حتى بلغ في بلاط عبد الملك قمة مجده السياسي ، فكان شاعر الدولة المقدم . ولقد بلغ من جرأته على الخليفة ، أنه كان في شعره يمن عليه سابق صنعه له ، ولا ينقطع عن الإدلال

(٩) جلها الوادي جانبه .

(١٠) أبو ليلي : كنية نابغة بنى جعدة . القحمة الفرص الكبير السن المهزول الهرم . التقريب ضرب من العدو . المنتكث والمنتكس الضعيف . يعيره كبر سنه وعجزه عن المفى في مساجلته الشعر .

(٢) المعجان ما بين القبل والدبر . اللحي منبت اللحية من اللسان وغيره . الجروز الناقة المذبوحة . الوضروسخ الدسم واللبن . جران البعير مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره .

بموقف قبيلته في تيه وعجب ؛ وكان عبد الملك ، مع ما هو معروف من قوته وهيبته ، يحتمل منه كل ذلك . بل لقد استطاع أن يقول له في إحدى مداخله ، إن قبيلته أقرب ملك الأمويين :

وقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أتاك ببطن الغوطه الخبر^(١)

واستطاع أن يذهب في الجرأة إلى أبعد من ذلك ، حين نقض الجحاف عهده ، فأوقع بتغلب في البشر . فهو يتهم الخليفة بالتقصير في حماية قومه ، ويجعله مسؤولاً عن قتل منهم ، فيطالبه بأن يغرم عن القيسية دماءهم ، قائلاً إن الحمالة مهما تثقل قدم القوم أثقل . وهو يهدد الخليفة بالخروج معتداً بقوة قومه :

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة إلى الله منها المشتكى والمعول

فسائل بني مروان ما بال ذمة وحبل ضعيف ما يزال يوصل^(٢)

بنزوة لص بعد ما مر مصعب بأشعث لا يفلى رلا هو يغسل^(٣)

أأمرك الجحاف ثم أمرته بجيرانكم وسط البيوت تقتل^(٤)

لقد كان للجيران ما لودعوتهم به عاقل الأروى ألتكم تنزل^(٥)

فإن لا تغيرها قرش بمالكها يكن عن قریش مستأز ومزحل^(٦)

(١) الغوطة غوطة دمشق .

(٢) حبل ضعيف ، يقصد العهد الذي بين قومه وبين الأمويين ، يصفه بالضعف لأن الخليفة لم يستطع أن يحمي قومه من الجحاف السلمي حين أوقع بهم .

(٣) يقصد باللص الجحاف . يقول له فعلتم هذا بعد أن قتلنا لكم مصعب بن الزبير .

(٤) يتهم بالأمويين يقول هل استأذنتكم الجحاف في قتل جيرانكم الذين يحمونكم فأذنت لهم .

(٥) الأروى جمع كثرة للأروية وهي أنثى الوعول . والعاقل الممتنع في الجبال العالية .

يقول لقد كان للجيران عليكم عهداً ينزل الأروى المعتصم بأعلى الجبال .

(٦) مستأز من ماز الرجل وأمتاز واستأز انتقل من مكان إلى مكان . متنجياً .

وَنَعْرِزُ أَنْاسًا عَرَّةً يَكْرَهُونَهَا وَنَحْيِي كِرَامًا أَوْ نَمُوتُ فَنَقُتِلُ^(١)
وَأِنْ تَحْمِلُوا عَنْهُمْ فَمَا مِنْ حَمَالَةٍ وَإِنْ ثَقُلَتْ إِلَّا دَمُ الْقَوْمِ أَثْقَلُ^(٢)
وَأِنْ تَعْرِضُوا فِيهَا لَنَا الْحَقَّ لَمْ نَكُنْ عَنْ الْحَقِّ عِمِيَانًا بَلِ الْحَقُّ نَسْأَلُ
وَقَدْ نَزَلَ الثُّغْرَ الْخَوْفَ وَيُتَّقَى بِنَا الْبَأْسَ وَالْيَوْمُ الْأَعْرُ الْحَجَلُ
كَانَ الْأَخْطَالُ لِسَانِ الْحَكُومَةِ الَّذِي يَعْبُرُ عَنْ رَأْيِهَا وَاتِّجَاهَاتِهَا . فَهُوَ
يَصُورُ بِغَضِ الْأُمُورِ لِهَذَا الْحَزْبِ الْقَيْسِيِّ ، الَّذِي ظَلَّ مَكْرُوهًا مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ ،
لَا يَقْرَبُهُ وَلَا يَثِقُ بِهِ . فَلَا تَكَادُ تَخْلُو قَصِيدَةً فِي مَدْحِ عَبْدِ الْمَلِكِ مِنْ هَجَائِهِمْ ،
وَالْتَحَدُّثِ عَنْ نِفَاقِهِمْ ، وَنَبَشِ قَدِيمِ كَيْدِهِمْ لِلدَّوْلَةِ وَانْحِرَافِهِمْ عَنْهَا . يَقُولُ
فِي قَصِيدَتِهِ :

لَعَمْرِي لَقَدْ أُسْرِيتُ لَا لَيْلَ عَاجِزٍ بِسَاهِمَةِ الْخُدَّيْنِ طَاوِيَةِ الْقُرْبِ^(٣)
... عَتَبْتُمْ عَلَيْنَا قَيْسَ عِيلَانَ كُلَّكُمْ وَأَيُّ عَدُوٍّ لَمْ تُبْنِتْهُ عَلَى عَتَبِ
لَقَدْ عَلِمْتَ تِلْكَ الْقَبَائِلَ أَنَّنَا مَصَالِيْتُ جَذَامُونَ آخِيَّةَ الشَّغْبِ^(٤)
فَإِنَّ تِلْكَ حَرْبُ ابْنِي نَزَارٍ تَوَاضَعَتْ فَقَدْ عَذَرْتَنَا مِنْ كِلَابٍ وَمِنْ كَهَبِ
وَفِي الْحَقْبِ مِنْ أَفْنَاءِ قَيْسٍ كَانَهُمْ بِمَهْرَجِ الثَّرْنَارِ خُشْبٌ عَلَى خُشْبِ^(٥)

- (١) عَرَّةً بَشَرٌ لَطَخَهُ بِهِ وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْعَرِّ وَهُوَ الْجَرْبُ .
(٢) الْحَمَالَةُ الدِّيَّةُ وَالْفَرَامَةُ .
(٣) السَّرَى سِيرَ اللَّيْلِ . السَّاهِمُ الشَّاحِبُ الضَّامِرُ . الْقُرْبُ جَانِبُ السَّرَةِ .
(٤) الْمَصَالِيْتُ الشُّجَاعُ . الْجَذَمُ الْقَطْعُ . الْآخِيَّةُ خَشْبَةٌ تَدْفَنُ فِي الْأَرْضِ يَشُدُّ فِيهَا حَجَلُ
الدَّابَةِ . الشَّغْبُ تَهْيِيجُ الشَّرِّ .
(٥) الْحَقْبُ جَمْعُ أَحْقَبَ وَهُوَ الْحِمَارُ الْوَحْشِيُّ الْأَبْيَضُ فِي حَقْوِيهِ ، أَفْنَاءُ قَيْسٍ أَخْلَاطُهُمْ .
الْثَّرْنَارُ وَادٍ عَظِيمٌ بِالْجَزِيرَةِ وَهُوَ فِي الْبَرِيَّةِ بَيْنَ سَنْجَارٍ وَتَكْرِيتٍ تَسْكُنُهُ تَغْلِبُ ، وَبِهِ كَانَتْ
وَقَائِعٌ مَشْهُورَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قَيْسِ عِيلَانَ فِي أَيَّامِ الْفِتْنَةِ الثَّانِيَةِ .

وهنَّ أذقن الموتَ جزءَ بنِ ظالمٍ بماضيةٍ بين الشراسيفِ والقُصْبِ^(١)
 فظَلَّتْ بنو الصمعاءِ تأوى فلولهُم إلى كل دسماءِ الذراعين والعقبِ^(٢)
 وقد كان يوماً راهطٍ من ضلالكم فناءً لأقوامٍ وخطباً من الخطبِ
 تُسامون أهل الحقِّ بابنِ محاربٍ ورهطِ بني العجلانِ حسبك من ركبٍ^٣
 قرومُ أبي العاصي غداةً تَحْمَطُ دمشقُ بأشباهِ المهناةِ الجربِ^(٤)
 يقودون موجاً من أميةٍ لم يرث ديارَ سليمي بالحجاز ولا الهضبِ
 ملوكُ وحكامُ وأصحابُ نجدةٍ إذا شوغبوا كانوا عليها أولى شغبِ
 ويعرض بزعيمهم زفر بن الحرث في قصيدة يمدح بها بشر بن مروان
 فيختمها بقوله :

فلا تجعلني يا ابن مروان كأمريء غلت في هوى آل الزبير مرارجله
 يُبايعُ بالكف التي قد عرقتها وفي قلبه ناموسه وغوائله
 وقد اتخذ هجاؤه للقيسية صورة جديدة في النقائض التي اتصلت بينه وبين
 جرير ، وكان عمادها هجاء الأخطل لهذا الحزب الزبيرى المنحرف عن الأمويين ،
 وانتصار جرير له وهجو تغلب وشاعرها النصراني .
 ومن أروع ما يصور الهجاء السياسي الممتاز نقيضة الأخطل المشهورة :

(١) الشراسيف أطراف الأضلاع من أسفل الجنب ، القصب المصران ، جزء بن ظالم
 الحارث بن ظالم الذي قتل ابن النعمان وكان من فتاك العرب المشهورين ، والأخطل يقتخر
 هنا بقتلهم هذا البطل .
 (٢) بنو الصمعاء إخوة عمير بن الحباب نبزهم بذلك ، والصمعاء الصغيرة الأذن ، دسماء
 الذراعين من الوسخ والأقدار .
 (٣) أهل الحق يعني بني أمية ، محارب وبنو العجلان من قبائل قيس عيلان
 (٤) القروم جمع قرم وهو السيد على التشبيه بفحل الابل . تخمط تكبر وغضب .
 المهناة الابل المطلية بالنظران وذلك حين تداوى من الجرب . والعرب تصف الجيش
 بالسهم لكثرة ما عليه من النزوع والحديد .

خَفَّ الْقَطِينُ فَرَاخُوا مِنْكَ أَوْ بَكُرُوا وَأَزْجَحْتَهُمْ نَوَى فِي صَرْفِهَا غَيْرُ^(١)
وهو يمزج المدح فيها بالهجوم . يرفع من قدر الأمويين ، معرضاً بأعدائهم
من القيسية ، متشمتاً بما لحقهم من ذل وانكسار ، مباهياً بمشاركة قبيلته
في إقرار الملك . وأين يذهب هؤلاء الحمقى من عبد الملك ، وهو أعلى الناس
همة ، وأقواهم مُنَّةً ، وأصبرهم على قتال :

لَا يَطْعَمُ النَّوْمَ إِلَّا رَيْثَ يَبْعُهُ هُمُ الْمُلُوكُ وَجَدَّ هَابَهُ الْحَجَرُ
مَقَرَّشُ كَافَرِاشِ اللَّيْثِ كُلُّكَلِهِ لَوْعَةٌ كَأَنَّ فِيهَا لَهُ جَزَرُ^(٢)
حَتَّى تَكُونَ لَهُ بِالطَّفِّ مَلْحَمَةٌ وَبِالثَّوِيَّةِ لَمْ يُنْبِضْ بِهَا وَتَرُ^(٣)
وَتَسْتَبِينَ لِأَقْوَامِ ضَلَالَتِهِمْ وَيَسْتَقِيمُ الَّذِي فِي خَدِّهِ صَعَرُ
يَعْلُو الْقَنَاظَرُ بَيْنِهَا وَيَهْدُمُهَا مَسُومٌ فَوْقَ الرَّايَاتِ وَالْقَتَرُ^(٤)
حَتَّى اسْتَقْلَّ بِأَثْقَالِ الْعِرَاقِ وَقَدْ كَانَتْ لَهُ نِقْمَةٌ فِيهِمْ وَمُدْخَرُ^(٥)
وَمَاذَا يَعْيَبُونَ عَلَى بَنِي أُمَيَّةٍ أَوْ يَنْقَمُونَ مِنْهُمْ وَهُمْ :

فِي نَبْعَةٍ مِنْ قَرِيشٍ يَعْصِبُونَ بِهَا مَا إِنْ يُوَازَى بِأَعْلَى نَبْتِهَا الشَّجَرُ
عَلَتْ هَضَابًا وَحَلَكُوا فِي أَرْوَمِهَا أَهْلُ الرِّيَاءِ وَأَهْلُ الْفَخْرِ إِنْ فَخَرُوا
حُسْدُ عَلَى الْحَقِّ عَيَّافُو الْخَلَاءِ أَنْفُ وَإِنْ أَلَمْتُ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا

-
- (١) خف القوم ارتحلوا مسرعين . راحوا من الرواح وهو ضد البكور . أزجحتهم
نوى أفلقتهم . غير الدهر وصروفه حوادثه .
(٢) الجزر كل شيء مباح للذبح .
(٣) الطف أرض من ضاحية الكوفة كان فيها مقتل الحسين . الثوية موضع قرب
الكوفة . لم ينبض بها وتر لأن الجيشين ملتحان فليس بينهم إلا الضرب والظعن . وإنما
يتراعى الجيشان بالنبل إذا كانا بعيدين قبل أن يلتحما .
(٤) مسوم معلم بعلامة يعرف بها . وكان الفرسان المشهورون يعلمون أنفسهم وقت
القتال ليعرفوا من سائر الناس . القتر غبار المعركة .
(٥) نعمة فيهم ومدخر سبقت إليهم نعمته ولا يزال يدخر لهم ألواناً من النسيك .

وما الذي غرهم بنى أمية حتى ركبوا رءسهم ، وهم أوسع الناس حيلة ،
وأشدهم بطشاً !

لا يستقل ذوو الأضغان حربهم ولا يُبين في عيدانهم خور
وإن تدجّت على الآفاق مظلمة^(١) كان لهم مخرج منها ومعتصر^(٢)
شمس العداوة حتى يستقاذ لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا^(٣)

وهل يستحق هؤلاء المارقون الذين أنزلهم السيف على حكمه ، فأعطوا
عن يد وهم صاغرون ، إلا الذل والهوان ؟ وكيف يأمن الخليفة لزيمهم وهو
عدوه الذي استباح دم جنده وأوليائه ، وإنه ليخفي في نفسه الغل الدفين
والحقد الكمين .

بنى أمية إني ناصح لكم فلا يبين فيكم أمناً زُفر^(٤)
واتخذوه عدواً إن شاهدته وما تغيب من أخلاقه دعر
إن الضغينة تلقاها وإن قدّمت فالمرء يكمن حيناً ثم ينتشر^(٥)
أتقربون منكم هذا الرجل ، وسيفه يقطر من دماء قومي ، الذين بذلوا
أنفسهم في إقرار ملككم ؟ ألم أناضل دونكم أبناء الأنصار .
حتى استكانوا وهم مني على مضضٍ والقولُ ينفذ ما لا تنفذ الأبر

(١) تدجّت أظلمت . مظلمة كارثة أو مصيبة . معتصر ملجأ ومعتل

(٢) رجل شمس عسرى عداوته ، والشماس الأبناء ، والفرس الشموس الذي يستعصى
على راحته

(٣) هو زفر بن الحارث الكلابي من زعماء القيسية الذين حاربوا الأمويين ، وكان
قد هرب ثم أمّنه عبد الملك ، وهو القائل :

فقد تنبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

(٤) العر الجرب ، يقول إن الحق قد ظل كامناً في النفس كالجرب يسكن فيظن أنه قد

انصرف ولكنه لا يلبث أن ينتشر

وقيسَ عيلانَ حتى أقبلوا رقصاً فبايعوك جهاراً بعد ما كفروا
ضجوا من الحرب إذ عصت غواربهم وقيسُ عيلانَ من أخلاقها الضجر
فلا هدى اللهُ قيساً من ضلالتها ولا لعا لبني ذَ كوانَ إذ عمروا^(١)
ويندفع الأخطل في الفخر بقومه ، ونصرهم عبد الملك ، وقتلهم عمير
ابن الحباب رأس سليم الذي دلاهم إلى الفتنة ، وقادهم إلى الحين والهلاك .
وتستثيره ذكرى الدم ومناظر القتال ، فيبلغ منه الغضب والحماس حد الوحشية
والغلظة النفاسية ، حين يصف جثته وقد انطرحت في ميدان القتال ، وطاحت
عنها الرأس بين أكداس من الرءوس ، وقد صمت منها الأذان ، وخرص
اللسان ، ومزق السيف خيشومها . وهذا هو الحرث بن أبي عوف لعبت به
السيوف حتى تركته جزر العقبان والحدأ ، تحوم حول جثته ، وتتنازع لحمه .
وقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أتاك ببطن الغوطة الخبر
يعرفونك رأس ابن الحباب وقد أضحى ولل سيف في خيشومه أثر
لا يسمع الصوت مستكأ مسامعه وليس ينطق حتى ينطق الحجر
أمست إلى جانب الحشاك جيفته ورأسه دونه اليحموم والصور^(٢)
يسأله الصبر من غسان إذ حضروا والحزن كيف قرأك الغلظة الجشرا^٣

(١) لا لعا يعني لا ارتفعوا ، يقال لا لعا فلان أى لا أقامه الله
(٢) الحشاك واد بآرض الجزيرة بين دجلة والفرات كانت فيه وقعة بين قيس وتغلب
وفي هذه الواقعة قتل عمير بن الحباب من زعماء قيس . واليحموم موضع بالشام والصور
قرية على شاطئ الحابور .
(٣) الصبر والحزن حيان من غسان . الجشرا الرعاة الذين يمدون بأبلهم عن العمران .
كان عمير يسخر من بني تغلب ويقول (إنما هم جشرا) والأخطل يسخر به هنا ويقول
إنهم قد حملوا رأسه لهؤلاء الأقوام من بني غسان فسألوه متهمين : كيف رأيت قري
هؤلاء الغلمان من الرعاة . وإنما قروه الموت .

والحرث بن أبي عوفٍ لعين به حتى تعاوَرَه العقيانُ والسُّبُرُ (١)

انظر إلى ما يشتمل عليه هذا الهجاء من غضب وحشى ينزع من قلبه كل رحمة ، وإلى ما يخوض فيه من تفصيل تقشعر منه الأبدان ، وإلى هذه الألفاظ القاسية التي يستعملها في وصف جثته حين يسميها (جيفة) وأنفه حين يسميه (خيشوماً) .

هذه الغلظة القاسية هي طابع الأخطل الذي تتسم به كل أهاجيه ، وهذه الألفاظ البدوية الخشنة ، بما فيها من ضخامة تصك الأسماع ، هي أنسب الأثواب لهذه الغلظة البالغة . لم يكن الأخطل متهمكماً سخراً كجبرير ، ولم يوهب هذا الذكاء الذي يلهم النكتة البارعة ، والصورة التي تستفز للضحك ، فهو غاضب دائماً حين يهجو ، يذهب الغضب بكل ما في مزاجه من دعاية . وقد تجد في هجائه كثيراً من الصور القوية ، ولكنها صور كالحة دائماً يغشيها عبوس مظلم واجم . فهو رجل غليظ قاس لا تعرف الرقة إلى قلبه سيلاً . ولم يكن من محض الصدفة والاتفاق أن يخلو ديوان هذا الشاعر الكبير من الرثاء ، فالواقع أن هذا الرجل لم يكن يستطيع الحزن ، ولم تكن مصيبة إنسان مهما عظمت لتحرك قلبه أو تثير عطفه ، بل لقد كانت المناظر المشيرة للحزن ، لا تثير في نفسه إلا الوحشية الفظة ، والثورة الهاجئة .

كان الأخطل ، كما تقدم ، لسان الأمويين الذي يعبر عن ميراثهم واتجاههم في مدائحهم وفي أهاجيه على السواء . فهو يثني على ولايتهم المعروفين بالشدة التي تتجاوز حدود العدالة ، مبرراً مسلكهم ، مؤيداً سياستهم ، وكأنه بذلك يجيب على ما يوجه إليهم من نقد ، وما يرمون به من ظلم واستبداد . فهو يخاطب عبد الملك مؤيداً الحجاج فيما ينتهج من عنف صارم ، يؤدب هؤلاء

(١) الحارث بن أبي عوف من رجال بني عامر بن صعصعة (من قيس عيلان) السُّبُر طائر شبيه بالصقر . تعاوَرَه العقيان والسُّبُر تداولته .

المنافقين من أهل العراق ، الذين عرفوا بميلهم عن الدولة وبغضهم لها . فهو ضابط للخراج ، مظفر في الحروب ، لا يزال يسوق إلى الخليفة السبائيا والغنائم ، ضارب على أيدي العابثين بالقانون من الخوارج :

فعليك بالحجاج لا تعدل به أحداً إذا نزلت عليك أمور
ولقد علمت وأنت أعلمنا به أن ابن يوسف حازم منصور
وأخو الصفاء فما تزال غنيمة منه يحيى بها إليك بشير
وترى الرواسم يخافن وفوقها ورق العراق سبائك وحرير (١)
وبنات فارس كل يوم تصطفى يعلونهن وما هن مهور
... ولقد علمت بلاءه في معشر تغلى شناة صدورهم وتفور
والقوم زأرهم وأعلى صوتهم تحت السيوف غماغم وهدير (٢)

طلبوا الأزارق بالكتائب إذ هوت

بشيب غائلة النفوس غدور (٣)
يرجو البقية بعد ما حدثت به فرط المنية يحصب وحجور
فأباح جمعهم حمداً وانثنى وله لوقعة آخرين زئير

(١) الرواسم الابل . الورق الفضة . وبنات فارس ما هن مهور لأنهن سبايا . يعلونهن يعلون الابل .

(٢) الزئير : صوت الأسد شبه به أصوات المحاربين . النغممة : الكلام الخفى . يقول أقصى ما ترتفع به ، حناجر المحاربين أن يغتموا لشدة انشغالهم بالقتال ولجفاف حلوهم

(٣) الأزارقة من فرق الخوارج ومن أشدها تطرفاً . شيب من زعائهم كانت له حروب كثيرة مع الحجاج حتى مات غرقاً عند جسر دجيل سنة ٧٧

(٤) يحصب وحجور من قبائل اليمن ، الأولى من حبر والآخرى من همدان . فرط المنية ما سبق إليه منها .

ويمدح الأخطل عباد بن زياد وأخاه مسلم بن زياد فينسبهما لأبي سفيان ،
توكيداً لما فعل معاوية من إلحاق زياد ، وإقراراً له في الأذهان والآذان .
وكان الناس لا يكادون يقولون إلا (زياد بن أبيه) أو (زياد بن سمية) .
يقول في مدح عباد :

إليك أبا حربٍ تدافعن بعد ما وصلن لشمسٍ مطلعاً بغروب
ثم يكرر ذلك بعد أبيات :

ولولا أبو حربٍ وفضلُ نواله علينا أنانا دهرُنا بخطوب
ويقول في أخيه مسلم بن زياد :

نفسى فداءه أبا حربٍ غداةَ غدا مخالطُ الجنِّ أو مستوحشٌ فرقٌ
وكان أكثر ما عني الأخطل بتقريره حق الأمويين في الملك . فهو يؤكد
في كل موضع من شعره أن الله قد اختارهم للخلافة ، فهم أصلح الناس لها .
يقول في عبد الملك :

وفد جعل اللهُ الخلافةَ فيكم لابيضَ لا عارى الخوان ولا جذبٌ^(١)
... أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا موالى ملكٍ لا طريفٍ ولا غصب
ولم تر عيني مثلَ يومٍ رأيتهُ أذاك بلا طعنٍ الرماح ولا الضرب
ولكن رآك الله موضعَ حقهِ على رغم أعداءٍ وصدادةٍ كُذِب
ويقول في مدح بشر بن مروان :

أنتم خيارُ قريشٍ عند نسبهم وأهلُ بطحائها الأثرون والفرع
أعطاكم الله ما أنتم أحقُّ به إذ الملوكُ على أمثاله اقترعوا

(١) هذا البيت من ستقطات الأخطل التي لأمه فيها قدماء النقاد فقالوا (نو مدح بهذا البيت حرسياً لعبد الملك ما أنصفه) فقليل جداً على الخليفة أن يوصف خوانه بأنه ليس عارياً ولا جذباً .

وهو يؤكّد فضلهم على الناس ، بما لهم من حسب عريق في الجاهلية ،
وبخلافه عثمان في الإسلام . فلكم ثابت بحسبهم وقديم فضلهم (ليس
بطريف ولا غصب) وليس أعداؤهم من بني الزبير وأنصارهم القيسية إلا
خرابا وقطاع طرق ، عاقبهم الله على بغيتهم بيد الأمويين .

فإنّ الله لم يَرْضَ عن آل الزبير ولا عن قيس عيلان حيّا طالما خربوا^(١)
يُعَظِّمُونَ أبا العاصي وهم نَفَرٌ في هامةٍ من قریش دونها شَذَبُ^(٢)
بيضٌ مصاليتُ أبناء الملوك فلن يُدْرِك ما قَدَّموا عَجْمٌ ولا عَرَبٌ
كانوا موالى حقٍ يَطْلُبُونَ به فأدرِكوه وما مَلَّوْا ولا لَغَبُوا
إن يك للحق أسبابٌ يمدُّ بها ففي أكَفْهِمُ الأَرسانُ والسَّكَبُ
همُ سَعَوْا بَابِنِ عَفانٍ الأمامِ وهمُ بعدَ الشَّامِ مَرَوْها ثَمْتَ احتلبوا^(٣)
حرباً أصابَ بني العَوَّامِ جانبها بعداً لمن أكلته النار والحطب
حتى تناهتْ إلى مصرٍ جماجمُهم تعدو بها البُرْدُ منصوباً بها الخشبُ^(٤)
وهو يؤكّد هذا المعنى في مواضع آخر حين يقول من قصيدة يمدح بها
عبد الله بن معاوية :

قوم إذا بسَطَ الإلهُ ربيعهم دارتُ رحاهُ بِمُسْئِلِ درّار
وإذا أريدَ بهم عقوبةٌ فاجرٍ مطرتُ صواعقهم عليه بنار

- (١) الخارب السارق وقاطع الطريق .
(٢) الشذب : الشوك .
(٣) سَعَوْا بَابِنِ عَفانٍ أى سَعَوْا لادراك تأرهِ . مَرَوْها ثَمْتَ احتلبوا . شبه الحرب
بناقة صعبة الخلق تَمْتَنِعُ على الخالب في أول الأمر . والمرى مسح الضرع ليندر . يشبه
تذليلهم لصعاب الحرب بالخالب الصنّاع الذى يمسح ضرع الناقة النافرة حتى تلين له
وتسمح باللين .
(٤) لما قتل مصعب بن الزبير بعث عبد الملك برأسه إلى أخيه عبد العزيز بن مروان
بمصر . البرد مجفف يرد بضميتين جمع بريد .

ثم يقول :

١- تبوحيث الضغائن بينهم أفضى وسار بجحفل جرار

وأهل إذ غنظ العدو بفياق تحت الأشاء عريضة الآثار (١)

حتى رأوه بجانب مسكن معلماً والخليل جاذية على الأقتار (٢)

ولقد تناولت العقور بضربة وبني أبي بكر ذوى الأصهار (٣)

ورجال عبد القيس تحت نخورها كانوا لها جزراً من الأجزاء

وعلى خزاعة والسكون تعطف والخليل تمشق عنهم أسلابهم (٤)

حتى إذا علم الإله نكاله في كل معترك وكل مغار (٥)

وتصاغروا للحرب أى صغار وجزأهم بالعرف والإنكار

حقن الدماء ورد ألقهم لهم وبقول فى مدح بشر بن مروان :

إمام يقود الخيل حتى كآتها صدور القنا معوجها وقويمها

إلى الحرب حتى تخضع الحرب بعدما تخمط مرحاهها وتحمى قرومها (٦)

... بكم أدرك الله البرية بعد ما سعى لصها فيها وهب غشومها

(١) غنظه وفدحه وبهظه كل ذلك بمعنى واحد أى غمه وآذاه وأجده . الأشاء النخل شبه القنا بها .

(٢) الجاذى الثابت القائم . الأقتار أطراف الحوافر . مسكن موضع على نهر دجيل قريب من دير الجاثليق كانت به وقعة بين عبد الملك ومصعب .

(٣) العقور قبائل من تغلب وبنو أبي بكر هم أبو بكر بن كلاب .

(٤) عبد القيس قبائل من ربيعة . وخزاعة والسكون من قبائل اليمن . خزاعة من الأزد والسكون من كندة .

(٥) مشق ثوبه شقه ومزقه . المغار من الإغارة .

(٦) تخمط إهناج كما يتخبط الفحل وهو هديره وعقده عنقه وضربه بذنبه . مرهاها من المرح والنشاط . مرجى جمع مرج .

وفكرة الأخطل هنا بسيطة قريبة . فالتقوى الغالب هو صاحب الحق دائماً ، لأن الله لا ينصر الظالمين ، ولا يعين المفسدين . وليست الحروب إلا محنة واختباراً ، يظهر الله خلالها صاحب الحق ، وبعاقب الظالمين يبيده . وهو بهذا متأثر بالفكرة الجاهلية التي قررناها ، من أن القوة وحدها هي الفضيلة ، وأن كل ما نالته يد التقوى فهو حق له . وقد كان الأمويون أنفسهم يحبون أن يمدحوا على هذا النحو الذي يصورهم أقوياء ، ولم يكنوا يرون بأساً في أن يتول عنهم الشعراء إنهم أخذوا الملك بالسيف . وكان الشعراء يحرون في ذلك على ما يجب الأمرين حتى جاء الأخطل فاستحدث فكرة هذا الحق الإلهي ، ولكنه ألبسها ثوباً جاهلياً . روى صاحب الأغاني أن عبد الملك أنشد قول كثير فيه :

فما تركوها عنوةً عن مودةٍ ولكن بحدّ المشرفى استقلها
فأعجب به . فقال له الأخطل — ماقلته لك والله يا أمير المؤمنين أحسن منه . قال — وما قلت ؟ قال قلت :

أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا موالى ملكٍ لا طريفٍ ولا غصب
جعلته لك حتماً وجعلك أخذته غصبا . قال : صدقت .

والواقع أن الأخطل كان بدوياً يعيش على هذه المثل الجاهلية ولا يرى غيرها ، نجد ذلك واضحاً في حياته وتفكيره وفي فنه على السواء . فهو رجل لا يؤمن إلا بالقوة . وقارىء شعره في الفخر لا يراه إلا جاهلياً ممعناً في الجاهلية . يقول :

نصبنا لكم رأساً فلم تكلموا به ونحن ضربنا رأسكم فنصدعنا
ونحن قسمنا الأرض نصفين : نصفها لنا ونرأى أن تكون لنا معا
بتسعين ألفاً تأله العين وسطه متى تره عينا الطرامة تدمعا
إذا ما أكلنا الأرض رعيّاً تطلعت بنا الخيل حتى تستبيح المنعاً

وهو لا يرى في الجود فضيلة إلا يثار والعطف على البائس المحروم ، ولكنه يراه مظهرا من مظاهر القوة ، لأن الكريم يجود بما اجتمع له من السبي والمغانم بقوته :

إليك أمير المؤمنين رحلتها على الطائر الميمون والمنزل الرحب
إلى مؤمن نجلوا صحيفة وجهه بلابل تغشي من هموم ومن كرب
مناخ ذوى الحاجات يستمطرونه عطاء كريم من أسارى ومن نهب^(١)
ترى الحلق الماذى تجرى فضوله على مستخف بالنوائب والحرب^(٢)
وهو يذهب فى اللذة مذهب الجاهليين ، الذين يرون الهجوم عليها واغتصابها أليق بالفتى والجرى الفاتك :

بأن الشباب وزبما علته بالغانيات وبالشراب الأصهب
ولقد شربت الخمر فى حانوتها ولعبت بالقيينات كل الملعب
ولقد أوكل بالمدجج تتقى بالسيف عرته كعرة أجرب^(٣)
ويقول :

ألا يا أسلمى يأمم بشر على الهجر وعن عهدك الماضى له قدم الدهر
ليالى ناهو بالشباب الذى خلا بمرتجة الأرداف طيبة النشمر
ويقول — وهو يشبه النساء هنا بالوحش النافر —

ولقد أصيد الوحش فى أوطانها فيذل بعد شمس اليغفور^(٤)

(١) النهب الغنيمة أى أنه يعطى مما يغنم فى الحروب .

(٢) الحلق يعنى به حلق الدروع . الماذى ما خلس من الحديد . فضوله ما فضل منه

وزاد . أى أن الدرع سابعة تغطى سائر الجسد .

(٣) المدجج الداخل فى السلاح . عرته شرته وأصل العرة الجرب أو قرحته .

(٤) الشمس الاباء والامتناع . اليغفور الظي .

ومما يصرو حبه للبادية ، وكرهه للمدن وما فيها ، قوله في مقدمة قصيدة يمدح بها بشر بن مروان :

سقى الله منه دارَ سلمى بريةً على أن سلمى ليس يُشفى سقيمها
من العربيات البوادي ولم تكن تلوّحها حُمى دمشق ومومها^(١)
وفن لأخطل بعد ذلك مرآة صادقة لهذه البداوة في صورته وتشبيهاته .
وفي أسلوبه وألفاظه . فهو يشبه النساء ، بإبل قد أوعثها السير في أرض
سهلة ، تغيب أقدامها في رمالها :

يمشّين مشى الرجال الأدم يؤعّيها أعرافُ دكاكةٍ منهالةٍ الكُتب^(٢)
ويشبه مشيهم في موضع آخر ، يمشى الإبل البيض ، يهدر الفحل
وراءهن فيتبخترن .

يمشّين مشى الهجان الأدم رُوّحها عند الأصيل هديرُ المصعب القطم^(٣)
ويشبه دنان الخمر بإبل جربى قد طليت قطرانا :
ولقد تباكرنى على لذاتها صهباء عارية القذى خرطوم^(٤)
من عاتقٍ حدرت عليه دنانه وكأنها جربى بهن عصيم^(٥)
ويشبه هدير الخمر في الدنان بهدير الجمال :

عز الشرابُ فأقبلت مشروبةً هدر الدنانُ بها هدير الأُفحل

-
- (١) لوحته النار والسموم غيرته وسفعت وجهه . الموم مرض الجدري .
(٢) الهجان الإبل الكرام . يوعّيها يجعلها تمشى في الوعث وهو المكان السهل
تغيب فيه الأقدام . أعراف الرمل والجبل ظهره وأعالیه . الدكداك « الذين من الأرض
والكتب جمع كتيب وهو التل من الرمل سمى بذلك لأنه انكتب أى اجتمع في مكان واحد
(٣) الأدم من الإبل البيض . المصعب الفحل الصعب . القطم الهاج يشبه مشيهم بذلك
لأن الجمل إذا هدر عليهن تبخترن .
(٤) الصهباء الخمر وذلك لونها والصبغة حمرة في سواد . عارية القذى لا قذى فيها .
الخرطوم ما سأل قبل أن يعصر وهو أجود .
(٥) العاتق الخالص اللون ، العصيم القطران . الدن وعاء كبير من فخار تخزن فيه
الخمر ويطلق بالقطران لتسده مساهة .

ويشبه القلال الصغار بجانب الدن الكبير ، بصغار الإبل حـ ل الفحل ،
تتمسح به وتشمه بين رجليه .

وترى القلال بجانبه كأنها قُلصٌ يسفنُ فُروجَ قَرَمٍ مرسل^(١)

ويشبه نفسه حين يشرب الخمر صرفا فهي قوية شديدة ، بناقه لبسوا لها
جلد حـ ر ا ر ، فهي إذا نظرت من بعيد حسبتة ابنها ، فاذا دنت منه فشمتته أنكرته
كأنى كرت الكأس ساعة كرها على ناشص شمت حوارا ملبسا^(٢)
ويشبه رجلا من بكراسمه الحراق ، في غيظه وشدة غضبه ، بالفحل الذى
حبس عن ضراب الإبل فهو يحرق نابه ويهدر لاويا رأسه .

وظل الحراق وهو يحرق نابه بما قد رأى من قوة وعتادا^(٣)

هدير المعى ألحح الشول غيره فظل يلوى رأسه بقتاد^(٤)

ويشبه القيسية ، فيما ذاقوا من نكال الحرب بالذى حمل على ناقة عجز ،
قد تساقط عنها وبرز عظامها :

صكوا على شاربٍ صعبٍ مراكبها حصاء ليس لها هلب ولا وبر^(٥)

(١) القلال آنية الفخار الصغيرة . قلص جمع قلوص وهي صغار الإبل . القرم الفحل وهو خطأ من الشاعر لأن المتلص إنما تتمسح بالآثى ولا تتمسح بالفحل .

(٢) الناشص الناقة التى يؤخذ فصيلها فتتمنع اللبن ولا تسمح به ، فيحشون لها جلده بالتبن أو القطن ويوضع بجانبها لتسمح باللبن ، فاذا شمت بأناقها عرفت أنه ليس ابنها . والشاعر هنا يشبه نفسه حين يشرب الخمر صرفا فيقطب جبينه للذعها وشدة حرارتها بهذه الناقة حين تشم جلد الحوار المحشو فتلوى رأسها نافرة .

(٣) حرق نابه من باب نصر وضرب سحقه حتى يسمع له صريف .

(٤) الشول جمع شائل وهي الناقة التى تشول بذنبها أى ترفعه طلباً للقاح . المعى على البناء للمفعول المتعب المكدود .

(٥) صكوا على شارب أى حملوا على خطة صعبة ، شبهها بالناقة الشارب وهي الكبيرة المسنة . الحصاء التى لا وبر لها . الهلب شعر الذنب .

ويشبه الحقد بالجرب الذى يزول عن ظاهر الجلد ولكنه يكمن تحته
ويذشر بعد حين

إن الضغينة تلقاها وإن قدمت كالعرى يكمن حيناً ثم ينتشر
فلو أن جملاً نطق فزال شعراً ما اجتمع له من التشبيهات والصور أكثر
ما اجتمع للأخطل فى شعره من ذكر الإبل

والأخطل بعد هذا يتخذ مثله الفنية من فحول الجاهلين ؛ فينشئ بعض
قصائده على نهجهم مثل قصيدته .

بانت سعادٌ فى العينين المملول من حبها وصحيحُ الجسم مخبول^(١)
فهر يعارض بها قصيدة كعب بن زهير المشهورة فى مدح النبى ، ويتأثر
فيها ببعض ألفاظ الأعشى فى مطولته (ودع هريرة) يقول فيها

غراء فرعاء مصقولٌ عوارضها كأنها أحورُ العينين مكحول
وهو مأخوذ من بيت الأعشى :

غراء فرعاء مصقولٌ عوارضها تمنى الهوى نى كما يمشى الوحى الوحل^(٢)
وهو فى قصيدته .

ألم تعرض فتسأل آل هو وأروى والمدة والربابا
متأثر بقصيدة الأعشى :

عرفت اليوم من تياً مقاما بجوى أو عرفت لها خياما

(١) المملول بضم الميم المكحول الذى يكتحل به . أراد أنه مكتحل بالسهر .
(٢) غراء بيضاء ، فرعاء طويلة الفرع وهو الشعر . المعوارض الأسنان . الوحى
الذى يشتكى حافره فيكون مشيه متثاقلاً . الوحل الذى يمشى فى الوحل . وهو تشبيه
خشن لانه يشبه صاحبه المتمله فى سيرها بدابة تشكو حافرها وتمشى فى الوحل .

في مثل قوله :

وقد قالت مُدْرَلَةٌ إِنَّ قَلْبِي
أراك كبرت والصدغين شابا
فإن يك رَيْقِي قد بان مِنِّي
فقد أروى به الرِّسْلَ اللهابا
فهو مأخوذ من قول الأعشى :

وقد قالت قَتِيلَةٌ إِذ رَأَتْنِي
أراك كبرت واستحدثت خُلُقًا
فإنْ تَكِ لِمَتِّي ياقَتْلُ أَضَحَتْ
وَأَقْصَرَ باطِلِي وَصَحْوَتُ حَتَّى
كأنْ لَمْ أَجْرِ فِي دَدَنٍ غَلَامًا^(١)
فإنْ دَوَائِرُ الْأَيَّامِ يُفْنِي
تتابع وقعها الذِّكْرُ الحساما

وهو يعتمد كذلك في قصيدة (عفا واسط) على كثير من صور الأعشى .
ثم هو بعد ذلك يكثر من وصف الناقة والصحراء في مدائحه ، ويسلك في
ذلك مسلك الجاهلين ، الذين يشبهونها بحمار الوحش أو الثور ، وينصرفون
عن الناقة إلى هذا الثور أو ذاك الحمار ، ليصوروا نشاطه في الصحراء ، وما
يلقى من عنت الصائد ، وقسوة الريح والمطر . وينتهون آخر الأمر إلى القول
بأن ناقتهم تشبه هذا الموصوف ، في نشاطها وقدرتها على تخطي العقبات ،
وفيما نالها من إعياء بسبب الرحلة إلى الممدوح . هذه الصورة تتكرر في الشعر
الجاهل ، ويتداولها الشعراء على نحو متشابه ، بتفاصيلها وأجزائها ، ليس فيها
تحويل أو تنوير . وكذلك هي في شعر الأخطل بأجزائها ودقائقها .

وتأثره بالأعشى في الخمر خاصة مشهور لا يحتاج إلى التنبيه عليه . ويكفي
أن أقدم له مثلين أو ثلاثة :

(١) البدن اللهو واللعب . أقصر باطلي ارعويت عن عبث الشباب حين كبرت .

الأعشى : تحسبُ الزُّقَ لديها مُسنداً حبشياً نام عنداً فانبطح
 الأخطل : أناخوا فجروا شاصياتِ كأنها رجالٌ من السودان لم يتسربلوا^(١)
 الأعشى : من خمر عانة قد أتى بختامها حولٌ تسُلُّ غمامةَ المزكوم
 الأخطل : وإذا تعاورت الأُكُفُ زجاجها نفحتُ فشم رياحها المزكوم^(٢)
 الأعشى : لا يستفيقون منها وهي راهنةٌ إلابهاك وإن علّوا وإن نهّلوا
 الأخطل : فما لبثتُنا نشوةٌ لحقتُ بنا توابعها مما نعلُّ وتنهّل^(٣)

لم يدم الأخطل هذا النفوذ في بلاط الأميين . فقد كثرت حوله
 الوشايات في أواخر أيام عبد الملك ، وأخذ النصارى يفقدون ما كانوا
 يستمتعون به من حرية ، فبرزت منزلاته ، وتقلص سلطانه ، حتى أصبح يلجأ
 إلى الوليد ولى العهد ، يطلب إليه التوسط فيما ناب بترمه من غرامات ذميلة .
 وضرائب فادحة لا يطيقونها :

وحاجة العيون طوى قواها شهابُ الصيف والسفر الشديد^(٤)
 طلبن ابن الإمام فتي قریش بحمص وحمص غائرة بعيد

(١) الزق جلد (قربة) يحفظ فيه الماء والخمر يتخذ في الأسفار خاصة . يشبه
 الأعشى الزق في أسواده رجل حبشى قد رقد على الأرض عارياً . ويشبهه الأخطل رجل
 عار من السودان . الشاصية هي الزق .

(٢) تسُلُّ غمامة المزكوم . وشم رياحها المزكوم هو تصوير لقوة رائحة الخمر التي
 تقتحم أنف المزكوم لأن حاسة الشم تكون عنده ضعيفة .

(٣) يقول الأعشى إنهم يوالون الشرب ولا يتوقفون عنه إلا ريثما يقول أحدهم
 للساق « هات ! » ويقول الأخطل إن نشوة الكأس السابق لا تلبث أن تسلمهم إلى
 اللاحق . لكثرة ما يشربون المرة بعد المرة . الملل الشربة الثانية . والنهل
 الشربة الأولى .

(٤) حاجة العيون غائرتها . . .

نمك إلى الرياء فحول صدق وجدَّ قَصَّرَتْ عنه الجدود (١)
 وزندك من زناد واريات إذا لم يُحمد الزند الصلود
 وإنا معشر نابت علينا غرامات ومضلعة كؤود
 وعض الدهر والأيام حتى تغير بعدك الشعر الجديد
 بدأ نجم عدى بن الرقاع في الصعورد، حتى أصبح الشاعر المقدم عند
 الوليد بن عبد الملك. وانكش الأخطل على خوف ووجل، مهدداً لا يطمع
 إلا في السلامة والعافية، لا يكاد يقدم على الخليفة، إلا في هذه المراسم التي
 يجتمع فيها الشعراء لمدحه كل عام، يركد ولاءه للأميرين، ويهدد سابق
 فضاهم عليه، معترداً عن بعده بما يخاف من وشاية الواشين، التي كادت
 — لولا فضل الوليد — تودي به، وتورده مراراً الهلكة.

بنى أمية قد أجذت فواضلكم منكم جياذى ومنكم قبلها نعى
 فهي إذا ذر كرت عندي وإن قدومت يوماً كخط كتاب الكف بالعلم
 فإن جلفت لقد أصبحت شاكرها لا أحلف اليوم من هانا على أنتم (٢)
 لولا بلاؤكم في غير واحدة إذا لقيت مقام الخائف الرزم (٣)
 أسمعتم يوم أدعو في مؤداة لولاكم شاع لحي عندها ودعى (٤)
 لولا تناولكم أياي ما علقت كفى بأرجائها القصوى ولا قدمي
 وقد علمتم وإن أصبحت نائيمكم نصحي قديماً وفعل غير متهم

(١) الرياء يقصد به هذا فعل الخير . تمام نصه ورفع . فحول صدق يقصد بهم أجداده .
 (٢) الأثم مثل طرب وفرح الكاذب . يقول لا أحلف كاذباً .
 (٣) الرزم المنقطع الدليل قليل الرهط .
 (٤) المؤداة كمعظمة المهلكة والمفازة وحفرة الميت .

لقد خشيتُ وُشاةَ الناسِ عنديكم ولا صحيحَ على الأعداءِ والكلم

ويقول من قصيدة أخرى يمدح فيها الوليد

وقد علمتُ أُميَّةُ أن ضِغْنِي إليها والعداءُ لها هزير

وأني ما حيتُ على هواها وأني بالمغيبِ لها نَصُور

وما يبقى على الأيامِ إلا بناتُ الدهرِ والكلمُ العَقُورُ^(١)

فمن يك قاطعاً قرناً فإني لفضلِ بني أبي العاصِ شَكُور

ثم يقول

ومظلمةٌ تضيقُ بها ذراعي ويتركني بها الحديبُ النصور

كفونيها ولم يتواكلوني بخُلُقٍ لا أَلَفٌ ولا عَثُورُ^(٢)

ولولا أنتم كَرِهَتْ مَعَدُّ عِضاضِي حين لاحَ بي القَتِيرُ^(٣)

ولكني أهابُ وأرنجيكُم ويأتيني عن الأسدِ الزئير

ويقول من قصيدة أخرى يشير فيها إلى إنقاذ الوليد إياه من هذه المحنة

التي كادت تودي بحياته .

إن الوليد أمينَ الله أنقذني وكان حصناً إلى منجاته هزبي

إنيته وهمومي غيرُ نائمةٍ أخابُ الحذارِ طويدَ القتلِ والهرب

(١) الكلم العَقُور يعني شعر الهجاء الذي يجرح المهجوع . بنات الدهر مصائبه .

(٢) الألف الضيق الخلق الذي بالأمور . العثور الكثير السقوط .

(٣) القَتِير الشيب ، وأصله رءوس مسامير الدرع .

فَأَمَّنَ الْفَسَّ مَا تَخْشَى وَمَوَّهَا قَدَّمُ الْمَوَاهِبِ أَنْوَائِهِ الرُّغْبِ (١)

وَبُتِّ الوَطْءُ مِنِّي عِنْدَ مُضْلَعَةٍ حَتَّى تَحْطِئَهَا مُسْتَرْخِيًا لَبِي (٢)

وبمثل هذه النهاية المحزنة ، تطوى حياة هذا الشاعر الكبير ، الذى ألقى
 عمره ، وبذل شعره ، فى تثبيت ملك الأمرين ، والدفاع عن سياستهم ، وهجاء
 أعدائهم ، فخلق فى سماء الشهرة حتى بلغ أقصى ما يطمع فيه شاعر من نمرود ،
 ثم هبط من حلق ، فبات مجفوا خائلا ، يشكر متذلا ، بعد أن كان يهدر
 بالفخر مزهوا فى السنوات الأولى من ملك الوليد .

(١) القدم الكثيرة يقال قدم له وقم له إذا أعطاه وآكثر . النوء المطر استعاره للعطاء يقال طلب نوءه أى عطاءه . الرغب الكثيرة الواسعة .

(٢) اللب ما يشد في صدر الدابة أو النائة يكون للرحل والسرّج يمنعها من التأخر ، مسترخياً لبي يتصد به ثابتاً جناحي مطمئناً .

الهجاء الشخصي

هذا الفن الذي عرفناه ضئيلاً قليلاً الخطر في العصر الجاهلي ، قد نضج وتقدم في القرن الأول ، حتى أصبح من أظهر فنون الشعر وأجلها خطراً . وكان العراق بنوع خاص موطناً لهذا الفن ، فلانكاد نعرف شاعراً من شعرائه لم يأخذ منه بنصيب . وما أكثر ما يجد قارئ الأغاني هذه العبارة في تراجم شعراء العراق في هذا القرن (وكان هجاء خبيث اللسان) يقول في عينة بن مرداس الملقب بابن فسوة : هجاء خبيث اللسان بذيء ، كان فاحشاً كثير الشر وكان لا يزال يأتي أمراء البصرة فيمدحهم فيعطونه ويخافون لسانه ^(١) . ويقول في الوليد بن حنيفة الملقب بابن حزاية : شاعر بدوي حضر وسكن البصرة ، وكان شاعراً راجزاً فصيحاً خبيث اللسان هجاء ^(٢) ويقول في عبد الله بن الزبير الأسدي : شاعر كوفي المنشأ والمولد وهو أحد الهجائين للناس المرهوب شرهم ^(٣) . ويقول في الحكم بن عبدل : شاعر مجيد مقدم في طبقة هجاء خبيث اللسان ، ومنزله ومنشأه السكوفة ^(٤) . وأمثال هؤلاء الشعراء كثير لا نحب أن نطيل باستقصائهم وتبصيرهم .

وكان الأشراف والوجهاء أكثر الناس تعرضاً لشر الشعراء ، الذين اصطنعوا أسلوب الخطيئة في التكسب بالهجاء . فقد وجدوا أن أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على الرهبة ، ولا يبالون الشاعر وإن كان مجيداً إذا لم يخافوا شره . ووجدوا أن الذين يتقونهم على عرضهم ، أكثر من الذين يرغبون إليهم في تشريفهم بمدحهم . فهم إذا هجوا رجلاً ففضحوه ، خاف غيره مثل فعلهم به ، فانقاهم بالمال والعظام . وهذا هو المهلب ، يعنف ابنه حين تعرض

(٢) الأغاني ١٩ : ١٥٢

(٤) الأغاني ٢ : ٤٠٤

(١) الأغاني ١٩ : ١٤٣

(٣) الأغاني ١٣ : ٣٣

لبعض هؤلاء الهجائين خوفاً من شره . أكل المغيرة بن حبناء يوماً مع المفضل بن المهلب فعرض بأفقه - وكان المغيرة أبرص - فقام مغضباً . وبلغ المهلب ماجرى فشتم ابنه وقال : أردت أن يتمضغ هذا أعراضنا ؟ ما حملك على أن أسمعته ما كره بعد مؤاكلتك إياه ؟ أما إن كنت تعافه فاجتنبه . ثم بعث إليه بعشرة آلاف درهم واستصفحه عن ابنه^(١) . وتعرض حبيب بن المهلب لزياد الأعجم وقد شرب فعربد عليه ، وأمر بشق قباء ديباج كان عليه . فقال زياد

لعمرك ما الديباج خرقت وحده ولكنما خرقت جلد المهلب فبعث المهلب إلى ابنه حبيب فأحضره وقال له : صدق زياد . ما خرقت إلا جلدي ، تبعث على هذا يهجوني . ثم بعث إليه فأحضره واستل سخيّمته من صدره ، وأمر له بمال وصدقة^(٢) . وبلغ من خوف الناس من شر هؤلاء الهجائين ، أن الحكم بن عبدل كان يكتب على عصاه ، ويبعث بها إلى الولاة والحكام ، فلا يرد طلبه ، حتى قال فيه يحيى بن نوفل .

عصى حكم في الدار أول داخل ونحن على الأبواب نقصى ونحجب وكانت عصى موسى لفرعون آية وهذى لعمر الله أدهى وأعجب تطاع فلا تعصى ويحذر سخطها ويرغب في المرضاء منها ويرهب وقدم الفرزدق المدينة وعليها عمر بن عبد العزيز . فقبل لعمر : إن الفرزدق قد قدم فيسأل الرجل ، فإن لم يرضه هجاه ، وإن أرضاه جهده نفسه ، وقومك والأنصار مجهودون يتجدلون . فبعث إليه من العقيق فأتاه - وكان به نازلاً - فأعطاه ألف درهم ، وقال إنك قدمت على قريش وقد جهدت ، فلا تسأل أحداً^(٣) . ومن بين هؤلاء الهجائين المحترفين ، طبقة عرفت بالتهتك والمجون وحضور التكلفة ، مثل الحكم بن عبدل والأقيشر . وكانت هذه الجماعة أكثر

(٢) الأغاني ١٤ : ١٠٣

(١) الأغاني ١٦ : ١٦٦

(٣) ديوان الفرزدق ٣٦٠

الهجائيين رهبة في صدور الناس ، لأنهم لا يتورعون عن شيء ، ولا يبالون ما يقولون . فهم يخوضون في أخش السباب وأكثره بدامة ، مفصلين في ذلك أفدع تفصيل وأقذره . وهجاؤهم مع ذلك أشبه بالنادرة الطريفة ، التي تصادف من النفس ارتياحاً وتشوقاً لسماعها ، وتعلقاً بحفظها وراويتها في الأسمار . ثم هو يتميز بسهولة الألفاظ ، وخفة الأوزان ، التي تبين على ذبوعه وانتشاره . ومن هنا كانت خطورته ، وشدة خوف الناس منه . أتى الحكم ابن عبدل الأسدي محمد بن حسان بن سعد التميمي - وكان على خراج الكوفة - فكلمه في رجل من العرب أن يضع عنه ثلاثين درهماً من خراجه ، فقال : أما نى الله إن كنت أقدر أن أضع من خراج أمير المؤمنين شيئاً . فانصرف عنه وهجاه بقصيدة طويلة بدأها بقوله :

رأيتُ محمداً شرهاً ظلوماً وكنت أراه ذا ورع وقصد

يقول أماتنى ربى خداعاً أمات الله حسان بن سعد

ولم يزل ابن عبدل يطيل فيها ويضيف إليها حتى مات . واشتهرت أبياتها وذاعت بين الناس ، حتى إن كان المكارى ليسوق بغله أو حماره فيقول : عد . أمات الله حسان بن سعد . فاذا سمع ذلك أبوه قال : بل أمات الله ابني محمداً ، فهو عرضنى لهذا البلاء في ثلاثين درهماً^(١) .

ومما يصور روح الفحش الغالبة على شعرهم ، هذه الأبيات التي هجا بها الأقيشر امرأة من العباديين محتالة اسمها أم حنين . فقد قصد يوماً إلى بيت الخمار الذي كان يأتيه فلم يصادفه ، فجعل ينتظره . فزعمت له امرأة من العباديين اسمها أم حنين أنها زوج الخمار ، فأخذت منه درهمين فهربت بهما . فراح يهجوها أخش هجا وأقذره . وكان بما قال فيها :

عاهدتُ زوجها وقد قال إنى سوف أغدو لحاجتى ولدينى

فدعت كالحصان أبيض جلدًا وافر الأير مرسل الخصيتين

قال ما أجر ذا هُدَيْتِ فقالت سوف أعطيك أجره مرتين

فابدأ الآن بالسفاح فلما سافحته أرضته بالآخرين

تلها للجبين نم امتطاهها عالم الأير أفجج الحالبين

بينما ذاك منهما وهي تحوى ظهره بالبنان والمعصمين

جاءها زوجها وقد شام فيها ذا انتصاب موثق الأخدعين

فتأسى وقال ويلٌ طويل لحنين من عار أم حنين

فجاء حنين الخمار فقال : يا هذا ما أردت بهجائي وهجاء أمي ؟ قال : أخذت مني درهمين ولم نعطني شيئاً . قال - والله ما تعرفك أمي ولا أخذت منك شيئاً قط - فانظر أمي فإن كانت هي صاحبتك غرمت لك الدرهمين . قال : لا والله ما أعرف غير أم حنين . ما قالت لي إلى ذلك . ولا أهجو إلا أم حنين وابنها . فإن كانت أمك فإياها أعني . وإن كانت أم حنين أخرى فإياها أعني . قال : إذا لا يفرق الناس بينهما . قال : فما عليّ إذا ؟ أترى درهمي يضيعان ؟ فقال له : هلم إذا أغرمهما لك وأقم ما تحتاج إليه ، ولا بارك الله لك ^(١) .

هذا الفحش الذي يمنع اليوم من إذاعة مثل هذا الشعر وتداوله ، هو نفسه الذي كان يدعو في تلك الأيام إلى ذبوعه وتناقله ، فقد كان ملائماً لأذواق ذلك العهد الحشنة الفظة ، وكان على ما فيه من تفصيل قدر ، غاية في البراعة وقوة التصوير . ولولا أن ما اشتمل عليه من الفحش لا يحتمل التفصيل والتحليل ، لعرضنا لبعض نواحيه .

وبما يصور الدعابة الغالبة على هجائهم ، هذه الأبيات التي يقرؤها ابن عبدل في امرأة من همدان تزوجها ثم كره صحبتها . وهي شبيهة بأبيات الأقيشر

السابقة في أم حنين . فكلاهما يذهب في هجائه مذهب القصة ، ويسوقه في صورة حوار .

أعاذلتي من لومٍ دعاني أقلا اللوم أن لم تعذراني
فإني قد دُلْتُ على عجز مبرقة مخضبة البنان
تغضن جلدُها واخضر إلا إذا ما ضُرِّجت بالزعفران
فلما أن دخلت وحادثتي أظلتني بيوم أرنوان^(٢)
تحدثني عن الأزمان حتى سمعتُ نداءً حرَّ بالأذان
فقلت قد نكحت اثنتين شتى فلما صاحباني طلقاني
وأربعةً نكحتهم فماتوا فليت عريف حيّ قد نعاني
وقالت ما تِلَادُك قلت مالى حمارٌ ظالعٌ ومزاداتان
وبورى وأربعة زُيوف^(١) وثوبا مفلس متخرقان^(١)
وقطعة جُلَّة^(٢) لا تمر فيها ودنًا عومة متقابلان
فقلت قد رضيت فَمَكِّمُ ألفاً ليسمع ما تقولُ الشاهدان
ومالك عندنا ألفٌ عتيد ولا تسعُ تُعدُّ ولا ثمان
ولا سبعٌ ولا ستٌ ولكن لكم عندى الطويلُ من الهوان

وقد كانت دعايتهم هذه من أثقل الأشياء على الولاة والأشراف ، وأكثرها إزعاجاً لهم . ولى الشرطة رجل أعرج ، ثم ولى الإمارة آخر أعرج وخرج ابن عبدل - وكان أعرج - فلقى سائلاً أعرج ، وقد تعرض للأمير يسأله . فقال :

(١) البورى الحصير المنسوج من القصب . أربعة زيوف يقصد أربعة دراهم زائفة

(٢) الجلة القفة الكبيرة تتخذ للتمر

ألقى العصا ودع التخامع والتمس عملاً فهدى دولة العرجان
لأميرنا وأمير شرطتنا معاً ياقومنا لكليهما رجلاً
فاذا يكون أميرنا ووزيرنا وأنا فإن الرابع الشيطان
فبحث إليه الأمير بمائتي درهم وسأله أن يكف عنه .

وقد نشأ على يد هذه الطائفة من بحان الهجائيين نوع من الهجاء القصير
اللاذع الذي لا يتجاوز البيتين أو الثلاثة . وهو هجاء خفيف الروح ، سهل
الألفاظ ، يعتمد على الصنعة الهزلية المضحكة ، كان قصره أوكد لذيوعه
وخطورته ، وثقل وقعه على المهجو . قيل للفرزدق — ما اختيارك للقصار ؟
قال : لأني رأيتها أثبت في الصدور ، وفي المحافل أجول . وقيل للحطيئة :
ما بال قصارك أكثر من طوالك ؟ قال : لأنها في الآذان أوج ، وفي أفواه
الناس أعلق^(١) . وهذا النوع من الهجاء القصير ، شبيه بما كان يعرف عند
اليونان واللاتين بال . (epigram)

خطب رجل من تميم امرأة من بني أسد ، ولم يزل يسأل عن حسنها
وأمراتها ، حتى سأل الأقيشر . فقال فيه :

حضر موت فتشت أحسابنا وإلينا حضر موت تنتسب

أخوة القرد وهم أعمامه برئت منكم إلى الله العرب

وتولى السكوفة رجل من تميم ، فأنكسر المنبر من تحته ، فقال :

أبني تميم ما لمنبر ملككم ما يستقر قراره يتمرمر

إن المنابر أنكرت أستاذكم فادعوا خزيمة يستقر المنبر

وكان لابن عبدل جارية سوداء ، وكان يميل إليها فولدت له ابناً أسود ،

فقال فيه :

فقال ابن عبدل : ما لمنبر ملككم ما يستقر قراره يتمرمر (١)

فقال ابن عبدل : ما لمنبر ملككم ما يستقر قراره يتمرمر (٢)

يارب خال لك مسود القفا لا يشمكى من رجله مس الحفا
 كأن عينيه إذا تشوفا عينا غراب فوق نيق أشرفا
 وخطب امرأة يقال لها أم رياح فلم تتزوجه ، ففضحها بقوله :
 ولا خير في الفتیان بعد ابن عبدل ولا في الزواني بعد أم رياح
 ف... بحمد الله ماض مجرب وأم رياح عرضة لنكاحي
 فتحامها الناس ، فما تزوجت حتى أسنت .

ودخل ابن عبدل على عمر بن يزيد الأسدي وهو يأكل بطيخاً — وكان
 بخيلاً — فسلم فلم يرد عليه السلام ، ولم يدعه إلى الطعام ، فقال فيه :

في عمر بن يزيد خلتما دكسي بخل وجبن ولولا (...) سادا
 جئناه يأكل بطيخاً على طبق فما دعانا أبو حفص ولا كادا
 ويقول الفرزدق في هجاء رجل يتهمة بالبخل اسمه عقبة بن جيار .

لو أن قدراً بكت من طول ما حبست

عن الحفوف بكت قدراً ابن جيار^(١)

ما مسها دسم مذ فض معدنها

ولا رأت أعدى بعد عهد القين من نار^(٢)

وبرز في هذا العصر لون آخر من ألوان الهجاء الشخصي عرف بالنقائض
 وتبادل فيه شعراء ذلك القرن السباب ، على نحو لم يعرف من قبل . وكان
 محور هذا الفن ومداره شعراء العصر الثلاثة المتقدمون ، جرير والفرزدق
 والأخطل . ودخل بينهم عدد كبير من الشعراء ، أحصى منهم صاحب الأغاني

(٢) القين الحداد

(١) الحفوف قلة الدسم

تسعة عشر شاعراً معروفاً من عصرهم ، في معرض قصة ساقها في لقاء جرير للحجاج ، وسأله إياه عن خبر الشعراء الذين هجأهم ^(١) . وانشغل الناس بأمرهم والتحزب لهم ، والسؤال عما أحدثوا من هجاء ، وما أجاب به كل منهم ، ينقض هجاء خصمه ويرد عليه ، حتى لقد اختلف الناس في عسكر المهلب وهم يقاتلون الخوارج على أيهم أشعر ، فسألوا فيه بعض جند الخوارج من الأزارقة ، حين أبى المهلب أن يقول فيهم شيئاً خروفاً من شرهم ^(٢) . وكان الفرزدق وجرير يأتیان النبائل في مساجدهم فينشدانهم من شعرهما . وكان أحدهما إذا سمع أن خصمه قد أتى قبيلة في مسجدها فأنشدها من شعره ، أسرع للإنشاد في نفس المسجد . وربما تعصبت القبيلة لصاحبه فتمنعه الإنشاد ، كما فعل بنو الهجيم ، حين أذنوا للفرزدق أن ينشد في مسجدهم ، ومنعوا جريراً أن يفعل مثله حين علم بخبره ^(٣) . وصار الهجاء جل هم هؤلاء الشعراء ، حتى كان أحدهم يمدح الخليفة من الخلفاء ، أو الوالي من الولاة ، فلا يخلو مدحه من هجاء خصمه والتعريض به ، وحتى أضاف جرير إلى قصيدته المشهورة في رثاء زوجته (لولا الحياء لها جنى استعبار) هجاء صاحبيه الفرزدق والأخطل . ولم يسلم من الانشغال بأمرهم وتتبع نمائضهم الخلفاء والأمراء بل والفقهاء . بعث بشر بن مروان برسول إلى جرير ، يسأله أن يجيب عن شعر سراقه البارقي ، الذي يفضل فيه الفرزدق ، فلم يهرح الرسول حتى أخذ قصيدة جرير ، فقرئت في العراق ، وأحفم سراقه فلم ينطق بعدها بشيء من منافضاته ^(٤) . وروى ابن سلام أن سعيد بن المسيب قال لعبد الرحمن بن حرملة حين ورد عليهم هجاء جرير والتميم : تروى مما قال شيئاً . فأتاه عبد الرحمن وقد استقبل القبلة يريد أن يكبر ، فقال له : أرويت شيئاً ؟ قال : نعم . فأقبل عليه بوجهه . فأنشده للتميم وهو يتول : هيه هيه . ثم أنشده لجرير : فجعل يتول : أكله

(٢) الأغاني ٨ : ٤٢

(٤) الأغاني ٨ : ٦٨

(١) الأغاني ٨ : ١٥

(٣) الأغاني ٨ : ٥٢

أكله^(١). وكان إقبال الناس على شعرهم ، واهتمامهم بهجاءهم . داعية لإغراء معظم شعراء عصرهم أن ينهجوا نهجهم . فجواس بن قطة يهاجى جميل ابن معمر^(٢) . وتميم بن أبي بن مقبل يهاجى النجاشى . والنجاشى يهاجى عبدالرحمن ابن حسان بن ثابت^(٣) . وعبد الرحمن بن حسان يهاجى عبدالرحمن بن الحكم^(٤) . وشبيب بن البرصاء يهاجى عقيل بن علفة^(٥) . وأبو جلدة يهاجى زياد الأعجم . وزياد الأعجم يهاجى المغيرة بن حبياء^(٦) . والمغيرة بن حبياء يهاجى أخاء صخر بن حبياء^(٧) . وصخر النخعي يهاجى أبا المثلث^(٨) . وأبو النجم يراجز العجاج^(٩) .

اشتعل العراق بالهجاء والمناقضات حتى تجاوزته إلى الأقطار الأخرى ، فكان جرير والفرزدق يلهبان هذا الفن وينشطانه حينما ذهبوا ، حتى لقد قدم الوليد المدينة وبها جرير وعمر بن لجأ يتهاجيان ، فأمر بهما فضربا وأقيما على والبلس^(١٠) . وكان جلدتهما بسبب قصيدة جرير التي يبدأها بقوله :

يا تيم تيم عدى لا أبا لكم لا يوقعنكم في سوءة عمر
وكان أخفش ما قاله جرير فيها — وهو عجيب في حكاية ألفاظ النساء ، على مافيه من إغراق في الفحش .

تقول والعبء مسكينٌ يُجرُّها أرفقُ فديتك أنت الناكح الذكر
ولم تكن العداوة وحدها هى الدافع إلى الهجاء والمنافسة فى كل الأحيان . فقد كان جزء كبير من هذه المناقضات يعتمد على المهارة الفنية ،

(٢) الأغاني ١٩ : ١١٢

(١) ابن سلام ١٥٣

(٤) الأغاني ١٣ : ١٥٠

(٣) ابن سلام ٥٦

(٦) الأغاني ١١ : ١٦٢

(٥) الأغاني ١١ : ٩٣

(٨) الأغاني ٢ : ٢٩٨

(٧) الأغاني ١١ : ١٦٨

(١٠) الشعر والشعراء ٢٣٣

(٩) الأغاني ٢٠ : ٢٠

(١٠) البلس غرأر كبار يجعل فيها التبن ويشهر عليها من ينكل به ، وينادى عليه .

ويهدف إلى السبق والتفوق من الناحية الشعرية الخالصة . وقد كان الفرزدق وجريز على ما بينهما من خصومات مريرة ، يتبادلان فيها أشنع الهجاء وأفحش السباب ، يلتقيان عند الأمراء والخلفاء ، ويترافقان في الرحلة ، فلا يكون بينهما إلا ما يكون بين الصديقين . وربما خرجا مرتدفين على ناقة واحدة ، كما يحدثنا ابن خلكان ، في بعض رحلاتهما إلى هشام بن عبد الملك ، وهو يومئذ بالرصافة ^(١) بل لقد شفع جريز في الفرزدق عند هشام ، حين كتب إلى خالد القسري عامله في العراق ، يأمره بحبسه لعريضة به في قوله .

يُقَلَّبُ عِينًا لَمْ تَكُنْ خَلِيفَةً مَشْوَةً حَوْلَاءِ بَادٍ عِيوبَهُمَا
دخل جريز يومذاك على هشام فقال — يا أمير المؤمنين إنك تريد أن تبسط يدك على بادي مضر وحاضرها . فأطلق لها شاعرها وسيدها الفرزدق . فقال له هشام : أو ما يسرك أن أخزاه الله ؟ قال : ما أريد أن يخزيه الله إلا على يدي . فأمر هشام بإطلاقه ^(٢) . وتبادل جريز والأخطل الهجاء وليس يعرف أحد منهما صاحبه ، حتى التقيا عند عبد الملك بن مروان ^(٣) . ولقي ابن ميادة ابن هرمة فقال له : والله لقد كنت أحب أن ألقاك ، لا بدأن نتهاجى ، وقد فعل الناس ذلك قبلنا . ^(٤) فالتهاجى والتناقض هنا مباراة أدبية ، وليس ناجما عن عداوة ولا هو مرجبا لها ، إلا بمقدار ما يكون بين متنافسين على السبق . وربما استطعنا أن نتصوره إذا قرناه بما نعرف في الأندية الشعبية من تبارى رجلين في النكته بما يعبر عنه (بالدخول في آفة) وتزداد هذه الحقيقة وضوحاً كلما أمعن القارئ في دراسة شعر النقائض . فالشعراء يكثرون من الفخر بقوة شعرهم ، وبتفوقهم الفنى الذى لا يجارى ، وبشدة وقع شعرهم على أعدائهم وخصومهم ، وما يتاح لهذا الشعر من ذبوع يذهب به إلى أقاصى الأرض .

(٢) العقد الفريد ٦ : ١٧٣ .

(١) ابن خلكان ٣ : ١٥١ .

(٤) الأغاني ٤ : ٣٦٩ .

(٣) الأغاني ٧ : ٦٩ .

يقول جرير في هجاء النيرى :

أعد الله للشعراء منى صواعق يخضعون لها الرقابا

أنا للبازي المظل على منبر أُنحِتْ من السماء لها انصبابا

إذا علقت محالبه بقرنٍ أصاب القلب أوهك الحجابا

ويقول :

رجوتم يا بنى وقبانٍ موتى وأرجو أن تطول لكم حياتى

إذا اجتمعوا على نخلٍ عنهم وعن بازٍ يصكُّ حُبَارِيَاتِ

ويقول للبعيث :

وعاوى عوى من غير شيء رميته بقافية أنفادها تقطري الدما

وإني لقوالٌ لكل غريبة ورؤدٍ إذا السارى بليل ترنما

خروجٍ بأفواه الرواة كأنها قرى هندوانى إذا هزَّ ضمما

ويقول للفرزدق :

إن القصائد قد جدَّعن مجاشعاً بالسم يلحم نسجها ويُنار

ولقوا عواصى قد عييت بنقضها ولقد نُقضتْ فما بك استمرار

قد كان قومك يحسبونك شاعراً حتى غرقت وضمك التيار

ويقول الفرزدق لجرير :

لن تدركوا كرمى بلؤم أبيكم وأوابدى بتنحل الأشعار

ويقول له :

إن كان قد أعيأك نقضُ قصائدى فانظر جرير إذا تلاقى الجمع

ويقول معيراً إياه ضعف شعره زاعماً أنه سباب ليس من الفن فى شيء :

أطلب يا حمار بنى كليب بعانتك اللهم — لميم — الرغابا

وتعدل دارماً بيني كليب وتعديل بالمفظة السببا
ويقول :

غلبتك بالمفقه والمعنى وبيت الحنبي والخافقات

وهو يقصد بذلك قصائده التي يقول في إحداها

ولست وإن فقت عينك واجداً أبا عن كليب أو أبا مثل نهشل
ويقول في أخرى :

وإنك إذ تسعى لتدرك دراما لأنت المعنى ياجرير المكلف
ويقول في ثالثة :

بيتاً زارة محتب بفنائيه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
ويقول في رابعة :

وأين تقضى المالكان أمورها بحق وأين الخافقات اللوامع
ويبدو من هذا البيت أن الفرزدق كان يسمى قصائده ، كما يبدو ذلك
أيضاً من بيته في تقيضته المشهورة (إن الذي سلك السماء) حيث يسميها الفيصل :
إن التي فقتت بها أبصاركم وهي التي دمغت أباك الفيصل
وكان جرير والفرزدق يتواقفان بالمربد ، وينشد كل منهما تقيضته
إزاء صاحبه^(١).

وربما أوحى الظروف والموقف لأحدهما بشعر مرتجل لم يكن قد فكر
فيه من قبل ، كما نعرف من تقيضة جرير .

أقل اللوم عاذل والعتابا وقولى إن أصبت لقد أصابا

وما كان من تغطية الفرزدق لرأسه ، حين بلغ جرير قوله (ترى برصاً
بأسفل إسكستينها) متوقفاً أن الشطر الآخر من البيت لا بد أن يصيبه .
فلم يلبث جرير أن قال : (كعنقفة الفرزدق حين شابا) .

وكان الشعراء المتناقضون ، يتربص بعضهم ببعض ، فلا يكاد أحدهم
يصيب من صاحبه سقططة ، حتى يسجلها عليه ، ويشنع بها مبالغاً في تصويرها .
يشكرو الأخطل من إيقاع الجحاف يتومه حين يقول :

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعةً إلى الله منها المشتكى والمعول
فيقول له جرير :

بكي دويل لا يرقئ الله دمه ألا إنما يبكي من الذل دويل
وينمخش الفرزدق في بض شعره وهو مقيم بالحجاز ، فينفيه عمر بن
عبد العزيز وإلى الحجاز وقتذاك ، فيقول جرير :

نفاك الأغر ابن عبد العزيز وحقك تنفى من المسجد
ويهب بعض السادة جارية لجرير ، فتمل عيشه الحشن ، ويقول فيها جرير :
تكلفني معيشة آل زيد ومن لي بالمرقق والصناب^(١)
وقالت لا تضم كضم زيد وما ضمي وليس معي شبابي !
فلا يلبث الفرزدق أن يعيره بقوله :

فإن تفرقك عِلْجةُ آل زيد ويعوزك المرقق والصناب^(٢)
فقدماً كان عيش أهلك مرا يعيش بما تعيش به الكلاب
وكانت مهارة الهجاء تركز في إدراكه لوجه النقص البارز في خصمه ،

(١) المرقق نوع من الفطائر . الصناب لون من الطعام يتخذ من الحردل والزبيب

(٢) فركت المرأة زوجها من باب نصر وطرب كرهته . العليج من ليس عرييا .

وقدرته على الافتنان والتصرف في استخراج مختلف الصور وألوان الدعابة
الساخرة منه . فهجاء جرير للأخطل يدور في معظمه حول نصرانيته . فكل
صوره من الخمر والصليب والجزية ، المفروضة على أهل الذمة .
يقول له :

قبح الإله من الصليب إلهه واللابسين برانس الرهبان
والتابعين جريجسا وبنييه والتاركين مساجد الرحمن
والذابحين إذا تقارب فصحمهم شهب الجلود خسيصة الأثمان
من كل ساجي الطرف أعصل نابه في كل قائمة له ظلفان
تغشى ملائكة الإله قبورنا والتغلي جنازة الشيطان
يُعطي كتاب حسابه يشمله وكتابنا بأكفنا الأيمان
ويقول له :

الضاربون على النصارى جزية وهدى لمن تبع الكتاب ونورا
إنا نسود في الحياة حياتنا ويسود من دخل القبور قبورا
الله فضلنا وأخرى تغلبا لن تستطيع لما قضى تغييرا
الباعثين برغم آف تغاب في كل منزلة عليك أميرا
أفبالصليب ومار سرجس تتقى شهباء ذات كتائب جمهورا^(١)
أم الأخطل بالرحوب إذا انتشت علقّت بشقشقة العجان هديرا
لقحت لأشهب في الكناسة داجنا خنزيرة فوالدا خنزيرا^(٢)

(١) مار سرجس قديس نصراني كانت تغلب تتخذ شعارا لها في الحروب

(٢) يتهمها بأنها قد أتت بالأخطل من خنزير لامن أيه . أشهب في الكناسة داجنا

يعني خنزيرا

وَلَدَ الْأَخِيطَلُ أُمَّهُ مَخْمُورَةٌ قَبْحًا لَذِكْ شَارِبًا مَخْمُورًا

ويقول له :

رويدكم مسح الصليب إذا دنا هلال الجزى واستعجلوا بالدراهم^(١)

وهجاء جرير للفرزدق يدور حول ما زعم من أن أجداد كانوا يحترفون الحدادة . فكل صوره من النار والحديد والشرر والدخان والكبر وأدوات الحدادة والرقيق الذين يتخذونهم لهذه الصناعة وما يتهم به نساءهم من ميل لهؤلاء العبيد .

فانفخ بكيرك يافرزدق إننى فى باذخ لمحل بيدك عال

يارب معضلة دفعنا بعد ما عى القيون بحيلة المحتال

مابال أمك إذ تسربل درعها ومن الحديد مفاضة سربالى

حمت وجهك فوق كيرك قائما وسقيت أمك فضلة الجريال^(٢)

فانفخ بكيرك يافرزدق وانتظر فى كرنباء هدية القفال

ويقول :

حدراء أنكرت القيون وريحهم والحر يمنع ضيمه الإنكار

لما رأت صدا الحديد بجلده فاللون أوزق والبنان قصار

قال الفرزدق رقى أكيارنا قالت وكيف ترقع الأكيار

رقع متاعك إن جدى خالد والقين جدك لم تلدك نزار

(١) الجزى جمع جزية وهى الضرائب التى كان يؤديها أهل الكتاب (اليهود والنصارى) للدولة مقابل حمايتهم .

(٢) الجريال الجزر

ويقول :

فدينك يافرزدق دينُ ليلى تزور القينَ حجًا واعتارًا^(١)

فذل القين بعد نكاح ليلى يُطِيرُ على سبالكُم الشرار^(٢)

وهجاء الفرزدق لجريز يدور حول نقرهم واصطناعهم الحمر في تنقلهم وهو دليل الذلة لأن السادة يركبون الخيل والإبل . وهو يتمادى في ذلك إلى أغرب ألوان الخيال وأخششه ، فيتصور رجاءهم وقد هجروا مضاجعهم إلى الآن ، ويتخيل ما يكون من غيرة نسائهم من هذه الآن التي تنافسهن على أزواجهن .

يقول له .

يا ابن المراغة كيف تطلب دار ما وأبوك بين حمارة وحمار

هلا غداة حبستُم أعياركم بجدود والخيْلان في إعصار^(٣)

والخوفزان مسوّم أفراسه والمحصنات حواسرُ الأبصار

يدعون زيد مناة إذ وليتُم لا يتقين على قفًا بخمار

قبح الإله بنى كليب إنهم لا يغدرون ولا يفنون لجار

يستيقظون إلى نهاق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار^(٤)

(١) ليلى أم الفرزدق . تهمها بالعبث الذين كان يتخذهم حد الفرزدق للحدادة . ويقول له إنك تشبهها .

(٢) السبال شعر الشاربين واللحية .

(٣) جدود يوم كان بين الخوفزان (وهو من بكر بن وائل) وبين بني يربوع (قوم بزي) . وحديثه مفصل في النقائض ج ٢ ص ٣٢ - ٣٥ .

(٤) يعجب لهم . كيف يوقظهم نهاق الحمار ، ثم لا يوقظهم دم قتالهم الذي يصرخ طلبا للشار . الأوتار جمع وترو وهو النار .

تلقى فوارسنا إذا ريقتم متلبين لكل يوم عوار^(١)
ويقول له :

لعمري لقد قالت أمانة إذ رأت جريرا بذات الرقتين تشنعا^(٢)
أُكتفل^(٣) بلرقم إذ أنت واقف أتانك أم ماذا تريد لتصنعا
رأيتك تغشى كاذتيها ولم تكن أتركب إلا ذا السحوج الموقعا
دعت يا عبيد بن الحرام ألا ترى مكان الذي أخزى أباك وجدعا
أأعيا عليك الناس حتى جعلت لي خليلا يعاديني وآتته معا
وهجاء المغيرة بن حبناء لزياد الأعجم يدور حول فارسيته ، فهو عالج
مستضعف مجهول النسب ألكن لا يقيم لهجة . وليس بناته إلا ولائد لم يجر
عليهن موسى في ختان^(٥) .

يقول له :

أزياد إنك والذي أنا عبده مادون آدم من أب لك يعلم
فالحق بأرضك يا زياد ولا ترم ما لا تطيق وأنت عالج أعجم
أظننت لؤمك يا زياد يسده قوس سترت به قفاك وأسهم
علاج تعصب ثم راق بقوسه والعلاج تعرفه إذا يتعم
ألق العصابة يا زياد فإنما أخزاك ربي إذ غدوت تركم

(١) الربق بكسر الراء جبل فيه عدة عرى يشد به الهم . فكل عروة ربة .
وربق بالتشديد جبل الرأس في الربة . يقول إن قوم جرير رعاة لا يصلحون
للقتال .

(٢) أمانة زوجة جرير . ذات الرقتين أتانه . تشنع هم بأمر شنيع قبيح
(٣) أكتفل الدابة ركب كفلها وهو مؤخرها ، الكاذتان أعلى الفخذين . ذوالسحوج

الموقع الاتان يريد آثار الدبر في ظهورها

(٤) الأغاني ١١ : ١٦٦

وَأَعْلَمُ بِأَنْكَ لَسْتُ مَنِي نَاجِيَا إِلَّا وَأَنْتَ بِيْظَرِ أُمِّكَ مُلْجَمُ
تَهْجُو الْكَرَامَ وَأَنْتَ الْأُمُّ مِنْ مَشَى حَسْبًا وَأَنْتَ الْعَلَجُ حِينَ تَكَلَّمُ
وَلَقَدْ سَأَلْتُ بَنِي نَزَارٍ كُلَّهُم وَالْعَالَمِينَ مِنَ الْكُهُولِ فَأَقْسَمُوا
بِاللَّهِ مَا لَكَ فِي مَعْدِنِ كُلِّهَا حَسْبُ وَأَنْكَ يَا زِيَادَ مَوْذَمُ
وَيَقُولُ لَهُ :

فَأَصْبَحْتَ عَلْجًا مَنِ يُزْرَكُ وَمَنْ يُزْرُ بِنَاتِكَ يَعْلَمُ أَنَّهُنَّ وَلَائِدُ
وَأَصْبَحَنْ قُلْفًا بَغْتَزَلَنْ بِأَجْرَةٍ حَوَالِيكَ لَمْ تَجْرَحْ بِهِنَ الْخَدَائِدُ
نَفَرَنْ مِنَ الْمَوْسَى وَأَقْرَرَنْ بِالَّتِي يُقَرُّ عَلَيْهَا الْمُقْرِفَاتُ الْكُوَاثِدُ
بِاصْطَخَرٍ لَمْ يَلْبَسَنَّ مِنْ طَوْلِ فَاكَةٍ جَدِيدًا وَلَا تُلْقَى لَهُنَ الْوَسَائِدُ
وَمَا أَنْتَ بِالْمَنْسُوبِ فِي آلِ عَامِرٍ وَلَا وَلَدَتِكَ الْمُحْصَنَاتُ الْمَوَاجِدُ
وَلَا رِبَّتِكَ الْخَنْظَلِيَّةُ إِذْ غَدَتِ بَنِيهَا وَلَا جَيْبَتُ عَلَيْكَ الْقَلَائِدُ
وَلَكِنْ غَذَاكَ الْمَشْرُكُونَ وَزَا حَمَتِ قَفَاكَ وَخَدِيكَ الْبُظُورُ الْعَوَارِدُ
وَلَمْ أَرْ مِثْلِي يَا زِيَادَ بَعْرَضِهِ وَعَرْضِكَ يَسْتَبَّانُ وَالسَيْفُ شَاهِدُ
وَلَوْ أَنِّي غَشَّيْتُكَ السَّيْفُ لَمْ يَقُلْ إِذَا مَتَّ إِلَّا مَاتَ عَلِجٌ مُعَاهِدُ

كان الجانب الأكبر من نزائض جرير والفرزدق منافسة أدبية كما قدمنا. ولذلك حرص الشاعر حين يجيب على نقيضة خصمه أن تكون إجابته من نفس البحر والروى، حتى تظهر مزية السبق لأحدهما على الآخر. والظاهر أن الإجابة من نفس البحر والروى كانت قاعدة مقررة في الموازنة بين شعر الشعراء. فقد كان النقاد منذ عصر امرئ القيس، إذا أرادوا أن يوازنوا بين شاعرين، وازنوا بينهما في شعر متحد في الغرض وفي الوزن والقافية. وقصة

علمتة الفحل مع امرىء القيس ، حين احتمل إلى زوجته ، أشهر من أن نحتاج إلى ذكرها . وهى قرينة الدلالة على هذا الأصل من أصول النقد القديم . وقد أخذ شجره النمائض فى هذا القرن أنفسهم بتميد جديد ، هو محاولة الإجابة على أبيات الخصم ونتمضها بيتاً بيتاً ويكفى فى ذلك أن نقدم مثلين من قصيدة الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول
ونقيضة جرير :

لمن الديار كأنها لم تحل بين الكناس وبين طلح الأعزل
فأول ما نلاحظ فى النقيضتين كثرة اشتراك القوافى فيهما . فنقيضة جرير تشترك فى قوافى أبياتها مع ثلاثة وثلاثين بيتاً من قصيدة الفرزدق ، مع أن مجموع أبياتها ثلاثة وستون بيتاً . وجرير يتتبع فى نقيضته معانى الفرزدق ، فيجيب عليها بنفس الطريقة والأسلوب ، مقابل الفخر بفخر ، والصورة بهصورة ، والحوار بحوار .

يقول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنا لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول^(١)
بيتاً بناه لنا المليك وما بنا حكم السماء فإنه لا ينقل
بيتاً زرارة محتب بفنائيه ومجاشع وأبوا الفوارس نهشل^(٢)

(١) سمك السماء رفعها . السمك بفتح السين وسكون الميم . السقف . أعز وأطول

يعنى من بينك

(٢) زرارة ومجاشع ونهشل كلها من بيوت درام (ودارم من تميم) ، والفرزوق من مجاشع ثم من دارم (راجع شجرة انساب تميم) الاحتباء أن يجلس الرجل على الأرض ثانياً ساقية وقد شدها إلى ظهره بمهامته أو نطاقه أو نجاد سيفه أو نحو ذلك ليطمئن فى جلسته . والفرزوق يكنى به هنا عن السيادة والاطمئنان والحلم .

لا يَحْتَجِي بَفَنَاءِ بَيْتِكَ مِثْلَهُمْ أَبَدًا إِذَا عُدَّ الْفَعَالُ الْأَفْضَلُ

فِيحْيِيهِ جَرِيرٌ عَنِ الْبَيْتَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ بِقَوْلِهِ :

إِنْ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتًا عَلَكَ فَمَالَهُ مِنْ مَنَقَلٍ

أُخْرَى الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ مَجَاشِعًا وَبَنَى بِنَاءَكَ فِي الْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ

بَيْتًا يَحْمُ قَيْنُكُمْ بَفَنَائِهِ دَنِسًا مَقَاعِدُهُ خَبِيثَ الْمَدْخَلِ

وَيَحْيِيهِ عَنِ الْبَيْتَيْنِ الثَّالِثِ فِي نَخْرِهِ يَنْهَشِلُ — وَهُمْ مِنْ زَيْرٍ قَوْمِهِ لِأَنَّهُ مِنْ

مَجَاشِعَ — بِقَوْلِهِ :

أَعَيْتَكَ مَآثِرَةُ الْقِيُونِ مَجَاشِيعَ فَانْظُرْ لَعَلَّكَ تَدَّعَى فِي نَهْشِلِ

وَيَحْيِيهِ عَنِ الْبَيْتِ الرَّابِعِ الَّذِي يُشِيرُ فِيهِ إِلَى احْتِبَائِهِمْ بِفَنَاءِ بَيْتِهِمْ —

يَكْنَى بِذَلِكَ عَنْ عَزَمِهِ — بِقَوْلِهِ :

قَتَلَ الزُّيَيْرُ وَأَنْتَ عَاقِدُ حُبُورَةٍ تَبًّا لِحُبُوتِكَ الَّتِي لَمْ تُجَلَّلْ^(١)

وَيَقُولُ الْفَرَزْدَقُ :

وَإِذَا دَعَوْتُ بَنِي فُقَيْمٍ جَاءَنِي مَجْرُؤُهُ لَهَ الْعَدَدُ الَّذِي لَا يُعْدَلُ

وَإِذَا الْبَرَاغِمُ بِالْقُرُومِ تَخَاطَرُوا حَوْلِي بِأَغْلَبِ عَزِهِ لَا يَنْزِلُ

فِيحْيِيهِ جَرِيرٌ :

وَأَمْدَحُ سَرَاةَ بَنِي فُقَيْمٍ إِنَّهُمْ قَتَلُوا أَبَاكَ وَثَارَهُ لَمْ يُقْتَلْ^(٢)

(١) هُوَ الزُّيَيْرُ بْنُ الْعَوَامِ الصَّحَابِيُّ كَانَ مِنَ الْخَارِجِينَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مَعَ طَلْحَةَ وَعَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ . وَقَدْ زَعَمَ جَرِيرٌ أَنَّهُ كَانَ جَارًا لِلنَّعْرَبِينَ زَمَامَ الْمَجَاشِعِيِّ فَقَتَلَ فِي جَوَارِهِ . وَهُوَ يَقُولُ لَهُ : قَتَلَ جَارَكُمْ وَأَنْتُمْ مَطْمَئِنُّونَ لَا تَتَحَرَّكُونَ وَلَا تَحْلُونَ الْحُبُورَةَ نَاهِضِينَ لِأَغَاثِهِ .

(٢) بَنُو فُقَيْمٍ مِنْ دَارِمٍ فَهُمْ أَبْنَاءُ عِمٍّ مَجَاشِعَ قَوْمِ الْفَرَزْدَقِ (رَاجِعِ الشَّجَرَةَ) مَجْرٍ جَيْشٍ كَبِيرٍ :

ودع البراجيم إن شرربك فيهم مرّة عواقبه كطعم الخنظل
ويقول الفرزدق :

وهب القصائد إلى النوابع إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجروّل
وأخو بني قيس وهن قتلنه ومهايل الشعراء ذاك الأول^(١)
فيجيبه جرير :

حسب الفرزدق أن تُسبَّ مجاشع ويعدّ شعر مرقش ومهلل
ويقول الفرزدق :

إنني ارتفعت عليك كل ثنية وعلوت فوق بني كليب من عل^(٢)
فيجيبه جرير :

إني انصيب من السماء عليكم حتى اختطفتك يافرزدق من عل
ويعير الفرزدق جريراً أمه حيث يقول :

وتركت أمك ياجرير كأنها للناس بركة طريق^(٣) معمل
ويمضي في تفصيل الصورة ممعنا في الفحش .

فيجيبه جرير معيراً بأخته (جعثن) :

بات الفرزدق يستجير لنفسه ويجرّ جعثن كالطريق المعمل
ثم يقابل تفصيل الفرزدق في الفحش بتفصيل مثله .

(١) النوابع النابغة الذبياني والنابغة الجعدي ونابغة بني شيبان . أبو يزيد هو الخنظل ، ذو القروح أسرو القيس . جروّل هو الجطيئة . أخو بني قيس طرفه ابن العبد . هن قتلنه يعني القوافي .

(٢) الثنية الطريق .

(٣) طريق معمل مستعمل تدوسه الأقدام .

ويقول الفرزدق :

حُلِّكُ الملوِكُ لباسُنَا في أهلنا والسابغاتِ إلى الوغى تتسربل
أحلامنا تزنُ الجبالَ رزانةً وتخالنا جنًّا إذا ما نجمل

فيجيبه جرير :

لا تذكروا حلل الملوِكِ فإنكم بعد الزبير كحائضٍ لم تُغسل
أبلغُ بني وَقَبَانَ أن حلومهم خفت فما يزنون حبة خردل
ويحتكم الفرزدق إلى دغفل الدَّسَّابة في أنه أكرم من جرير أخوالا
حين يقول :

أوصى عشيَّةً حين فارق رهطه عند الشهادة والصحيفة دغفلُ
أن ابنَ ضَبَّةٍ كان خيراً والداً وأتمَّ في حسب الكرام وأفضلُ^(١)
فيرد عليه جرير محتكما إلى قريش في أن قومه أكرم .

فارجع إلى حكمي قريش إنهم أهل النبوة والكتاب المنزل
فاسأل إذا خرج الخدام وأجشَّتْ حرب تضرَّمُ كالخريق المشعل^(٢)
ابنو طُهيَّةٍ يعدلون فوارسي وينو خضاف وذاك ما لم يعدل
ويفتخر الفرزدق بأخوله من ضَبَّةٍ قائلا :

يا ابن المراغة أين خالك إنني خالي حُبَيْشٌ ذو الفعّال الأفضّل
خالي الذي غصب الملوِكُ نفوسهم وإليه كان حِبَاءُ حَفْنَةٍ يُنْقَلُ^(٣)

(١) بنو ضَبَّةٍ إخوة تميم وهم أخوال الفرزدق .

(٢) الخدام الخلاخيل . خرج الخدام يعني وقت الفارة إذا فرغ النساء .

(٣) الحباء العطاء . آل جفنه هم الفساسنة ملوك الشام . وكان حبّيش بن دلف خال الفرزدق قد أسر أحدهم وجز ناصيته ثم أطلقه على أن يبعث إليه كل عام بحبائه من غير أن ينتقل إليه .

فيجيبه جرير :

كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله مثل الذليل يعوذ تحت القرمل^(١)
واخر بضبة إن أمك منهم ليس ابن ضبة بالمعلم المخلول
ويفتخر الفرزدق بقومه في الدروع والسيوف حين يقول .
يمشون في حلق الحديد كما مشت

جربُ الجبال بها الكحيلُ المشعل^(٢)

يُحْيِي إِذَا أَخْطَرَطَ السِّیُوفُ نِسَاءَنَا

ضربُ تخزٍ له السواعد أرعل

فيجيبه جرير بأنه إنما يحسن وصف السيوف لأنه حداد ابن حداد ، فهم
يصنعون السيوف ، ولكن غيرهم يارب بها .

تصف السيوف وغيركم يعصى بها

يا ابن القيون وذاك فعلُ الصَّيقل^(٣)

ويشير الفرزدق إلى أن جرير فيتهمه ويتهم أباه بها .

هلا سألت بني غدانة ما رأوا حيث الأتانُ إلى عمودك تُرحل

كسرت نذيتك الأتانُ فشاهدُ منها فيك مبيِّنٌ مستقبلُ

رحمتك حين عجلت قبل وداقها لكن أبوك وداقها لا يعجل^(٤)

(١) القرمل شجر ضعيف لا شوك له .

(٢) الكحيل القطران تطلّى به الابل إذا أصيبت بالجرب . يشبه قومه لكثرة

ماعليهم من الحديد بالابل المطلية بالقطران .

(٣) الصيقل الذي يصقل السيوف .

(٤) الثانية من الأسنان الأربع التي في مقدم الفم ، ثنتان من فوق وثنان من أسفل .

والظاهر أن أسنان جرير الامامية كانت ساقطة ، فزعم الفرزدق أن الاثنان قد رحمتها
برجليها الخلفيتين فكسرتها . الوداق طلب الفحل .

فيحييه جرير مشيراً إلى اشتغالهم بالحدادة ، ويتهم أمه بقين من قيونهم
أسمه نبتل .

ألهى أباك عن المكارم والعلی لی السكتائف وارتفاع الرجل
ولدت قفيرة قد علمتم خبثه بعد المشيب وبظرها كالمجل
أشركت إذ حمل الفرزدق خبثه حوض الحمار بليلة من نبتل (١)
وكثيراً ما كان يبدو للشاعر أن ينقض أبياتاً من رد خصمه ، ثم يضيفها
إلى قصيدته . فنحن نجد في قصيدة الفرزدق هذه أبياتاً يرد بها على نقيضة
جرير التالية لها . ولا شك أن مثل هذه الأبيات قد ألحقها الفرزدق بنقيضته
بعد أن سمع رد جرير وذلك مثل قوله .

يبكى على دمن الديار وأمه تعلو على كمر العبيد وتسفل
فهو رد على ما ابتدأ به جرير قصيدته من الوقوف بالأطلال .

لمن الديار كأنها لم تحلل بين الكناس وبين طلع الأعزل
ومنه قول الفرزدق :

أسألتني عن حبوتي ما بالها فاسأل إلى خبري وعمّا تسأل
فاللوم يمنع منكم أن تحببوا والعز يمنع حبوتي لا تحلل
والله أثبتها وعز لم يزل مقعنساً وأبيك ما يتحول
وهو رد على بيت جرير :

قتل الزبير وأنت عاقد حبوة تبأ لحبوتك التي لم تحلل

(١) قفيرة أم الفرزدق . أشركت يخاطبها بذلك فيقول إنك قد جئت بالفرزدق من
غالب أبيه (حوض الحمار) ، ومن نبتل العبد . فكلها أبوه . وهما مشتركان فيه .

وتبدو هذه الظاهرة بشكل أوضح في قصيدة جرير المشهورة التي رثى بها زوجته .

لولا الحياءُ لهاجنى استعبار ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يزَارُ
فالرثاء فيها ينتهى عند البيت الثانى والعشرين ، ثم ينتقل الشاعر إلى هجاء
الفرزدق ، حتى يبلغ بالقصيدة سبعة عشر بيتاً فوق المائة . والواقع أن جريراً
رثى زوجته ، فنقص عليه الفرزدق الرثاء ، متشماً بمصيبته ، مهاجماً زوجته
الفقيدة ، فى غلظة قاسية ، لا تصدر إلا عن رجل فظ جاف كالفرزدق . ثم
رد جرير على الفرزدق ، وألحق الرد بالرثاء ، فبدأ رثاؤه غريباً على القارىء
الذى لا يكاد يتصور أن شاعراً حزيناً منكوباً فى زوجته ، يحد فى نفسه الفراغ
للخوض فى مثل هذا الهجاء الخبيث المفحش . ودارس النقيضتين يجد ذلك
واضحاً لا شك فيه . وفى نقيضة الفرزدق أبيات يتشمت فيها بمصيبة جرير ،
ويهجو زوجته ، وهى رد على الجزء الخاص بالرثاء من قصيدة جرير . على أن
الشرط الهجائى من نقيضة جرير كلة رد على نقيضة الفرزدق .
يبدأ جرير مرثيته بقوله :

لولا الحياءُ لهاجنى استعبار ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يُزارُ
ولقد نظرتُ وما تمتعُ نظرةً فى اللحد حيثُ تمكَّنُ المحفَرُ
فجزاكِ ربُّكِ عن عَشِيرِكِ نظرةً وسقى صدائكِ مجلجلٌ مِدْوَارُ
وهى أبيات تقطر حزناً ووفاء . وهى من أجمل ما قيل فى الرثاء صدقا
وروعة . ولكن الفرزدق ، ذلك الشاعر الفظ ، لا يتورع عن اغتنام هذه
الفرصة لهجاء جرير ، فيجيب عن هذه الأبيات بقوله .

إن الزيارةَ فى الحياقر ولا أرى مَيِّتاً إذا دخل القبورَ يُزارُ

ويعمضى فى الرد ، متصورا نظرة جرير الحزينة إلى زوجته ، نظرة خبيثة
نقيض بالإثم فهو لا يبكى فيها إلا شهوته .

ولقد هممت بسواة وفعلتها فى اللحد حيث تمكن المحفار
أبعد ما أكل الضباع رحيبها تدرى الدموع أهانك القهار^(١)
ورثيتها وفضحتها فى قبرها ما مثل ذلك تفعل الأخيار
وجرير يقول فى مرثيته :

كانت مكرمة العشير ولم يكن يخشى غوائل أم حزة جار
فيجيبه الفرزدق :

كانت مناقفة الحياة وموتها خزي علانية عليك وعار
وجرير يقول :

صلى الملائكة الذين تخيروا والصالحون عليك والأبرار
فيجيبه الفرزدق :

قال الملائكة الذين تخيروا والمصطفون لدينه الأخيار
أبكى الإله على نبيته من بكى جدفاً ينوح على صده حماد^(٢)

وبعد ، فجرير يبدأ الجزء الهجائى التالى للثناء من نقيضته بقوله :

أفام حزة يا فرزدق عبت غضب المليك عايكم القهار

ويعمضى فى الإجابة على أبيات الفرزدق ، مقابلا الفخر بفخر ، والحوار
بحوار ، والصورة بصورة ، والفحش بفحش مثله . فالفرزدق يلج فى نقيضته
على أتن جرير ، ويفتن فى استخراج الصور البالغة فى البراعة والفحش معا ،

(١) الرقيب عوة المرأة .

(٢) النبيثة التراب الذى يخرج من القبر إذا حفر .

فيقول له : فيم بكاؤك على زوجتك ، ولك منها في الآن خير خلف ؟ فاذهب إلى أبيك يخطب لك أحداً من ... ثم ينصحه متهكماً يتخير الأبدان .
وجرير يعدل هذه الصورة ، التي يفتن فيها الفرزدق في تصوير الحر ، بصورة مثلاً ، يفتن فيها في تصوير القين . فليس في قبر أبيه إلا أدوات الحدادة ، كتيغ وكاتبان وميشار ، وليس يذكر أبوه بخير إلا إذا تصدع مرجل ، أو كسرت قدر ، فقد كان خير من يصلحها . وخذراء ، زوج الفرزدق ، قد أنكرت القيون وريحهم . (والحرُّ يمنعُ ضيمه الإنكار) . ويمضي في تصور ما يكون بينه وبينها من حوار ، إذ يطلب إليها ترقيع أكياره ، فتجيبه غصبي بأنها لا تحسن ذلك ، فجدها خالد لم يكن حدادا . وهي غاضبة على قومها الذين زوجها من (قينٍ أحَمَّ لَفَسَوِهِ إعصار) ، فجمعوا عليها بين الاغتراب عن أهلها ، والذل الذي تلقاه في بيت زوجها . ثم يتهم جرير أمَّ الفرزدق وبنات الجمل وبق وهو لقب مجاشع — بالعبيد من قيونهم ، ويخص منهم عبداً اسمه جبير ، بادئاً ذلك بقوله .

سَبُّوا الحمارَ فسوف أهجو نِسوةً للكيَرِ وسطَ بيوتهن أوار
ومن الخصائص الجديدة على فن الهجاء في النقائص ، هذا الأسلوب القصصي الذي ابتدعه جرير والفرزدق ، وبرعا فيه براعة ظاهرة ، لا ينض منها إلا إمعانها في الفحش البذيء ، الذي تنفر منه النفس في كثير من الأحيان ولكنها مع نفورها من هذا الواقعية العارية ، التي تلتقط ما دتها من الوحل والأقذار ، لا تتمالك من الإعجاب بدقته الحية في التصوير ، وتسلسل الحوار على نحو بالغ في محاكاة الطبيعة . ونحن نكتفي في التمثيل لهذا الأسلوب بما قد مناه فيه غناء .

ولم يبق إلا أن نلاحظ على هذه الطبقة من المحترفين للهجاء ، ما أشرنا إليه في مقدمة هذا البحث ، من أن معظمهم قد دفع إلى هذه الاتجاه ، نتيجة

إحساسات مكبوتة ، أو دوافع مستترة ، هي شعور بالنقص في معظم الأحيان وشعور بالاضطهاد أو التفوق في أحيان أخرى . فالمتبوع لأخبارهم يجد أن معظمهم قد أحاط بذنائبه شيء من النقص الذي يغض من قدرهم ، ويهون من أمرهم على الناس ، ويحقرهم في أعينهم ، وأنهم يصطنعون الهجاء ليكسبهم رهبة في عيون الناس . ونحن نقدم بعض الأمثلة ؛ مما نعرف عن نشأة بعض الهجائين ، الذين جاء ذكرهم في هذا الفصل .

كان جرير من أسرة فقيرة مغمورة . وكان قيثا^(١) وُلِدَ لسبعة أشهر . وكان عاقا لأبيه ، لأنه ساخط على الظروف التي جاءت به إلى الدنيا عن طريق هذا الرجل الحامل المغمور ، الذي لا يجد فيه شيئا يستطيع أن يفخر به . حتى لقد استعار منه مرة فحلا يطرقه في إبله ؛ فلما استغنى عنه ، جاءه أبوه في بَتٍّ خلق يسترده ، فدفعه إليه قائلا . هذا (تَرَدُّ إلى عطية^(٢) تُعْتَل) وهو بذلك يشير إلى بيت الفرزدق فيه .

ليس الكرامُ بناحليكَ أباهُمُ حتى تُرَدُّ إلى عطية تُعْتَل
وكان الفرزدق بشع المنظر ؛ فوجهه غليظ جهم القسما ، لا يشبهه إلا غلظ طبعه . وهو على جهامته وضخامة قسامته ، منقَرٌّ من آثار الجدرى . ومن أجل ذلك لقب بالفرزدق ، وهو الرغيف الضخم . وكان مع هذا غليظا قصيرا أصلع ، كما يفهم من شعر جرير فيه ، حين يسميه (القُرَيْدُ الأصلع) وحين يقول فيه .

لقد ولدتُ أمُ الفرزدق فاجراً فجاءت بوزوازٍ قصيرِ القوائم
وكان يجمع إلى كل هذا ، شعورا بالتفوق في النسب ، يبلغ به حد الجنون

(١) القميء الضئيل الجسم .

(٢) عطية هو والد جرير .

وكان الأخطل نصرانيا مغمورا في بلد إسلامي . وكان في طفولته مهملا من زوج أبيه ، يذوق آلام الحرمان ، ويعاني كثيرا من التضييق ، الذي جعله متمردا منذ نشأته ، يلتمس السبيل للظهور بالإفحاش على الناس ، حتى لقب بالأخطل — والأخطل انسرع إلى البذاءة والسفاهة —

وكان الأقيشر أحمر الوجه أقشر . وكان أبغض الأشياء إلى نفسه أن يناديه الناس بهذا اللقب ، لأنه يذكره بما يكره من نفسه ، وما يحس من نقصه ودماثة منظره . وقد خلق منه هذا الشعور هجاء فكها ، بارع النكتة والدعابة . وكان مع هذا فقيرا ، يستدين ولا يبالي من أي وجه اقترض ، ويمدح بدرهمين وثلاثة ، وكان عنيينا ، لا يأتي النساء .

وكان المثيرة بن حبناء أبرص ، وكان من أسرة خاملة ليس فيهم إلا مبتلى بأفة عظيمة ، فأخوه صخر بن حبناء أعور ، وأخوه الآخر مجذوم ، وأبوهم مصاب بالحبس ، وهو داء في البطن يعظم منه ويرم ، وهو مرض الاستسقاء . وكان الحكم بن عبدل أعرج أحذب ، لا تكاد تفارقه عصاه .

وكان معظم الموالى الذين ظهروا في هذا العصر هجائين ، كما سنبين في فصل نفرد له هجائهم .

هؤلاء رجال قد فشلوا في أن يحتلوا مكانتهم في الهيئة الاجتماعية ، عن طريق حب الناس لهم ، واحترامهم إياهم لأشخاصهم ، فهم يحتلون هذه المكانة بالإرهاب والتهديد .

ف. الهجاء في النقائص

نقائص جرير والفرزدق والأخطل هي أشهر ما عرف الأدب العربي في هذا الفن وأطولها . وليست هذه النقائص هجاء خالصاً ، فهي خليط من فنون الشعر التي عوفها الأدب في ذلك الحين ، فيها نغز وفيها مدح وفيها نسيب وفيها وصف للبادية ونبأها وحيوانها ، وهي في ذلك تتمشى مع ما عرف عن القصيدة العربية ، من تنقلها بين شتى الأغراض .

ولم يكن الهجاء هو الغرض الأساسي في كل القصائد التي اشتملت عليها النقائص ، فقد كان الشاعر ينشئ قصيدته في بعض الأحيان لغرض آخر غير الهجاء ، فلا يلبث خصمه أن ينقضها . والأمثلة على ذلك كثيرة منها لامية الأخطل :

عفا واسط من آل رضوى فنبتل فجمع الحرين فالصبر أجمل

فهو لم يذكر فيها جريراً ولم يعرض له . وإنما أنشأها في مدح خالد بن عبد الله بن أسيد . بدأها بالوقوف على الأطلال ، وشبه نفسه في ذهوله بالتمل وانتهز هذه الفرصة فتخلص إلى الخمر وأطال ، ثم انتقل إلى وصف الصحراء ووحشتها وقسوتها على المسافر فيها ، وما لقيت ناقته من تعب ، وما تعرض له معها من أهوال في سبيل الوصول إلى ممدوحه ، فلم يصل إليه إلا وقد فرغ من نصف قصيدته غزلاً وخمراً ووصفاً . ثم صرف بقية قصيدته في الإشادة بممدوحه ، ولم يكذب يخرج في ذلك عما أنف العرب في مدح السادة والقواد . وقد كان يمكن أن تمر القصيدة بسلام من غير أن تسترعى انتباه جرير ، لولا أن الأخطل قد عرض في نهايتها لوقعة الجحاف ببني تغلب في يوم البشر ، وعاتب بني مروان في ذلك عتاباً عنيفاً ، وحملهم جريرة هذا اللص الخارج

القانون ، وألزمهم ماضع من دماء قومه ، وكاد يصفهم بأشنع ما يوصم به
عربي من انتهاك جواره ، ملوحا بقوة قومه بما يشبه التهديد .

فسائل بني مروان ما بال ذمة وحبل ضعيف ما يزال يُوصَل

بنزوة لص بعد ما مرّ مصعب بأشعث لا يُفَلِّي ولا هو يُغسل

أأمرك الجحاف ثم أمرته بجيرانكم وسط البيوت تقتل

لقد كان للجيران ما لو دعوتهم به عاقل الأروى ألتكم تنزل

فإن لا تغيرها قريش بملكها يكن عن قريش مستأثر ومرحل

وتعزُر أناساً عرّة يكرهونها ونحي كراماً أو نموت فنقتل

وقد نهت هذه الآيات الأخيرة جريراً ، فنقض عليه قصبده ، متشمتاً

بما لقي التغاويون على يد الجحاف وقومه ، معيراً الأخطال بكاءه وضعفه عن

الانتصار بغير قريش ، الذين هم في حقيقة الأمر أبناء عمومة القيسية ،

لأنهم مضرية :

بكا دَوْبَلٌ لا يُرقى الله دمه ألا إنما يبكي من الذل دويل

جزعت ابن ذات الفلّس لما تداركت من الحرب أنيابُ عليك وكلكل

فإن لا تعلق من قريش بذمة فليس على أسياف قيس معول

لنا الفضل في الدنيا وأنفك راغم ونحن لكم يوم القيامة أفضل

ومن أمثلة ذلك أيضاً فائية الفرزدق المشهورة :

عزفت بأعشاشٍ وما كدت تعزف وأنكرت من حدراء ما كنت تعرف

فقد أنشأها يحيب على شاعر الأنصار ، الذي تحداه أن يقول مثل قول

حسان (لنا الجففات الخُرُّ يلعن بالضحى) . وهي قصيدة طويلة تزيد على

مائة بيت ، لم يعرض فيها جرير ، كلها نخر بنفسه وبقومه . ولكن جريراً
نقضها عليه بفائتيه :

ألا أيها القلب الطروب المكلف أفقُ ربما ينأى هواك ويُسعِف
فاضطر الفرزدق أن يلحق بتصيدته أبياتا لاتزيد على العشرين ، يرد بها
على جرير . ومن أمثلته كذلك رائية جرير ، التي رثى بها زوجته :
لولا الحياء لهاجنى استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار
وهي اثنان وعشرون بيتاً . وقد نقضها عليه الفرزدق متشمتاً بمصيبته
في رائيته :

أعرفتَ بين دؤيبتين وحنبل دِمماً تلوح كأنها الأسطار
فاضطر جرير أن يجيبه ، وألحق رده برثائه الأول وأطال ، حتى بلغت
القصيدة مائة بيت وسبعة عشر بيتاً .

والواقع أن القصد إلى الهجاء ، لم يكن هو الدافع الأول إلى إنشاء هذه
المجموعة الضخمة من الشعر . فلم يكن هم الشاعر أن ينال من خصمه فحسب ،
ولكن كان همه الأول أن يجيد ويبدع ويتفوق في فنه . ولذلك فقد كان
يكلف نفسه أن يجيب على خصمه بتصيدة من نقس البحر والروى ، وهو
تكليف يضيق على الناقض السبيل ، ويظهره بمظهر المتحدى الذي يترك
لخصمه اختيار نوع السلاح الذي يريد أن يبارز به . وهذا التنافس يعجل لنا
ما نجد في النقائض من نخر كثير بالبراعة في الشعر ، وشدة وقعه ، وذيوعه
على ألسن الناس وتكرار هذا الفخر في كل مكان ، بأسلوب متشابه ، يضيق
به القارئ في كثير من الأحيان .

ونحن لا نستطيع أن نزعم أن الفن الهجائي في هذه النقائض ممتاز ، يبلغ
حد الرفعة الخالدة . وقد يكون من الظلم للنقائض ، وللعصر الذي أنشئت

فيه ، أن تقارن بغيرها من ألوان الهجاء في الأهم الأخرى ، أو تقارن بالشعر الهجائي العباسي ، كهجاء ابن الرومي والمتنبي والمعري . وإنما العدل أن تقاس هذه النقائص بعصرها وظروفها التي أحاطت بها . فهي أولا شعر بدوي ، لا يتذوقه القارئ المعاصر في سهولة ويسر ، لأنه لا يترك في نفسه صدى ، ولم يتصد به أصحابه أن يخاطبوه ، وإنما خاطبوا به قومهم ، ممن هم على شاكلتهم في البداوة ، وعلى طريقتهم في الحس والذوق . فالقارئ لا يستطيع أن يحس جماله ، إلا بعد أن يتماهى كثيراً من الملل والسأم ، ويتجلد لما تضيق به نفسه في أول الأمر ، حتى إذا أوغل في القراءة ، ومضى في الدراسة ، غمره جو هذا الشعر ، ونقله إلى قلب البادية ، وإلى صميم هذه الحياة البدائية الخشنة . وعند ذلك فقط ، يستطيع أن يتذوق شعرهم . فهو لا يتذوقه ، إلا بعد أن يتعرف إلى أصحابه ، ويصحبهم بحبة طويلة ، تخلق في نفسه شيئاً من الإلف لهذه الحياة ، ول هؤلاء الشعراء .

والنقائص من ناحية أخرى محدودة الغرض ، بحكم الظروف التي أحاطت بها ، والتي دعت إلى إنشائها . فهي شعر شخصي ، محوره الفرد ، لا يكاد يسمو إلى الحياة في أفقها الواسع العام ، ولا يكاد يتصل بالنفس البشرية ، يصورها في أطوارها المختلفة ، وحالاتها المتباينة . فالشاعر فيه يفتخر بنفسه وقومه ، والفخر ثقل على القارئ ، لأنه يصور الغرور . ويهاجم لبغضه وغيظه ، والقارئ لا يشاركه هذا الشعور بالقياس إلى المهجو . ويمدح لرغبة في مال أو جاه ، والقارئ لا يصيب من وراء ذلك شيئاً . وكل هذه الأسباب مجتمعة ، تجعل النقائص أقرب إلى الخصوص والضيق ، بعيدة عن العموم والشمول ، في الاستناد إلى عاطفة يستطيع القارئ أن يشارك فيها بنصيب كبير ، فيتجاوب مع الشاعر ، ويستجيب لشعره ، ويفنى فيه وقت قراءته . وكل هذه الأسباب أيضاً ، توضح لنا أن هناك تبايناً كبيراً في العصر والظروف ،

بين شعر النقائض ، وبين الشعر العباسي أو شعر الأمام الأخرى ، يبطل المقارنة أو المفاضلة ، ويجعلها جائرة غير صحيحة .

ولعل من الحق والقصد البعيد عن التحيز ، أن نقرر أن مثل هذا الشعر لم يعد يجتذب هواة الفن الشعري ، ممن يَشْدُون اللذة الفنية الخالصة ، والمتعة الروحية الرفيعة . ولكنه شعر المختصين من الدارسين للأدب ، والعلماء الذين لا يجد أحدهم حرجاً من أن ينفق عمراً طويلاً في دراسة حشرة تافهة ؛ أو صخرة مهملة . وليس معنى هذا أنا نسلب النقائض كل قيمة فنية ، فالواقع أن فيها نواحي كثيرة جميلة ، فهي بعض صور الإنسانية في طور من أطوارها ، ولكننا نتول إنها قد أصبحت بعيدة عن أذواق المعاصرين وأنهم لا يستطيعون أن يجدوا في الشعر نفسه لذة ، ولكنهم يجدون هذه اللذة فيما قد ينشأ حوله من دراسات ، تعتمد على التحليل والتعليل ، فتخلق فيه شيئاً من النشاط والحركة ، التي ترد إليه الحياة ، وتصله بالنفس الإنسانية ، وتقربه من قلوب المعاصرين .

ومع ذلك كله ، فللنقائض قيمتها ومكانتها عند دراسي الأدب العربي . وقيمتها ترجع إلى أسباب كثيرة . فشعراؤها الثلاثة هم أبرز الشعراء في عصرهم بغير شك . وشعرهم يمثل عصرهم جملة ، ويمثل الناحية الأدبية فيه بنوع خاص . فقد رسم الحياة في ذلك العصر بخيرها وشرها ، وصور القيم الأخلاقية والاجتماعية تصويراً دقيقاً بارعاً . وهو مع هذا سجل صادق لكثير من الحوادث التاريخية التي عاصرتها والتي سبقتها ، منذ وعى العرب تاريخهم وأنسابهم . ولهذا الناحية الأخيرة ترجع معظم قيمة النقائض عند الدارسين . وقد زاد في قيمة هذه الناحية وأعظم من قدرها ، هذا الشرح الطويل الذي ينسب لأبي عبيدة ، والذي يفصل ما عرضت له النقائض أو أشارت إليه من أيام العرب ، تفصيلاً قصصياً رائعاً ، يصور الحياة في هذه العصور البائدة تصويراً قوياً حياً .

وقد تباين شعراء النقائض الثلاثة في طريقة علاجهم للهجاء . فغلب على الأخطل منه الشعري الرصين ، الذى يعنى بالألفاظ ، ويدقق فى اختيار العبارات ، فكان فى هجائه يرضى فنة الشعري الرفيع ، بأكثر مما يستجيب لاضبه ، وللغيظ الذى يأكل نفسه . فهو لا يسف ولا يهبط إلى سباب العامة والدهماء . ولكن رصانة ألفاظه وجزالتها ، وما تضمنته من معانى شعرية ، أضفت على هجائه كثيرا من الوقار الذى حرمه روح الدعابة ، وحالت بينه وبين جمهور الناس ، الذين لا يعينهم من الهجاء إلا النكتة المضحكة ، والسخرية البارعة المسلية . ولذلك ظل الأخطل فى هجائه — كما هو فى كل شعره — شاعر خاصة كما يقول قدماء النقاد .

وأما جرير فقد غلب عليه مرحه ودعابته ، فكان مذهبه فى الهجاء قوله : (إذا هجوت فأضحك) . وكان أسهل زملائه الثلاثة وأحظاهم عند جمهور الناس . ولم يكن يتكلف فى شعره ما يتكلف صاحبا من العناء ، فهو يكتفى بما وهبه الله من طبع شعري خصب ، ومن حس فى دقيق رقيق ، ويأخذ فيض هذه المواهب ، دون أن يلح فى استنزافها ، أو استخلاص أقصى ما تحتمله من إجهاد . ولذلك بدا فى شعره عامة ، وفى هجائه خاصة ، وكأنه يتكلم فى غير قصد إلى الشعر ، فإذا هو يقول شعراً . وقد أحسن قدماء النقاد وأصابوا ، إذ وصفوه بأنه يغرف من بحر . وقد أتاحت له هذه السهولة قدرة عجيبة على الإطالة ، لم يكديجاريه فيها إلا الفرزدق ، وجعلت هجاءه أكثر ذيوعا على ألسن العامة .

أما الفرزدق فقد كان فى عامة شعره معنيا بفنه ، ولسكنه لم يكن موهوباً كجرير . ولذلك فقد كان يشق على نفسه ويجهداها ، حتى لقد وصفه القدماء بأنه ينحت من صخر . ويزيد فى إحساس القارىء بهذا الجهد العنيف الذى يبذله فى شعره ، خشونة ألفاظه وغرابتها ، التى أغرت به أصحاب اللغة والغريب .

ولكن هذه الصفة التي وسمت معظم شعره ، لم تكن واضحة في فنه الهجائي وضوحها في بقية الأغراض . فهو يجارى جريرا في تناول المعاني الهجائية من قرب ، ليستطيع أن يسايره في الإطالة والدعابة .

وليس قصدنا هنا إلى أن نتكلم عن الخصائص الهجائية لكل من هؤلاء الشعراء الثلاثة ، فقد أفردنا لكل منهم فصلا من الكتاب ، تناولنا فيه حياته وفنه بشيء من التفصيل . ولكن الذي يعنينا في هذا المقام ، أن نتكلم عن الفن الهجائي في شعر النقائض جملة ، وعن الخصائص العامة التي يشترك فيها شعراؤها الثلاثة .

فأول ما يسترعى الانتباه في هذه الخصائص العامة والابتدال . وهو ابتدال في المعاني وفي الألفاظ وفي الأخلاق جميعاً . أما المعاني فهي قريبة ، وهي في كثير من الأحيان صورة من الحياة الواقعة ، لم يخزنها الحس الفنى ، ليصفها من شوائبها ، وليضفي عليها من سحره وخياله وترفعه . فالشعر الهجائي يبدو كأنه لا يصدر عن أدنى جهد فنى . واعتقد أن هذا الدائم ، وهو اصعب في التفسير .

يقول جرير في هجاء الأخطل :

يا ابن الخبيثة ربحاً من عدلت بنا أم من جعلت إلى قيس إذا خطرنا
 قيسٌ وخندف أهلُ المجد قبلكم لستم إليهم ولا أنتم لهم خطر
 وما لتغلب إن عدت مساعيها نجمٌ يضيء ولا شمسٌ ولا قمر
 والتغلبى لثيمٌ حين تجهره والتغلبى لثيمٌ حين يختبر
 والتغلبى إذا تمت مروءته عبدٌ يسوق ركاب القوم مؤتجر
 ما كان يرضى رسولُ الله دينهم والطيبان أبو بكر ولا عمر
 جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا وهل يضير رسولَ الله أن كفروا

ويقول في قصيدة أخرى :

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد وبجبرئيل وكذبوا ميكالا
أنسيت يومك بالجزيرة بعد ما كانت عواقبه عليك نكالا
حات عليك حماة قيس خيلها شعناً عوابس تحمل الأبطالا
زفرُ الرئيسُ أبو الهذيل أبادكم فسي النساء وأحرز الأموال

ويقول الفرزدق :

زار الفرزدقُ أهلَ الحجاز فلم يحظ فيهم ولم يحمد
وأخزيت قومك عند الحطيم وبين البقيعين والغرقد
وجدنا الفرزدق بالموسمين خبيث المداخل والمشهد
نفاك الأغرُّ ابن عبد العزيز وحقك تنفى من المسجد
تقول ثوارُ فضحت النيون فليت الفرزدق لم يولد
وقالت بنى حوملٍ والرماح شهدت وأيتك لم تشهد

وكل هذا تقرير ساذج للواقع ، لا يقصد إلا إلى الإخبار والإفادة ؛
فهو خلو من كل ميزة فنية ، وليس للشاعر فيه إلا فضل النظم ، فهو يقدم
الأخبار نظماً ، بدل أن يقدمها نثراً ، في ثرثرة لا غناء فيها .

ويقول الفرزدق لجرير :

يا ابن المراغة أنت الأم من مشى وأذل من لبنائه أظفار
وإذا ذكرت أباك أو أيامه أخزأك حيث تقبل الأحجار
أنتم قرارة كل مدفع سوءة ولكل دافعة تسيل قرارُ
إني لأشتمكم وما في قومكم حسب يعادلنا ولا أخطار

وهو نظم لا يتجاوز تقرير الأشياء .

ويقول في موضع آخر :

منا الذى اختير الرجال سَمَاحَةً وخيراً إذا هب الرياح الزعازع
ومنا الذى أعطى الرسول عطية أسارى تميم والعيون دوامع
ومنا الذى يعطى المئين ويشترى الـ مغوالى ويعلو فضله من يدافع
ويمضى فى ذلك إلى أربعة أبيات أخرى ، لا يتجاوز فيها هذا الأسلوب
ولا يرتفع عنه . يقول منا الذى فعل ، ومنا الذى فعل وفعل . وهو سرد قد
يفيد أصحاب التاريخ ، ولكنه من الناحية الفنية ، يهبط بالشعر إلى مستوى
العامة فى التعبير .

ويقول :

وهب القصائد لى النوابع إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجرول
ويمضى فى سرد أسماء الشعراء ثمانية أبيات ، لاشئ فيها غير أسماء الشعراء
منظومة فيما يشبه المتون التى وضعت فى عصور متأخرة لحفظ العلوم .
ويقول لجرير :

أتى الشام يرجو أن يبيع حماره وفارسه إذ لم يجد من يبادلـه
فجاء بعددّيه اللذين هما له من اللؤم كانت أورثته ألوائـه
وقوله (اللذين هماله) تعبير لا يخطر لشاعر يعنى بفنه أن يفسد به شعره
ويقول :

أبا مالك لا بد أنى قارع لعظمتك إنى للعظام قرؤع
و (لا بد) تعبير غريب على الشعر لا يصلح إلا للنثر .

ويقول :

يهتفن أين ذوو الحمية أين هم أم من يفار فلم يجدن غيورا

هذا وقد وطئت سنبلك خيلنا زوج المراغة صاغراً مشبوراً
وربط البيتين بكلمة (هذا) ربط نثرى ، ليس من أسلوب الشعر في
شيء .
ويقول :

وليست كليب كائنين كدارم وودَّ جريرٌ لو عطية غالب
و (كائنين) حشو لا يصدر إلا عن المتعجل ، الذى لا يريد أن يتوقف
ليسوى شعره ، ولكنه لا يبالي ما يقول ، ولا كيف يستوى له النظم ، وكأنه
مدفوع إلى تحيير عدد من الصفحات فى وقت محدود ، فهو ماض إلى بلوع
أجله ، فى غير توقف أو تريث .

هذا هو ما عطينا بالعامية والابتذال فى المعانى والتعبير . أما الألفاظ فهى
فى كثير من المواضع سباب عامى مبتذل ، لا يفرق كثيراً عما نسمع من
شتائم الدهماء ، التى تتناول الآباء والأمهات ، ولا تعف عن استعمالها فى صيغها
الشعبية المسففة .

يقول الفرزدق :

إذا أنت يا ابن السكب ألقنتك نهشل ولم تك فى حلفٍ فما أنت صانع
ويقول فى موضع آخر :

تصاغرت يا ابن السكب لما رأيتنى مع الشمس فى صعبٍ عزيز معاقله
ويقول جرير :

أخت الفرزدق من أبيه وأمه باتت وسيرتها الوجيف الأرفع
وقوله (من أبيه وأمه) تؤكد عامى مأخوذ من أفواه الدهماء .
ويقول :

كانت الفرزدق شاعراً نخصيته ناك الفرزدق أمه من شاعر

أمسى الأخيطل للفرزدق ضرةً فيم المراء وقد نكحت ضرائرى
ويقول :

إذا ما كنت ملتمساً نكاحاً فلا تعدل بنيك بنى ضرار

وإن لا قيت ضبياً فنكه فكل رجالهم رخو اختار

وليس يعنيننا أن يخرج الفرزدق أو جرير عن آداب الناس في شتائمهم ،
ويشذوا عن الذوق المذهب والخلق السليم ، ولكن الذى يعنيننا هذه الألفاظ
العامية المبتذلة ، التى تنقل السباب من أفواه الدهماء كما هو ، لا عمل فيه للخيال ،
فتهبط بمستوى الصناعة الشعرية عما ينبغى له من ترفع فنى .

أما التبذل الأخلاقى فهر كثير يملأ النقائض ، لا يتمتع القارىء فيها صفحة
إلا وقع على مثال له ، وكله تفصيل بغيض للسوءات ، وأكثر ما يجده فى شعر
جرير ، حين يتهم جعثن أخت الفرزدق بالمنقرى ، أو ليل جدته بعبد لها جبير^(١) ،
ويعن فى تفصيل ما يجرى بينهم من أدق الحركات الفاضحة . والعجيب فى
الأمور والمؤلم فى نفس الوقت ، أن النقائض أخصب ما تكون فناً ، وأكثر
ما تكون افتناناً وتصرفاً ، حين تعرض لأمثال هذه الفضائح ، فى أسلوب
قصصى ، لا يفسد روعته إلا طبيعة مواضعه ، التى تحرمه على الدارسين أن
يكون موضع تحليلهم ونقدهم .

وظاهرتان أخريان تحتلان من النقائض مكاناً بارزاً ، هما تكرار المعانى
والفخر الكثير بالمقدرة الشعرية . أما التكرار فهو نتيجة طبيعية للإكثار ،
فكل واحد من الشعراء الثلاثة لا يرضى أن يسكت فىكون مغلوباً ، فليس
له بد من أن يرد . وقد طال بينهم الأمر وامتد المدى ، حتى لم يعد أمامهم إلا
أن يكرروا ما قالوا ، ويعيدوا ما أبدأوا . فجرير يعير الفرزدق أن أجداده
كانوا يصرفون بعض عبيدهم للحدادة ، فهو من بيت صناع حدادين . ويعيره

(١) لتقديم مثال على ذلك تراجع من ٣٤٩ ديوان جرير .

خبث أخلاقه ومنافاتها للدين ، فهو سكير زناء ، ويختلق على أخته صلتها بالمنقرى ، ويشنع على جدته ليلي بصلتها ببعض رقيقها الذين كانوا يستخدمونهم في الحدادة . وهي معان محدودة ، « لا يخرج عنها في كل هذه المجموعة من الشعر ، ولكنه يسوقها في قصص لا يخلو من جمال كما قلنا ، لولا إمعانه في الفحش ، ولولا ثقل التكرار على القارئ ، الذى يسمع القصة بعينها في كل قصيدة . والفرزدق لا يعير جريرا إلا ضعف نسبة وضعة أبيه . وهو يقابل اختلاق جرير على أخته باختلاق مثله ، يشنع فيه على جرير وأبيه بصلتهم بالخمر . والقارئ يسمع القصة بعينها في كل قصيدة .

ولكن اضطراب هؤلاء الشعراء إلى الإعادة والتكرار ، قد جعلهم يفتنون في هذه المعانى القليلة التى بين أيديهم ، فيخرجونها في شتى الصور ، ويولدوا منها مختلف المعانى والأخيلة ، فأحدثوا بذلك فى الهجاء لونا طريفا من القصص الهجائى ، الذى يدور على الحوار الفكاهى ، والدعابة المضحكة . وكان جرير أروع الثلاثة فى هذا اللون من القصص الهجائى . ويكاد الفرزدق يجاريه فيه ولكنه يقتصر عنه . أما الأخطل فقد كان أكثرهم تخلفا فى هذه الناحية . وكان شعره لذلك أقل الثلاثة رواجاً عند جمهور الناس ، الذى لا يعنيه من هؤلاء المتشائمين إلا النادرة الحلوة ، والنسكة المضحكة .

يولد جرير من اتخاذ أجداد الفرزدق الحدادة شتى الصور . فهو مرة يتصور جد الفرزدق فى قبره ، وقد دفنت معه آلات الحدادة وأدواتها ، من كثيف وكلبتين ومنشار ، ثم يتصور الناس وقد أنكسر لأحدهم قدر أو مرجل ، فيتذكره لأنه كان يصلحها .

سنثير قينكم ولا يوفى بها قينٌ بقارعة الطريق مثار
وُجدَ الكثيفُ ذخيرةً فى قبره والكلبتان جُمعن والمنشار
يَبْكى صده إذ تهزَمَ مرجلٌ أو إن تَلَمَّ بُرمةٌ أعشار

ومرة يتصور حدراء زوج الفرزدق ، وقد أنكرت ريحه وماعلا جسمه
القصير من صدأ الحديد ، ، ويتصور الفرزدق إذ يطلب إليها إن تصلح ما فسد
من الأكيار بترقيعه ، فتقول له إنها لا تجيد ذلك ولا تعرفه ، لأن أجدادها
من أشراف العرب ، وليسوا كأجداده أصحاب حدادة . وهى تدعو الله أن
يخلصها من هذا البلاء الذى ألقاها أهلها فيه ، مستجيذة به من شر هذا الصهر
المشؤم ، ومن جوار هذا الحداد الممتن الرائحة .

حدراء أنكرت القيونَ وريحهم والحُرُّ يمنع ضيمه الانكارُ
لما رأت صدأ الحديد يجلده فاللون أورقُ والبنان قصار
قال الفرزدق رقى أكيارنا قالت وكيف ترقع الأكيار؟
رقع مناعك إن جدى خالدٌ والقينُ جدك لم تلدك نزار
وسمعتها اتصأت بذهلي إنهم ظلموا بصهرهم النيونَ وجاروا^(١)
دعت المصور دعوة مسموعة ومع الدعاء تضرع وحدار
عاذت بربك أن يكون قرينها قينا أحمم لفسوه إعصار
وهو حينما يتهم قفيرة أم صعصعة بعبيدها الذين يشتغلون بالحدادة .
ولدت قفيرة أم صعصعة ابنها فوق المزنم بين وطى جازر
جعلت قفيرة ليلتين لهرمز والزيبان وليلة لقنابر
وبتهمها أخرى بجير عبدها .

تسوف صنان القين من ربة به ليجعل فى ثقب المحالة محورا^(٢)

(١) ذهل بن شيبان بطن من بطون بكر وهم قوم حدراء زوج الفرزدق .
(٢) تسوف تشم . ليجعل فى ثقب المحالة محورا ، هو مثل ضربة لفعله بها . المحالة
البكرة التى تكون فوق البئر ويدور عليها الجبل الذى يحمل الدلو . والمحور
الحشبة التى تدور عليها البكرة .

تُزور جبيراً مرة - وتترك أعمى ذا خيل مدثراً^(١)
ويخلج منها القين محبوكة القرى كأن بها حُما من البيض أصفراً^(٢)
ومرة يتهم ليلي جدة الفرزدق بـجبر هذا ، فيقول إن غالبا أبا الفرزدق
هو في الحقيقة ابن جبير ، وليس ابن صعصعة .

تلقى نساء مجاشع من ريمهم مرضى وهن إلى جبير نزع
ليلى التي زفرت وقالت حبذا عرق القيانة من جبير ينبع
كل الذى غيرتم أن قلم هذا لعمر أيبك قين مولع !
ويقول :

تركتم جبيرا عند ليلي خليفة أصعصع بنس القين قينك صعصعا
وما حفلت ليلي ملامة رهطها ولا حفظت سر الحصان المنعما
أبان لكم فى غالب قد علمتم نجار جبير قبل أن يتيمفا

ولذلك فهو يتصور جبيرا يهدى إلى غالب أبى الفرزدق بعض النصائح فى
صناعة الحديد :

وأوصى جبير إلى غالب وصية ذى الرحيم المجهد
فقال ارفقن بلى الكتيف وحك المشاعب بالمبرد

وهكذا تجد الشاعر يتصرف فى المعنى الواحد ، فيخلق منه صوراً فنية
متعددة ، وإن كان أصلها واحداً .

(١) جبير عبد كان لهم يشتغل بالحداثة . الأعمى يقصد به صعصعة جد الفرزدق .
الحمل القطيفة .

(٢) يخلج يجذب . القرى يفتح القاف الظهر .

أما التهديد والفخر بالمقدرة الشعرية ، وتكراره في كل مكان من النقائض فأمثلته كثيرة . يقول جرير للأخطل .

تعرضت من دون الفرزدق محلبا فما كنت منصورا ولا على الكعب
تصليت بالنار التي يصطلي بها فأرداك فيها وافتدى بك من حربى
ويقول :

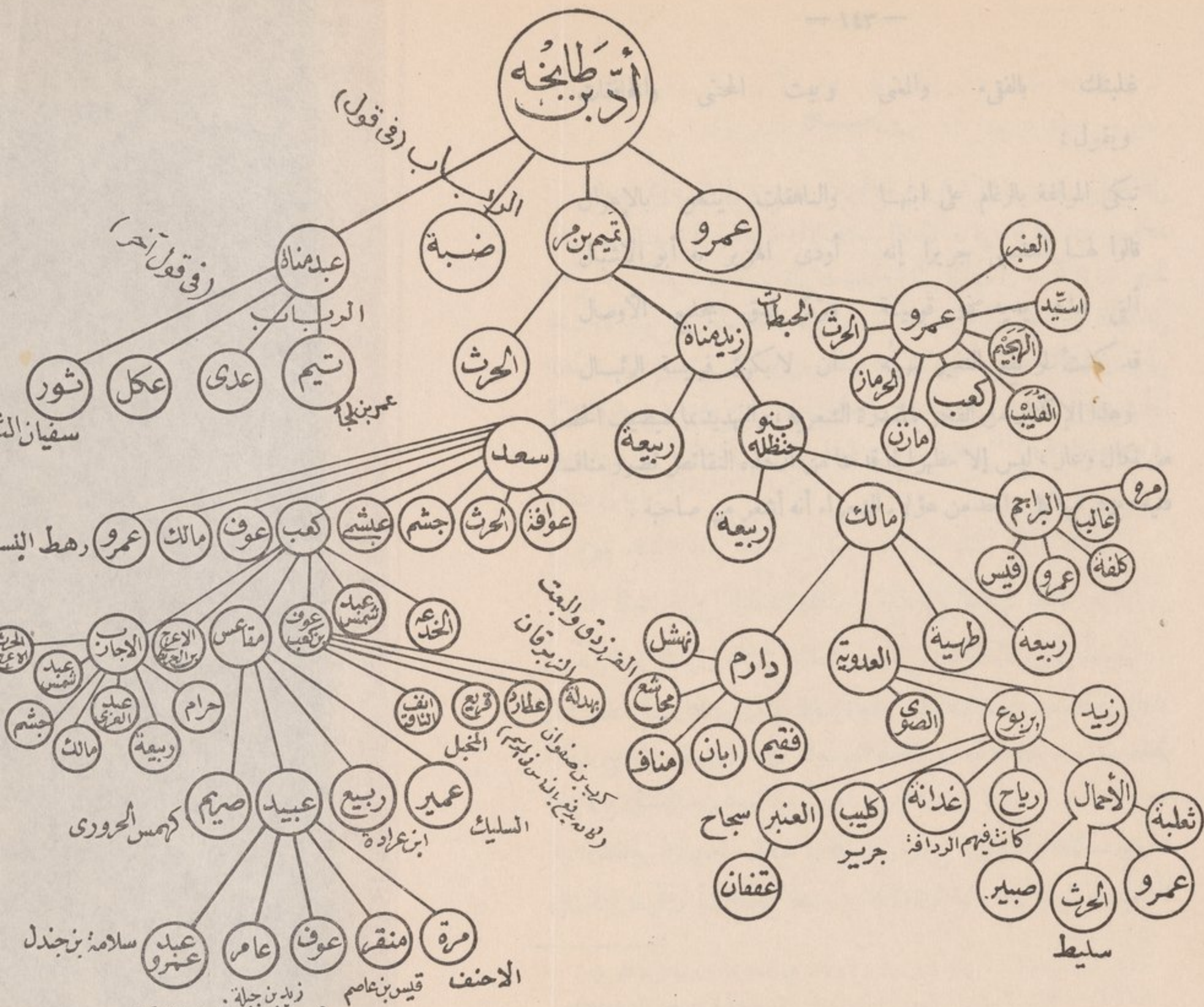
ترى الشعراء من صَعَقٍ مصاب بصَكْنِه وآخر مستديم^(١)
لقد وجدوا رِشائى مستمرا ودلوى غيرَ واهية الأديم^(٢)
ومثلك قد تصدت له فأمسى أخا حلم وما هو بالحليم^(٣)
يرى حسراته ويخاف درئى ويفضى طرفه نَظَرَ الأميم^(٤)
ويقول :

عوى الشعراء بعضهم لبعض على فقد أصابهم انتقام
كأنهم الثعالب حين تلقى هزبرا في العرين له انتحام
إذا أوقعتْ صاعقةً عليهم رأوا أخرى تحرق فاستداموا
ويقول الفرزدق :

تغنى يا جرير لغير شيء فقد ذهب التمسائد بالرواة
فكيف ترد ما بعمان منها وما بجبال مصر مشهرات

(١) صَعَقَ منشى عليه . مستديم منتظر لصكة أخرى .
(٢) الرشاء الحبل الذى تربط به الدلو . يقصد طول نفسه فى الشعر ، وخصب طبعه .
(٣) يقول إن خصمه يتكلف الحلم . وليس هو فى الحقيقة حلما ، ولكنه ضعف عن مجاراته .

(٤) الدرء الدفع . الأميم المشجوج الرأس الذى بلغ جرحه أم الدماغ .



زيد بن جبلة
B نه شرفا. و B نه اوصف يقول
كنا نخزقه اسفا في قلب المروءة
بیت زید

غلبتك بالفقء والمعنى وبيت المحتنى والمخافات
ويقول :

تبكى المراغة بالرغام على ابنها والناهقات ينحن بالإعوال
قالوا لها احتسبي جرياً إنه أودى الهزبرُ به أبو الأشبال
ألقى عليه يديه ذو قومية ورُدُّ فدى مجامع الأوصال
قد كنتُ لو نفع النذير نهيتُهُ أن لا يكون فريسة الرئبال
وهذا الإكثار من الفخر بالمقدرة الشعرية ، والتهديد بما سيصيب الخصم
من نكال وعار ، ليس إلا مظهراً لما قدمنا من أن هذه النقائض تصور منافسة
فنية ، يزعم فيها كل واحد من هؤلاء الشعراء أنه أشعر من صاحبه .

(١) يقول المتن : « فقلت بعد ما جئت به » (٢) « فقلت بعد ما جئت به » (٣) « فقلت بعد ما جئت به » (٤) « فقلت بعد ما جئت به » (٥) « فقلت بعد ما جئت به »

(٦) « فقلت بعد ما جئت به » (٧) « فقلت بعد ما جئت به » (٨) « فقلت بعد ما جئت به » (٩) « فقلت بعد ما جئت به » (١٠) « فقلت بعد ما جئت به »

(١١) « فقلت بعد ما جئت به » (١٢) « فقلت بعد ما جئت به » (١٣) « فقلت بعد ما جئت به » (١٤) « فقلت بعد ما جئت به » (١٥) « فقلت بعد ما جئت به »

(١٦) « فقلت بعد ما جئت به » (١٧) « فقلت بعد ما جئت به » (١٨) « فقلت بعد ما جئت به » (١٩) « فقلت بعد ما جئت به » (٢٠) « فقلت بعد ما جئت به »

(٢١) « فقلت بعد ما جئت به » (٢٢) « فقلت بعد ما جئت به » (٢٣) « فقلت بعد ما جئت به » (٢٤) « فقلت بعد ما جئت به » (٢٥) « فقلت بعد ما جئت به »

(٢٦) « فقلت بعد ما جئت به » (٢٧) « فقلت بعد ما جئت به » (٢٨) « فقلت بعد ما جئت به » (٢٩) « فقلت بعد ما جئت به » (٣٠) « فقلت بعد ما جئت به »

جـ رير

ينتسب شاعرنا إلى فرع من تميم اسمه يربوع ، كانت بعض بيوته على جانب من الشهرة في الجاهلية والإسلام . فقد كانت الردافة في بيت منهم اسمه رياح . ومن آخر اسمه العنبر ظهرت سجاح ، التي تدبأت في حركة الردة . وقد غلب بنو يربوع في أيام الفتنة على البصرة والسكوفة وخراسان ، غلب على البصرة سلمة بن ذؤيب الرياحي ، وغلب على السكوفة مطر بن ناجية اليربوعي لابن الأشعث ، وأخرج منها عامل الحجاج ، وغلب على خراسان وكيع بن أبي سود اليربوعي ثم الغداني ، وقتل قتيبة بن مسلم الباهلي ^(١) . وقد افتخر جرير بذلك في قوله: ^(٢)

ويوم عبيد الله خضنا براية وزافرة تمت إلينا تميمها ^(٣)

لنا ذارة عن الحفاظ وقادة مقادير لم يذهب شعاعاً عزيزها

عن المنبر الشرقى ذات رماحنا وعن حرمة الأركان يرمى حواشيها

يقصد بالمنبر الشرقى منبر البصرة وخراسان ، ويت قصد بمنع الخطيم إنجاز الخوارج لابن الزبير ، حين حاصره الحجاج في ملك يزيد ، وكان معظم الخوارج وقتذاك من تميم ^(٤) .

والظاهر أن بيت صاحبنا في كليب بن يربوع لم يكن نابها ولا مشهوراً ، وإن كنا نعرف أن الخطفي جد جرير كان مثرياً فيما يروى محمد بن حبيب ^(٥) ،

(١) نقائض جرير والفرزدق ١ : ١٠٧ .

(٢) ديوان جرير ٥٤٨ .

(٣) الزافرة الأعوان . يوم عبيد الله بن زياد وذلك حين ترك الأمانة بعد موت يزيد بن معاوية .

(٤) نقائض جرير والفرزدق ١ : ١٠٧ ، ابن الأثير ٣ : ٣٣٦ .

(٥) ديوان جرير ٦٠١ .

في خبر أبياته المشهورة التي يعاتبه بها ، وهي الأبيات التي عاتب بها يزيد أباه معاوية وداعاها لنفسه ، لأن جريرا لم يكن قد اشتهر وقتذاك .

فرُدِّي جمال الحى ثم تحملى فما لك فيهم من مقام ولا ليا
فأنت أبى مالم تكن لى حاجة فإن عرضت أيتت أن لا أباليا
وإنى لمغرورٌ أعلل بالمنى ليلى أرجو أن مالك ماليا^(١)
بأى سنانٍ تطعن القوم بعد ما نزعت سنانا من قناتك ماضيا
بأى نجادٍ تحمل السيف بعد ما قطعت القوى من محمل كان باقيا^(٢)
وإنى لعفُ الفقر مشترك الغنى سريع إذالم أرض دارى انتقاليا^(٣)
جرى الجنان لا أهاب من الردى إذا ماجعلت السيف قبض بنانيا
وليس لسيفى فى العظام بقية وللسيف أشوى وقعة من لسانيا
ألا لا تخافا نبوتى فى ملمة وخافا المنايا أن تفوتكما بيا^(٤)

وهى قصيدة طويلة ، أضاف إليها الشاعر فى وقت متأخر أبياتا فى هجاء الفرزدق . وهى تصور صاحبنا جيد الشعر فى ذلك الوقت ، وإن كان خاملا غير معروف . ومع ما يروى محمد بن حبيب من خبر جده وثروته ، فنحن نعرف أن عطية الخطفى أبا جرير كان فقيرا خاملا ، ليس فيه شىء يستطيع ولد أن يفاخر به . سأل رجل جريرا : من أشعر الناس ؟ قال له : قم حتى

(١) يقول لجده لقد غررت نفسى حين زعمت لها أن لا فرق بين مالك ومالى .

(٢) النجاد حمائل السيف . القوى الحبال . هذا مثل ضربه له ، يقول لم يعد لك من تعتمد عليه .

(٣) يقول إنه إذا افتقر كان عفيفا ، وإن أثرى أشرك الناس فى ثروته وماله .

(٤) يقول لا تخافوا قعودى عن نصرتم حين تحتاجون إلى ، فليس يمنعنى من ذلك إلا الموت . فمهما قصرتم فى حقى فسأظل مخلصا لكم حتى الموت . (٢)

أعرفك الجواب. فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية ، وقد أخذ عنزاً له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها ، فصاح به ، اخرج يا أبت . فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال ابن العنز على لحيته . قال : ألا ترى هذا ؟ قال : نعم . قال : أتعرفه ؟ قال : لا . قال : هذا أبي . أفترى لم كان يشرب من ضرع العنز ؟ قال : لا . قال : مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن . ثم قال : أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعراً وقارعهم به ، فغلبهم جميعاً .

وقد يكون التحديد الدقيق لمولد شاعرنا صعباً غير يسير ، ولكننا نستطيع أن نقول إنه ولد في أواخر أيام عثمان . فابن خلكان يقول في ترجمته إنه توفي بين ١١٠ هـ ، ١١٤ هـ — على خلاف في الروايات — وله نيف وثمانون عاماً . ومولده على هذا حوالى ٣٠ هـ . ويتفق ذلك مع ما يروى ابن قتيبة في الشعر والشعراء ، من أنه عاش نيفاً على ثمانين عاماً . وبؤيد ذلك ما يذكر جرير من شبيهه في أول قصيدة مدح بها عبد الملك بن مروان (٦٥ هـ — ٨٦ هـ) ، حين أوفده الحجاج إليه ، لأن الحجاج ولى العراق ٧٥ هـ ، ووفود جرير على عبد الملك لا بد أن يتأخر عن ذلك سنوات ، لأنه ظل مدة يمدح الحجاج . وعلى ذلك فنحن لا نستطيع أن نقبل ما يروى في النمائص ^(١) ، من أن شاعرنا كان ترعيّة يرعى على أبيه الغنم ، لم يقل الشعر بعد ، على عهد ابن ملك ابن الزبير ^(٢) .

وقد بدأ جرير حياته الشعرية بالرجز ، شأن معظم الشعراء ، فاشتبك بشاعر معروف من قومه اسمه غسان السليطي ، فكانا يتبادلان السباب بالرجز ، ثم لحم بينهما التهاجي شعراً ، فلم يزالا يتناقضان ، حتى دخل بينهما البعيث . وقد أتاح ذلك لجرير شيئاً من الشهرة الضيقة في قبيلته ، ولكنّه لم يظهر في

(١) نقائض جرير والفرزدق ١ : ٤

(٢) ملك ابن الزبير من ٦٤ هـ — ٧٣ هـ .

الحياة العامة إلا في ملك يزيد . روى صاحب الأغاني بسنده عن جرير أنه قال : وفدت على يزيد بن معاوية وأنا شاب يومئذ ^(١) . فاستؤذن لي عليه في جملة الشعراء ، فخرج الحاجب إلى وقال : يقول لك أمير المؤمنين إنه لا يصل إلينا شاعر لا تعرفه ، ولا تسمع بشيء من شعره ، وما سمعنا لك بشيء فنأذن لك على بصيرة . فقلت له ، تقول لأمر المؤمنين : أنا القائل :

وإني لعف الفقر مشترك الغنى سريع إذا لم أرض دارى انتقاليا
فدخل الحاجب عليه فأنشده الأبيات . ثم خرج إلى وأذن لي . فدخلت وأنشدته وأخذت الجائزة مع الشعراء ، فكانت أول جائزة أخذتها من خليفة . وقال لي : لقد فارق أبي الدنيا ، وما يظن أبياتك التي توصلت بها إلى إلالي ^(٢) . ولم يلبث يزيد أن مات واضطرب أمر العراق . وظهر في الكوفة رجل من بني يربوع اسمه سلمة بن ذؤيب الرياحي ، يدعو لبيعة ابن الزبير ، فاجتمع عليه الناس حتى كشف جمعه . وضعف أمر عبيد الله بن زياد ، فكان يأمر بالأمور فلا ينفذ ، ويرد عليه رأيه ، ويحال بينه وبين أعوانه وطلبته . فلجأ إلى الأحنف بن قيس ، سيد تميم وشيخها في ذلك الوقت ، وطلب إليه أن يكف سلمة . فخنق لإعانتته ، ثم قعد عنه ، لما رأى قوة الداعين لابن الزبير . ولم يجد ابن زياد بداً من الهرب خوفاً على نفسه ^(٣) ، فنزل في حماية سيد الأزدي ، مسعود بن عمرو . واستطاع الأزدي أن يستميلوا ربيعة واليمن إلى جانبهم ، فاتفقوا على أن يردوا ابن زياد إلى دار الإمارة . وما زالوا يتحرشون بتميم حتى ثاروا ، وعلى رأسهم الأحنف ، ومعهم القيسية ، فقتلوا مسعود بن عمرو الأزدي . وأحرقوا دار مالك بن مسمع سيد ربيعة . واستطاع رجل آخر من بني

(١) هذه الرواية تؤيد ما ذهبنا إليه من أن مولده حوالي ٣٠ هـ .

(٢) الأغاني ٨ : ٣٦ .

(٣) ابن الأثير ٣ : ٣٢٠ .

يربوع اسمه عتاب بن ورقا. الرياحي، أن يخضع الخارجين على الجماعة من أهل الرى . وبذلك حفظ بنو تميم العراق لابن الزبير : حتى قدم عماله (١).

وكانت تميم في موقفها هذا قسمين : قسم يتعصب لابن الزبير ويدعو له ، بتزعمه بنو يربوع ، وعلى رأسهم سلة بن ذؤيب الرياحي . وقسم لا يحارب اليمنية والربعية إلا على الحناظ ، ولأنهم بدموهم بالعدوان ، وهؤلاء يمثلهم سعد بن زيد مناة — وهم فرع ظاهر من تميم يتميز بشرفه — وعلى رأسهم الأحنف بن قيس (٢).

من ذلك نرى بوضوح أن بعض تميم والقيسية كانوا زبيرية ، واليمن وربيعة كانوا أمويين . وليس في ديوان جرير الذى بن يدينا شعريين اتجاهه في هذه الفترة ، ولـكنا نستطيع أن نجزم بأنه كان زبيرياً ، شأنه في ذلك شأن قومه من بنى يربوع ، الذين كانوا من أظهر فروع تميم تعصباً لابن الزبير . ولكن جرير لم يكن من وجهاء قومه ، وأصحاب رأيهم حتى يدخل في ذلك . ثم هو رجل مسلم ، حريص على أن يبعد بنفسه عن مواطن الشبهة ، وما قد يعرضه في غده للشر ، فهو يكتفى بأن يؤيد ابن الزبير بقلبه . على أنه لم يكن معنياً بشئون الناس ومشاكل السياسة ؛ فكل مواهبه الهجائية تتجلى في مهاجمة الأفراد ، ولا تتجاوز ذلك إلى الجماعات . وقد كان همه في ذلك الحين أن يجيب الذين تجمعوا عليه من شعراء قومه . فالبغيث المجاشعي قد دخل بينه وبين غسان ، معيناً أخواله السليطيين . ثم ثقل حمله بدخول الفرزدق ، حين أخش جرير على بنى مجاشع ، وتناول أعراضهم ، فخمى الفرزدق لهم ، وانضم للبعيث في مهاجمته . وما يؤيد ما نذهب إليه ، من انشغال جرير في ذلك الوقت

(١) ابن الأثير ٣ : ٣٢١ - ٣٢٦ .

(٢) ابن الأثير ، نقائص جرير والفرزدق ١ : ١٠٣ وما بعدها .

بمهاجاة هؤلاء الشعراء ، قوله في أول أمر الفرزدق ، مخاطباً الحرث بن ربيعة المخزومي ، وإلى ابن الزبير على البصرة :

أبا خالد أبليت حزماً وسؤداً وكلُّ امرئٍ مثني عليه بما يُبلى

أبا خالد لا تُشمتن أعادياً يودون لو زلت بمهلكة نعلي

والحرث بن ربيعة المخزومي كان والياً على البصرة لابن الزبير ، بين عامي ٦٥ هـ - ٦٨ هـ ، لأن الكوفة والبصرة صمتا لمصعب عام ٤٩ هـ^(١) . ويؤيد ذلك أيضاً قول جرير للبعيث ، قبل أن يدخل الفرزدق بينهما .

ويوم عبيد الله خضنا براية وزافرة تمت إلينا تميمها

عن المنبر الشرقي ذات رماحنا وعن حرمة الأركان يرمى حطيمها

وهو لا يستطيع أن يفخر بذلك في ملك الأمويين ، ولا يمكن إلا أن يكون في ملك ابن الزبير . وما يصور زبيرية جرير ، هذه القصة التي يرويها الأغاني في وفوده على عبد الملك بن مروان ، وما لقي من مصاعب في سبيل الوصول إليه^(٢) . فقد أوفده الحجاج مع ابنه محمد ووصاه به ، وأمره بمسألة عبد الملك في الاستماع منه ومعاونته . فلم يزل محمد بن الحجاج يلح على عبد الملك حتى أذن له . فلما استأذن في الإنشاد قال له : وما عساك أن تقول فينا بعد قولك في الحجاج . أأست القائل :

من سدَّ مطَّلَع النفاق عليكموا أم منْ يصول كصوله الحجاج ؟

إن الله لم ينصرني بالحجاج ، وإنما نصر دينه وخليفته . أوأست القائل .

أم من يغار على النساء حفيظة إذ لا يتقن بغيرة الأزواج
يا عاض كذا وكذا من أمه ! والله لهُممت أن أطير بك طيرةً بطيئاً

(٤) ابن الأثير ، ٣ : ٣٥٦ ، ٣٩٧

(١) الأغاني ٨ : ٦٦

سَمَّوْطَهَا اِخْرَج عَنِ اِفْأَخْرَج بَشَر . فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ثَلَاثِ شَفْعٍ اِلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ
الْحِجَّاجِ وَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . أَنَّى أُدِيتَ رِسَالَةُ عَبْدِكَ الْحِجَّاجِ وَشَفَاعَتُهُ
فِي جَرِيرٍ ، فَلَمَّا أَذْنَتْ لَهُ خَاطِبَتُهُ بِمَا أَطَارَ لَبَهُ مِنْهَا وَأَشْمَتَ بِهِ عَدُوَّهُ ، وَلَوْ لَمْ
تَأْذَنْ لَهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُ نَمَا سَمِعَ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنَّ تَهَبَ كُلَّ ذَنْبٍ لَهُ لِعَبْدِكَ الْحِجَّاجِ
وَلِي فَا فَعَل . فَأَذْنُ لَهُ . فَاسْتَأْذَنَ فِي الْإِنْشَادِ . فَقَالَ لَا تَنْشُدْنِي إِلَّا فِي الْحِجَّاجِ
فَإِنَّمَا أَنْتَ لِلْحِجَّاجِ خَاصَّةٌ . فَسَأَلَهُ أَنْ يَنْشُدَهُ مَدِيحَةً فِيهِ ، فَأَبَى وَأَقْسَمَ أَنْ
لَا يَنْشُدَهُ إِلَّا مِنْ قَوْلِهِ فِي الْحِجَّاجِ ، فَأَنْشُدَهُ وَخَرَجَ بِغَيْرِ جَائِزَةٍ . فَلَمَّا أَزْفَ
الرَّحِيلُ ، قَالَ جَرِيرٌ لِمُحَمَّدِ بْنِ الْحِجَّاجِ : إِنْ رَحَلْتَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَمْ يَسْمَعْ
مَنِي وَلَمْ أَخْذْ لَهُ جَائِزَةً ، سَتَمَطَّتْ آخِرُ الدَّهْرِ . وَلَسْتُ بِأَرْحَا بَابَهُ أَوْ يَأْذَنُ لِي
فِي الْإِنْشَادِ . وَأَمْسَكَ عَبْدُ الْمَلِكِ عَنِ الْأَذْنِ لَهُ . فَقَالَ جَرِيرٌ : اِرْحَلْ أَنْتَ
وَأَقِيمْ أَنَا . فَدَخَلَ مُحَمَّدٌ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ جَرِيرٍ ، وَاسْتَأْذَنَهُ لَهُ ،
وَسَأَلَهُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهُ ، وَقَبْلَ يَرَهُ وَرَجُلَهُ . فَأَذْنُ لَهُ . فَدَخَلَ فَاسْتَأْذَنَ فِي الْإِنْشَادِ
فَأَمْسَكَ عَبْدُ الْمَلِكِ . فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ : أَشُدَّ وَيْحُكَ . فَأَنْشُدَهُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي
يَقُولُ فِيهَا :

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بِطُونِ رَاحٍ
فَلَمَّا وَصَلَ جَرِيرٌ فِي إِنْشَادِهِ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ اهْتَزَّ عَبْدُ الْمَلِكِ وَطَرَبَ .
وَيُؤَيِّدُ زَبِيرِيَّةَ جَرِيرٍ كَذَلِكَ ، تَعْصِبُهُ لِلْقَيْسِيَّةِ ، وَمَا يَمْلَأُ دِيْوَانَهُ مِنْ تَرْدِيدِ
أَيَّامِهِمْ مَعَ تَغْلِبِ ، الَّتِي كَانَتْ مَمَالِيَّةَ ابْنِي أُمِيَّةٍ . يَقُولُ لِلْأَخْطَلِ .

وَقَيْسٌ أَذَاقُوكَ الْهَوَانَ وَقَوَّضُوا بِيَوْتَكُمْ فِي دَارِ ذُلٍّ وَخَجَرَبٍ
فَوَارِسُنَا مِنْ صَابِ قَيْسٍ كَأَنَّهُمْ إِذَا بَارَزُوا حَرْبًا أَسَنَّةَ صُلْبٍ

ويقول مريدا حلف تميم لقيس .

وقد أوردت قيسُ عليكُ وخندفُ فوارسَ هَدْمَ الحياضِ التي تُجْبِي^(١)
ويقول للفرزدق :

لنا قيسُ عليكُ وأىُّ يومٍ إذا ما احمرَّ أجنحةُ العقابِ^(٢)
ويقول له :

ولقد جهلت بستم قيس بعد ما ذهبوا بريش جناحك المكسور
قيس وجد أبيك في أكياره قواد كل كتيبةٍ جمهور^(٣)
ويقول له

لقد لحق الفرزدق للنصارى لينصرهم وليس به انتصار
تخاطر من وراء حِمَايَ قيسُ وخندفُ عزَّ ما حَمَى الزمار
وهنا يبدو وجه الخلاف الشديد بين جرير والفرزدق . فالفرزدق أبقى
يكرم نفسه ويعتد بحسبه . وهو يمدح الأمويين حين لا يجذبدا من الدخول
فيما دخل فيه الناس ، ولكنه لا يقدم عليهم ولا يزورهم . أما جرير فهو يلتمس
السبيل للوصول إليهم ، ويحتمل في سبيل ذلك المكاره ، طمعا في عطاياهم .
وهو يحتال لذلك ، فيتصل بالحجاج أول الأمر ، لأن ذلك أهون عليه ، ولأن
الحجاج قيسى من ثقيف ، فهو أقرب إلى الصنف عنه . ويجهد جرير نفسه
في مدح الحجاج ، ويتمول فيه أجود ما قال في مدح إنسان ، حتى يبلغ رضاه
ويستطيع أن يضمن شفاعته له عند الخليفة .

(١) خندف امرأة ينسب إليها بنوها . وهم مدركة بن إلياس بن مضر (جد قریش)
وطابخة بن إلياس بن مضر (جد تميم) . ومضر شعبان كبيران : خندف ويشمل
قریشا وتميمًا ، وقيس عيلان وهو يضم قبائل كثيرة مشهورة منها هوازن وسليم
وثقيف وعبس وذبيان .

(٢) العقاب الراية . وإنما تحمر من الدم .

(٣) الأكيار جمع كبير ، وهو المتفاخ الذي ينفخ به الحداد لينذركى النار .

كان جرير رجلا من غمار الناس ، ولم يكن بالرجل الصلب الذى يقوى على النضال والكفاح . فهو يؤثر العافية ، ويحرص على إرضاء الحكام والرؤساء . يتقرب بالمدح ، ضمنا لسلامته واطمئنانه ، وطمعا فى ما لهم وعطائهم ، ويبلغ فى ذلك حد التلون والنفاق . لا يكاد يصل إلى عبد الملك حتى يرضيه بشتم ابن الزبير (أبى خبيب) ، والتعريض به فى أول قصيدة مدحه بها فيقول :

دعوت الملحين أبا خبيب جماحاً هل شفيت من الجماح^(١)
 فقد وجدوا الخليفة هبرزياً ألف العيص ليس من النواحي^(٢)
 فما شجرات عيصك فى قریش بعشّات الفروع ولا الضواحي^(٣)
 رأى الناس البصيرة فاستقاموا ويئنت المراض من الصّحاح

ولا يكاد الحجاج يموت ، حتى يستيحي جرير لنفسه أن يعرض به عند سليمان بن عبد الملك ، أرضاء له ، لما هو معروف من تباغضهما . وهو لا يستحي أن يفعل ذلك ، مع ما سلف من مدائح الرائعة فيه ، ومن إحسان الحجاج إليه . يقول لسليمان إنك قد أنقذت الناس من بلاء عظيم . ويصف تعذيب الحجاج للناس فى سجنه المشهور (ديماس) وتنكيله بهم . فهذا رجل مكبل فى القيود ، وذاك قتيل ، وتلك امرأة قد علقت من ثديها .

أجرت من المظالم كل نفس وأدبت الذى عهد الزسول
 ويدعوك المكلف بعد جهْد وعانٍ قد أضرَّ به الكبُول

(١) الجماح العناد والخلاف . الملحد المخالف . ومنه الأحاد بمعنى الكفر لأنه انحرف عن الدين .

(٢) الهبرزى الخالص . ألف الملفت . العيص الشجر . هذا مثل ضربه ، يريد أنه من وسط الغز ليس من نواحيه .

(٣) العشة بفتح العين وتشديد الشين الشجرة اللثيمة المنبت الدقيقة القضبان . الضواحي التى سقط ورقها فبدت عيدانها .

وما زالت معلقة بشدى بنى الدِّيماس أو رجلٌ قَتِيل
 فرَجَتْ لهمَّ والحلقاتِ عنهم فأحيى الناسُ والبلدُ المحُول
 كان جرب لا يبالي غير سلامته ، فهو لا يهجو إلا من تعرض له من
 الشعراء ، ولا يعرض لنقد الولاة والعمال أو مهاجمة سياستهم . وهو لا
 يرتزق بالهجاء ، لأن ذلك قد يعرضه للشر ، ولكنه يعول في ذلك على المدح ،
 ويسوم نفسه في سبيل المال أقبح الذل ، وأبغض الإلحاف . فهو لا ينتظر
 عطاء من يمدحه ، ولكنه يصرح بالسؤال مستجديا ، ويكثر من الشكوى
 متمسكنا ، وكأنه يستكثر بذلك من العطاء ، ويراه داعيا للزيادة .

يقول لعبد العزيز بن الوليد .
 إلى عبد العزيز شكوتُ جهدا من البيضاء أو زمن القتاد
 سنين مع الجراد تعرقتنا فما تبقى السنون مع الجراد^(١)
 ويقول للحجاج .
 ألا نشكو إليك زمان محل وشرب الماء في زمن الجليد
 ويقول معاوية بن هشام (وهو هنا مداعب خفيف الروح) .
 ماذا ترى في عيال قد برمتُ بهم لم تُخصَّ عِدَّتُهم إلا بعدد
 كانوا ثمانين أو زادوا ثمانية لولا رجاؤك قد قتلت أولادي
 ومن دعابته في السؤال المحلف قوله لسليمان بن سعد صاحب ديوان
 العطاء باليمامة .

تركتُ عيالي لا فواكه عندهم وعند ابن سعد سكر وزبيب
 تحنَّ العظام الراجفات من البلى وليس لداء الركبتين طبيب

(١) البيضاء السنة التي لا نبات فيها . وزمن القتاد حين يرعى الناس رعى القتاد فيلهبوا
 فيه النار لتأكل شوكة ، ثم ترعاه الأبل . تعرق العظمة وعرقها أكل ما عليها
 من اللحم .

كأن النساء الأسرات حنيني عريشاً فُشي في الرجال ديب
منعت عطائي يا ابن سعد وإنما سبقت إلى الموت وهو قريب
فإن ترجعوا رزقي إلى فإنه متاع ليال والحياة كذوب
ومن قبيح الخاف، قوله في بعض مدائحہ لبنی أمية .

أشكو إليك فأشتكى ذرية لا يشبعون وأهم لا تشبع
كنروا على فما يموت كبيرهم حتى الحساب ولا الصغير الموضع
وإذا نظرتُ يريني من أهم عين مهججة وخذ أسفع^(١)
وإذا تقسمت العيال غبوقها كثر الأنين وفاض منها المدمع
رشي فقد دخلت على خصاصة^(٢) مما جمعت وكل خير تجمع^(٣)

ولعل الفرزدق لم يبعد كثيراً عن الصواب حين صور شره جرير في جمع
المال ، وابتذاله نفسه في السؤال ، مع أن قومه من تميم كانوا يستطيعون أن
يغفوه ويكفوه ، حيث يقول :

يظل بأسواق اليمامة عاجزا إذا قال بيتاً بالطعام يُكايله
ولو جعلوا لابن المراغة درهما على إسكتيها قال إني مزاولة
لظل مكباً يبتغي بلسانه ليخرجه إذ لم تنله أنامله
تقدم عليها يا جرير فإن تكن رفيقاً إذا استلقت فإنك نائله
أظن بنا زوج المراغة أنه من الفقر لاقية الهزال فقاتله
وقد كان في الدنيا مراداً لقبه وفي هجر تمر ثقال جلاله
وكانت تميم مطعميه ونابتا بهم ريشه حتى توازي نواصله

(١) المهجبة الفائرة العينين . السفح سواد يعلو حمرة الحدين .

(٢) الخصاصة الفقر والحاجة .

ومع ذلك فلم يكن جرير بالمادح المجيد . فالرقة والسهولة الغالبتان على شعره تحرمان مديحة ما ينبغي له من قوة وشدة أسر . وهو لا يقع على صفات الملوك والخلفاء ، ولا يعرف كيف يمدحهم ، فهو من هذه الناحية لا يقارن بشاعر كالأخطل .

يقول سليمان بن عبد الملك ، وكأنه يمدح رجلا كريما من عامة الناس :
 تهينون الخاضع لكل ضيف إذا ما حُبَّ في السنة الجميل^(١)
 ولا يوصف الناس بأنهم ضيوف الخليفة ولكنهم رعيته .

ويقول لعبد العزيز بن مروان حين رحل إليه يمدحه بمصر .
 إذا ما أناخ الراغبون ببابكم مع الوفد لم ترجع عبايهم صفرا
 وذلك أدنى ما يقال في رجل . فلو أن هذه العباب عادت مملوءة تبنا أو
 ترابا لما كانت صفرا .
 ، ويقول في مدح يزيد بن عبد الملك إنه نزل به ضيفا فأكرمه وغطاه من
 فضل لحافه .

ما من جفانا إذا حاجتنا نزلت كمن لنا عنده التكريم واللفظ
 كم قد نزلت بكم ضيفا فتأخفتي فضل اللحاف ونعم الفضل يلتحف
 وليس مثل جرير ضيفا على مثل يزيد ، وإنما هو معترف يرجو فضله
 ويسعى لسببه . واستعارة اللحاف هنا للفضل من أقيح الاستعارات .
 ثم يقول إن له حسادا لا يغنون غناه .

يارب قوم وقوم حاسدين لكم ما فيهم بدل منكم ولا خلف
 وهذا نزول بالخليفة إلى مستوى عامة الناس .

(١) الجميل الشعم المذاب . بكى بذلك عن الجذب .

ويقول لعبد الملك .

الله طوقك الخلافة والهدى والله ليس لما قضى تبديل
وليس يحسن استعمال التطويق في النعمة ، وإنما يطوق الناس البلاء
والمصائب . فالطوق أدنى إلى أن يصور التضيق والتنكيل .

ويقول لوليد بن عبد الملك :

وترى الجفان يمدّها قعُ الذرى مدّ الجدّال بالآتي المفعم^(١)

والقدر تنهمُ بالحمال وترعى بالزور هممة الحصان الأدهم^(٢)

وليس يوصف الخليفة بأنه يمد للناس جفانا يعلوها شحم السنام ، وبأن
قدوره تغلى بالقطع من فتار الظهر ، كأنها الحصان الأدهم حين يهيمهم
ويصهل . فذلك قليل جداً على الخليفة ، وإما يمدح به عامة الناس الذين
ينتابهم الفقر .

ويقول لهشام :

وكان أبوك قد علمت معد يفرج عنهم الكرب العظاما

وقد وجدوك أكرمهم جدودا إذا نسبوا وأثبتهم مقاما

وتحرز حين تضرب بالمعلّى من الحسب الكواهل والسناما

وليس نسب الخليفة موضع بحث ، ولا هو مما يحتاج إلى إثبات ، أنه أفضل
الناس نسباً .

ويقول له في مديحة أخرى .

فيا ابن المطعمين إذا شتونا ويا ابن الذائدين عن الحرم

فما الأم التي ولدت أباكم بمقرفة النجار ولا عقيم

(١) الذروة السنام . قمعة الذروة أعلى السنام . الجدّال الأنهار . الآتي الجاري .

(٢) المحال فتار الظهر واحدها محالة . الزور الصدر . الهممة صوت دون الصهيل .

فلو أن أما ولدت شرطيا لم تكن مقرفة النجار ولا عقيما .
ويقول للعباس من الوليد :

فيا ابن المطعمين إذا شتونا ويا ابن الذائدين عن الزمار
وتطر من نداك يداك فضلا إلى كرم الشائل والنجار
وتوقد نار مكرمة وأخرى إذا ما الحل أخذ كل نار
وكان يدت الخليفة مجهول يحتاج إلى أن توقد أمامه النار ليهتدى إليه
الضيفان .

كانت السهولة الغالبة على شعر جرير صورة من طبعه السمع ،
ونفسه الرقيقة المطمئنة . فقد كان جرير رجلا مؤمناً شديداً ، التمسك بدينه ،
يؤثر السلامة والعافية في الآخرة كما يرجوها في الدنيا . كان إذا ضل الصبح
جلس في فناء منعزل أمام داره ، لا يكلم أحداً حتى تطلع الشمس ، ولا يبرح
موضعه ولو تناحر الحى^(٣) . ولقد مرت به جنازة وهو يمشي على رجل قصيدته

ودع أمانة حان منك رحيل إن الوداع لمن تحب قليل
فقطع الإنشاد وجعل يبكى . ثم قال : شيتنى هذه الجنازة^(١) . ولقى
الفرزدق بمنى وهما حاجان ، فقال له الفرزدق :

فإنك لاق بالحصب من منى فخاراً فحدثني بمن أنت فاخر
فلم يجبه إلا بقوله : لبيك اللهم لبيك^(٢)

وهذه الرقة الغالبة على طبعه ، جعلته من أكثر شعراء عصره توفيقاً في
الغزل والرثاء . وبهذا كان يمتاز من زميليه الأخطل والفرزدق . لم يفرغ
جرير للغزل ، ولم ينشئ في قصائده مستقلة ، ولكنه كان يقدم لمبادئه وأهاليه
بنسيب يسيل رقة وعذوبة . وكان جرير يعرف من نفسه هذه الرقة ، فهو

(١) النفاث ١ : ٣٢

(٢) الأغاني ٨ : ١٥

(٣) الأغاني ٨ : ٣٣

يقول : ماعشقت قط . ولو عشقت لذسبت نسيبا تسمعه العجوز فتبكي على مافاتهما من شبابها ^(١) أنظر إلى قوله في مقدمة قصيدة يهجو بها الفرزدق :

فلما التقى الحيان ألقيت بالعصى ومات الهوى لما أصيبت مقاتلة
لقد طال كتمانى أمانة حبها فهذا أوان الحب تبدو شواكله
ويوم كإيهام القطاة مزين إلى صباه غالب لي باطله
لهوت بجني عليه سُموطه وأنس مجاليه وأنس شمائله
فلو كان هذا الحب حباً سلوته ولكنّه داء تعود عقابله
هذا شعر معظم جماله في ألفاظه السمحة الرقيقة ، التي تطرب الأذن
وتستخف القلب . ولقد حق جرير أن يصبر ويبيكى ، حين قدم المدينة فاستمع
إلى أشعب يغنى في قوله .

يا أخت ناجية السلام عليكم قبل الفراق وقبل لوم العذل
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الفراق فعلت ما لم أفعل
لجعل يستعيده وهو بيكى حتى اخضلت لحيته . والذي يقرأ رثاء جرير
لزوجته ، وولده سواده ، لا يستطيع أن يتشغل نفسه من الحزن العميق الذى
أملأهما ، والرقّة الباكية التى تفيضان بها . ولقد ماتت زوجة الفرزدق ، فلم
يجد النادبات من شعره ما يندبنها به ، فندبها بقصيدة جرير هذه التى رثى
بها زوجته .

هذه بعض مواهب جرير الشعرية وملسكاته . وإنما كانت تتجلى هذه
المواهب فى كامل قوتها وروعها حين يهجو الأفراد . فتمدّ كان هذا الرجل
الرقيق الطبع جروهاش كما يقول الحجاج ، يندفع فى الهجاء متدفقا لا يميل ،
وكأنه يمارس أحب الهوايات إلى نفسه . وكان يعينه على ذلك هدوء طبعه

وبرود أعصابه . فقد كان ينهشه ثمانون شاعراً من معاصريه ، لم يستطع أحدهم أن يحفظه أو يثير غضبه ، فهو يستمع إلى هجائهم في اطمئنان ، ثم يرد عليهم بهذا الاطمئنان نفسه ، فيطيل متماداته في النسيب ، مستأنياً لا يستعجله الغضب ، حتى إذا أَرْضَى مِنْهُ نَفْسَهُ ، تناول خصمه مهكماً ساخراً ، مفتناً في تهكمه وسخريته بما يضحك منهم الناس ، ويثير حولهم عواصف الضحك ، ويضيق عليهم الدنيا . فحينما ذهبوا ، وجدوا هجاءهم قد سبق على الألسن ، يتندربه في كل مكان . يقول ابن سلام : كان الفرزدق يتضور ويجزع إذا أنشد لجريز ، وكان جريز أصبرهما . دخل رجل على الفرزدق فقال : وردت اليوم المربد قصيدة لجريز تناشدها الناس . فامتقع لون الفرزدق . فقال الرجل : لئست فيك يا أبا فراس فقال : فيمن ؟ قال : في ابن لجأ التيمي . قال : أحفظت منها شيئاً ؟ قال : علقت منها بيتين (١) .

كان جريز ممتازاً في حسه اللغظي ، عالماً بوحى الكلمات وأسرارها . فهو إذا تغزل رأيت ألفاظه تسيل رقة وعزوبة في مثل قوله .

عوجى علينا وأربعى ربة البغل ولا تتملينى لا يحل لكم قتلى
ليالى إذ أهلى وأهلك جيرة وإذ لا تخاف الصرم إلا على وصل
وإذ أنا لا مال أريد ابتياعه بمالى ولا أهل أبيع بهم أهلى
وإذا رثى رأيت ألفاظه تنطر حزناً وكمداً ، في مثل قوله يرنى ولده سرادة :

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم كيف العزاء وقد فارقت أشبالى
فارقتى حين كف الدهر من بصرى وحين صرت كعظام الرمة البالى
إن الثوى بذى الزيتون . فاحتسبى . قد أسرع اليوم فى عقلى وفى حالى

وإذا هجا كانت ألفاظه مشحونة بالسخرية والاستهزاء ، تستعجل القارىء بالضحك ، قبل أن يفهم ما تضمنت من معنى . يقول للفرزدق :

عَدُوا خُضَافٍ إِذَا الْفُحُولُ تُنَجِّبَتْ وَالْجِيْشُلُوطُ وَنُحْبَةٌ خَوَارَا
وَإِذَا فَخَرَتْ بِأَمَهَاتٍ مَجَاشِعُ فَافْخَرْ بِقَبْقَبٍ وَاذْكُرِ النَّخَوَارَا
وَتَأْمَلْ اخْتِيَارَهُ لِهَذِهِ الْأَلْقَابِ الْعَجِيبَةِ ، وَإِلَى غَرَائِبِهَا الْمُضْحَكَةِ ، فِي
الْجِيْشُلُوطِ (وَهُوَ لَفْظٌ مُخْتَرَعٌ ، كَأَنَّ مَعْنَاهُ السَّكَدَابُ السَّلَاحُ ، مَرْكَبٌ مِنْ
جَلَطٍ وَجَشْطٍ وَسَلَطٍ) وَقَبْقَبٍ وَالنَّخَوَارَا .

ويقول له :

بئس الفوارس يانوار مجاشع خور إذا أكلوا خزيرا ضفدعوا
وتأمل هؤلاء القوم الذين يصفدعون (أى يساحون ويضبطون)
ويقول له :

ويقول له :

فإن مجاشعاً فتعرفوهم بنو جَوْحَى وَخَجْنَجِ وَالْقِذَامِ
وتأمل اختياره لهذه الأسماء الغريبة ، وهى أسماء بعض من كان يشغل
بالحدادة من رقيقهم ، يتهم نساء مجاشع بهم . ويقول : هؤلاء القميون هم آباؤهم
ثم انظر أخيراً إلى هذه الأبيات العجيبة ، ولا تتعب نفسك فى فهمها ،
فهى تؤدى ما أريد بها بمجرد ملامستها للأذن ، وتستفز للضحك بخصائصها
الصوتية وحدها :

أنت ابن هاتيك وتيك تيكاً
أشبهت حمران وعصل كيكاً
يا ابن التي كانت تمشي حيكاً
فرج أسنها مثل مسق فيكاً
أشبهت منها شهباً يخزيكاً
أما ترى الحمرة في بنيكاً
كأن بين إسكتيها ديكاً
تقول لما ملئت التوريكاً

عَالُ أَخَاكَ الْعَبْدُ عَنْ أَبِيكَ

وقد وهب جرير مع هذا الحس اللفظي الممتاز عينا نقادة ، تتمتع على العيوب
ووجوه النقص من أول نظرة ، وتهتدي إلى مواضع السخرية ، اهتمام
المغناطيس إلى دقائق الحديد المنتشر ، ومن وراء هذه الملاحظة الدقيقة النقادة
خيال خصب ، وذكاء فماد ، يمدّه بالصور الغريبة في الافتنان ، البارعة اللاذعة ،
يتناقلها الناس متتدرين . فمن أمثلة هذا الهجاء الذي يعتمد على الصور ،
قوله يصف بني مجاشع بالسمن والترهل ، مع قلة الثناء في الحروب .

مَتَى تَغْمَزُ ذِرَاعَ مَجَاشَعِي تَجِدُ لَحْمًا وَلَيْسَ عَلَى عِظَامِ
فَمَا صَدَقَ اللَّقَاءُ مَجَاشَعِيٍّ وَمَا جَمَعَ الْقَنَاةَ مَعَ اللَّجَامِ
تَوَلَّوْنَ الظُّهُورَ إِذَا لَقِيتُمْ وَتَدْنُونَ الصُّدُورَ مِنَ الطَّعَامِ

وقوله فيهم :

تَلَقَى ضِفْنٌ مَجَاشَعٍ ذَا لَحْيَةٍ وَلَهُ إِذَا وَضَعَ الْإِزَارَ حِرَانٌ^(١)
مَنْ كُلِّ مَنْتَفَخِ الْوَرِيدِ كَأَنَّهُ بَغْلٌ تَقَاعَسَ فَوْقَهُ خُرْجَانٌ

وقوله للقيم :

وَتِيمٌ تُمَاشِيهَا الْكِلَابُ إِذَا غَدَوْا وَلَمْ تَمْشِ تِيمٌ فِي ظِلَالِ الْخَوَافِقِ
وَتِيمٌ بِأَبْوَابِ الزُّرُوبِ أَذَلَةٌ وَمَا تَهْتَدِي تِيمٌ رِيبَابِ السُّرَادِقِ
وَتَمْسَحُ تِيمٌ قُصَّةَ التَّيْسِ وَأَسْتَهَ وَلَا يَمْسَحُونَ الدَّهْرَ غُرَّةَ سَابِقِ

وقوله للبعيث المجاشعي :

يَفِيشُ ابْنُ حَمْرَاءَ الْعِجَانِ كَأَنَّهُ خِصِيٌّ بِرَازِينَ تَقَاعَسَ فِي الْوَحْلِ^(٢)

(١) الضفن القصير المكتنز . الحر موضع العورة من المرأة .

(٢) ابن حمراء العجان يكنى بذلك عن أن أمه أعجمية ليست بعمرية . والعجان الموضع

الذي بين القبل والدبر .

وقوله في الأخطل :

والتغلبى إذا تنحج للقرى حكَّ آستَه وتمثل الأمثالا
وقوله للفززدق :

إذا أسفرت يوماً نساء مجاشع بدت سوءةً مما تُجنِّ البراقع
مناخر شانتها القيون كأنها أنوفُ خنازير السوادِ القوابع
مباشيم من غيب الخزير كأنما تصوَّتُ في أعفاجهن الضفادع^(١)
وقوله له :

وأوصى جُبَيْرُ إلى غالب وصيةً ذى الرحم المُجهد
فقال أرفقنَّ بلى الكتيف وحكَّ المشاعب بالمبرد^(٢)
وفاز الفززدق بالكلبتين وعدل من الجمم الأسود^(٣)
فرقع لجدك أكياره وأصلح متاعك لا تفسد
وأذن العلاء وأذن القدم ووسع لكرك في المقعد

وهو يتهم جدة الفززدق بعبيدها جبير ، ويقول إنها ولدت ابنها غالباً
(أب الفززدق) منه . ثم هزيم بذلك مرور من يلقى الخبر وكأنه حقيقة
مفروغ من صحتها لا تحتاج إلى إثبات . ومن ذلك قوله :

وجدنا جُبَيْراً أبا غالب بعيد القرابة من معبد

(١) الخزير والخزيرة دقيق يخلط بالماء ويوضع على النار حتى يتماسك قوامه ، وقد يوضع فيه لحم . أو هو مرقعة تتخذ من بلالة النخالة . الأعفاج الأمعاء . وغب كل شيء عاقبته .

(٢) الكتيف ضباب الحديد ، والواحدة كتيفة . المشاعب جمع مشعب على وزن منبر وهو المثقب الذى يثقب به .

(٣) الكلبتان ما يأخذ به الحداد الحديد المحمى . العدل بفتح العين وكسرهما المثل والنظير . اللحم بضم الخاء وفتح الميم الفحم .

(٤) العلاء بفتح العين السندان الذى يطرق عليه الحديد .

ومن أمثلة الهجاء الذى يعتمد على النكتة المضحكة قوله فى هجاء التيم :

ولو يُدْفَن التَّيْمَى ثم دعوته إلى فضل زاد جاء يسعى من القبر
وآية لؤم التيم أن لو عدتُم أصابع تيمى نقصن عن العشر
وقوله فيهم :

يا تيم إن وجوهكم — فتقنعوا — طُبعت بالأم خاتم وكتاب
قوم إذا حضر الملوك وفودهم تُنْفَت شواربهم على الأبواب
وقوله فيهم :

وتيم يفخرون وضربُ تَيْمٍ كضرب الزَيْف بار على التجار
وقوله للفرزدق فى نفس المعنى ، حين طرد من الحجاز لسوء سيرته ،
وإفخاشه فى شعره :

نفاك حبيج البيت عن كل مشعر كما رَدَّ ذو النُيْمَتَيْنِ المزيف
وقوله للأخطل :

أنزعم^١ ذا المناخر كان سبطاً يهودياً وترنمه أباكا
وهو بذلك يشير إلى ما يروى من أن الخنزير كان من بنى إسرائيل ففسخ .
وهذا الخيال الخصب ، وهذه النكتة البارة ، قد جعلت جريراً من أخطر
الهجائين ، فى إطلاق الألقاب على خصومه ، وترويج الإشاعات الباطلة ،
يكررها فى شعره ، ويفتن فى عرضها ، حتى تصبح عند الناس حقيقة مؤكدة
فهو يلقب الأخطل بدوبل ، لأنه كان نصرانياً يأكل الخنزير . يقول له :
بكى دُوبَلٌ لا يُرقى الله دمعَه ألا إنما يبكى من الذل دُوبَلٌ^(١)
ويقول :

فكم من خبيث الريح من رهط دُوبَل بدجلة لا تبكى عليه النوائح

(١) الدوبل الخنزير أو ذكره أو ذكر ولده .

ويقول :

فإنك يا خنزير تغلب إن تقل ربيعة وزن من تميم تكذب
ويلقب أبا الفرزدق بحوض الحمار ، لأنه كان أحذب داخل الصدر
طويل الحية .

حوض الحمار أبو الفرزدق فاعرفوا منه قفا ومقلداً وعذاراً^(١)

ويقول :

حوض الحمار أبو الفرزدق فاعلموا عقد الأخادع وانشاج المرفق
شر الخليفة من علمنا منهم حوض الحمار وشر من لم يخلق
ويلقب بني نمير بالتيوس .

فصبراً يا تيوس بني نمير فإن الحرب موقدة شهابا
ويسمى الفرزدق القرد لقصره ودماثة وجهه ، ويلقبه أحياناً القرد
الأصلع لجمعه الصلع إلى القصر والدماثة .

إن البلية لا بلية مثلها قردٌ يعمل نفسه بالباطل

ويقول :

ولقد صكت بني الفدوكس صكة فلقوا كما لقي القريد الأصلع^(٢)
ويلقب رجلاً من سعد اسمه أبو كامل (ضرة الأرنب)
أخالفت سعداً وحكامها أيا ضرة الأرنب الحافل

(١) العذار جانباً للحية . وهو كذلك ما سأل من اللجام على خد الفرس . والمقصود
هنا المعنى الأول . المقلد . موضع القلادة .

(٢) الأخدع عرق في الرقبة هو فرع من الوريد ، والأخادع جمعه : يقال لوى فلان
أخدعه أى أعرض وتكبر ، وسوى أخدعه أى ترك التكبر . المرفق مفصل
الذراع ، وانشاجه تقبضه .

(٣) بنو الفدوكس بيت من ييوت تغلب : وهم قوم الأخطل .

ويلقب رجلاً آخر اسمه ميجاس (دودة الحش).

لو كان غيرك يا ميجاس يشتمنا يا دودة الحش يا ضلّ بن ضلال (١)

ويلقب شبة بن عقال (سلح النعامة).

فضح الكتبية يوم يضطراً قائماً سلح النعامة شبة بن عقال

وجريز بعد هذا أمر الناس في اختراع الإشاعات وتروييحها. يصهر الفردق إلى قوم من بكر حين يخطب ابنتهم حدراء، فلا يزال جريز يشنع بهما، حتى يمنعها أهلها منه، كفاً لشره وهجائه. ويتهم ليلى أم غالب (جدة الفردق) بجبير عدها — وكان قيناً — ويكرر ذلك حتى يشيع بين الناس.

تلقى نساء مجاشع من ريجهم مرضى وهن إلى جبّير نزع

ليلى التي زفرت وقالت حبذا عرق القيانة من جبّير ينبع ويتهم جعثن أخت الفردق برجل من منقر، ولا يزال يفتن في تصوير اتصاله بها أخش لفتنان، ويفصل أقدر تفصيل، حتى تصبح جعثن سبة الفردق وقومه، ولا يرى الناس قوله فيها إلا حقيقة.

كان الفردق يشنع بجريز، ويخلق الإشاعات حوله وحول قومه. ولكن لم تكن له جرأة جريز وبراعته، فهو يشنع بصلة بن يربوع بالحير، وهو شيء بعيد عن المعقول، قد يتندر به الناس، ولكنهم لا يصدقونه. فأما جريز فهو يلتقط مادة هجائه من الواقع المشاهد، القريب من المعقول. ومن مظاهر هذه الواقعية التي تستند إلى دقة الملاحظة، براعته في حكاية الأصوات والأشياء — وإن كانت هذه البراعة فاحشة في كثير من الأحيان. يقول في هجاء بني عقال :

وسوداء المحاجر من عقال تبائع من دفا : خدها وهات

ويقول لعمر بن لجأ التيمي متهما أمه :

تقول والعبد مسكين يُجرّرها أرفق فدَيْتُكَ أذ الناكح الذكر

ويقول في جعثن أخت الفرزق :

وتقول جعثن وابنُ مرّة جانح خلَجاً رويداً قد نزعتم طِحالي

وقد كان جرير يعالج موضوعاته معالجة الفنان الموهوب ، الذي يلمح ولا يصرح ، ويتناول الأشياء من أطرافها مترقفاً ، ويشير إليها ولا يلمسها .

يقول في أعور نهبان :

وأعور من نهبان أما نهاره فأعمى وأما ليله فبصير

ويقول لعمر بن لجأ معيراً بأمه :

ما بال برزة في المنحة إذ نذرت صومَ المحرّم إن لم يطلع القمر

ويقول له :

ولقد هممتُ بأن أدمّر بارقا فرقتُ فيهم عمّنا إسحاقا

وهو بذلك ينفيهم عن العرب ، وينسبهم إلى بني إسرائيل . وأبرع ما في البيت أنه يدخر كل ما فيه من لذع للكلمة الأخيرة . فالقارئ لا يرى بالبيت بأساً حتى تلقى هذه الكلمة كالقنبلة .

ويقول لتيّم

تري الأبطال قد كَلُوا وتيم صحبحو الجلد من أثر السكوم

ويقول للفرزدق :

فإن مجاشعا جمعوا فياشاً وأستاذها إذا فزعوا رطابا

يتهمهم بالجن ، ويقول إنهم يسلمون لفرط ما بهم من فزع .

ويقول في نساء بني نمير .

إذا قامت — لغير صلاة وثيرة — بُعيد النوم أُنْبَحَتِ الكلابا

ويقول لبني مجاشع :

الظاعنون على أهواء نسوتهم والخافضون بدارٍ غيرٍ محلّال
وجرير بعد كل هذا ساخر من خصمه ، متهم به ، لا تراه غاضباً أبداً .
وقد جعل هذا الهدوء لسخريته لدعاً كأنه السياط . انظر إلى قوله في تعبير
بني مجاشع بلقيط بن زرارّة ، الذي قتل في بعض الحروب .

وخورُ مجاشع تركوا لقيطاً وقالوا حنوّ عينك والغراب^(١)
جعلهم يتحدثون إلى اميت ، ويطلبون إليه أن يحافظ على عينه من الغراب .
وقوله للقيم .

وإنك لو لقيت عبيد تيم وتيا قلت أيهم العبيد
وقوله للأخطل :

أدّ الجزى ودع الفخار بتغلب واخساً بمنزلة الذليل الصاغر
وقوله له :

قال الأخطل إذ رأى راياتنا يا مار سرجس لا نريد قتالا
وقوله :

إذا ما كان خلاك تغليباً فبادلٍ إن وجدت له بدلاً
أبعل التغلبية لا تطأها فلادينا أصبت ولا جمالا

(١) حنو العين عظم الحاجب المنحني على العين : وقيل حنوها ناحيتها : يهزء به
فيقول احفظ الغراب بعينك ، فان انصرفت عن مراقبته سقط عليها فأكلها :

وقوله له :

قيس وخندف إن عدت فعالمهم خير وأكرم من أبيك فعلا
إن حرّموك لتحرمنّ على العدا أو حلّوك لتؤكّلنّ حلّالا
ويقول للفرزدق :

زعم الفرزدق أن سيقتل مرّ بعا أبشر بطول سلامة يا مريع
ويقول معيرا إياه قتل الزبير بن العوام وهو في جوار قومه مجاشع :
فأدّوا حواويّ الرسول ورحله إلى أهله ثم افخروا بعدّ أو دعوّوا

كل هذه الخصال كفلت لشعر جرير السيرة والذوق ، وجعلت منه
أبرع هجاء عرفه الأدب العربي في مهاجمة الأفراد . فلم يعرف الأدب العربي
شاعرا تعرض له مثل هذا العدد الضخم من الشعراء الذين تعرضوا لجرير ،
فكان لا يمل الرد عليهم ولا يضيّق به . وكأن مواهب هذا الرجل الشعرية ،
لم تكن تسخو وتجوّد إلا على الهجاء .

ملاحظة :

في الأبطال قدس كوا ومن
كاله ما تشبهه زاء زاء
ويقال للفرزدق :
كاله كاه تشبه تشبه
أن كاه كاه تشبه تشبه
وأن كاه كاه تشبه تشبه

في نسخة أخرى : زعم الفرزدق أن سيقتل مرّ بعا أبشر بطول سلامة يا مريع
ويقول معيرا إياه قتل الزبير بن العوام وهو في جوار قومه مجاشع :
فأدّوا حواويّ الرسول ورحله إلى أهله ثم افخروا بعدّ أو دعوّوا

الفـرزـدق

الحديث عن جرير لا بد أن يستدعي الحديث عن الفرزدق ، فهما صنوان لا يفترقان ، ربطت بينهما الأقدار في الذئابة ، فكان مولدهما في عامين متتارين ، سبق إليه الفرزدق ببضع سنوات ، وربطت بينهما في الوفاة فماتا في عام واحد ، وربطت بينهما في النسب فكانا من قبيلة واحدة ، وربطت بينهما بعد كل ذلك في هذا التلاحم والتنافس ، الذي دام بينهما نحواً من أربعين عاماً ، يتهاجيان بما لم يتهاج بمثله شاعران في جاهلية أو إسلام ، كما يقول ابن سلام .

ويتفق الذين أرخوا لهما على أنهما ماتا في عام واحد ، ثم يختلفون في تحديده ، بما لا يسبق عام ١١٠ هـ ، ولا يتأخر عن ١٤٤^(١) . ويرجح أبو الفرج أن تكون وفاتهما في عام ١١٤ هـ ، لأن للفرزدق شعراً في يوم كاظمة (١١٢ هـ) ، ولا بد أن تتأخر وفاته عنه . ويؤيد ما يذهب إليه أبو الفرج أن الفرزدق مدح خالد بن عبد الملك بن الحكم وإلى المدينة ، وخالد هذا قد وليها عام ١١٤ هـ . ويتفق المؤرخون كذلك على أنه جاوز التسعين . ويؤيد ذلك عندنا قوله في مقدمة قصيدة يمدح بها عبد الله بن عبد الأعلى بن أبي عمرة الشيباني .

سما لك شوق من نوار ودونها مَهَامِهِ غَيْرُ آجِنَاتِ الْمَنَاهِلِ^(٢)
ومن بعد أن أكملت تسعين حِجَّةً وفارقت عن حلم النُّهى كلَّ جاهل
وقول جرير في رثائه :

فقي عاش يبني المجد تسعين حجة وكان إلى الخيرات والمجد يرتقي

(١) العقد الفريد ٦ : ٢٢٢ ، ابن خلكان ٢ : ٢٦٥ ، الشعر والشعراء ١٧٦ و ١٧٩

(٢) المهامه جمع مهمه وهى الصحراء : المنهل الآجن الراكد الفاسد .

فمولد الفرزدق على ذلك حوالى عام ٢٤ هـ ، أو قبله بقليل .
ويؤيد ذلك قوله فى مقدمة قصيدة يمدح بها الوليد بن عبد الملك (٨٦ هـ — ٩٦ هـ) ، ويفهم من جوها أنها فى أوائل عهده بالخلافة :
ألم يك جهلا بعد ستين حجة تذكروا أم الفضل والرأس أشيب
ويؤيد ذلك أيضا قوله فى مقدمة قصيدة يمدح بها يزيد بن عبد الملك
(١٠١ هـ — ١٠٥ هـ) .

تقول أما ينهاك عن طلب الصبا لداتك قد شابوا وإن كنت أكبرا
من ابن الثمانين الذى ليس واردا ولا جائيا من غيبة مُنْظَرًا
وقوله بعد ذلك فى مدح هشام بن عبد الملك (١٠٥ هـ — ١٢٥ هـ) ،
ولا بد أن يكون فى أول ملكه :

زمتنى بالثمانين اللىالى وسهم الدهر أصوبُ سهم رامى
نستطيع إذن أن نطمئن إلى هذا التاريخ ، الذى يصور الفرزدق أسن
من جرير يبضع سنوات ، وأن يرفض ما يتعارض معه من الروايات ، مثل
قول صاحب الأغاني ^(١) « حج الفرزدق بعد ما كبر وقد أذنت له سبعون سنة ،
وكان هشام بن عبد الملك قد حج فى ذلك العام » . فالمعروف أن هشاماً حج
عام ١٠٦ هـ . فمولد الفرزدق على هذه الرواية عام ٣٦ هـ وهو مناقض لما يروى
أبو الفرج نفسه فى موضع آخر ^(٢) ، من أن الفرزدق كان يجيد الهجاء فى
أيام عثمان (٢٣ — ٣٥ هـ) . ومناقض كذلك لما يروى فى موضع ثالث من ^(٣)
أن أباه وفد به على على بن أبى طالب بعد موقعة الجمل (٣٦ هـ) ، فقال له :
إن ابني هذا من شعراء مضر فاسمع منه . فقال له : عليه القرآن .

(١) الأغاني ١٩ : ٤٠

(٢) الأغاني ١٩ : ٦

(٣) الأغاني ١٩ : ٤٠

وإذا كانت الأقدار قد ألفت بين جرير والفرزدق من وجوه ، فقد خالفت بينهما من وجوه أخرى ، فكانا متناقضين من نواحي كثيرة . فجرير حامل الأجداد ، شديد الشعور بنقصه ، ساخط على القدر الذي لم يحج به إلى الدنيا إلا عن طريق أبيه ، وهو عاق له ، ضيق به . أما الفرزدق فهو عظيم الأب والجد ، شديد الشعور بامتيازته وتفوقه ، راض عن آباءه ، شديد الفخر بهم . وجرير رقيق القلب ، عميق الإيمان ، ليس في سيرته خروج على الدين أو العرف . وهو مسالم ، حسن العلاقة بالولاة والحكام والناس . أما الفرزدق فهو غليظ القلب ، لم يدخل الإسلام نفسه ولم يتغلغل فيها ، ففي سيرته خروج على العرف والدين . وهو جلف جاف كثير الخلاف ، مولع بالمشاكسة والمراء . ولذلك ساءت علاقته بالولاة جميعاً . وكان جرير لرقته وإيثاره حياة الوداعة والهدوء لا يتكسب بالهجاء . وكان يبتذل نفسه في السؤال ، ويهينها في سبيل المال . أما الفرزدق فكان شديد الاعتداد بشخصه ، يفرض نفسه على الناس فرضاً ، ويسألهم في عنف ، وكأنه يرى في مالهم حقاً له ، ويهجوهم إذا امتنعوا عنه وأبوا أن يبدلوا له . وهو كذلك شديد الاعتداد بنفسه حين يسأل الخلفاء والولاة ، لا يترسل إليهم إلا بنسبه ومكانته من قبيلته . وكان جرير زبيرى الهوى قيسى النزعة ، يمثل الحزب اليربوعي من تميم . أما الفرزدق فكان لا يعتد بغير قبيلته ، ولا يفكر إلا في حسبه وشرف أجداده ، فهو يمثل حزب الأحنف من تميم .

وجد الفرزدق في جرير منافساً خطيراً له حين نبغ في الشعر ، ورآه يسرع إلى المجد ، وقد أوشك أن يبتلع كل من اعترض طريقه من شعراء تميم ، حتى كاد يحتل من القبيلة مكان الشاعر الأول ، ففسده هذا الرجل التباه بنفسه ، ووقف في طريقه ، ليضع حداً لتقدم هذا الخامل ، الذي يريد أن يحتل بشعره من تميم مكاناً يناافسه به . وقد يتحدث الرواة عن بعض الأسباب المباشرة لتهاجي هذين الشعارين ، ولكن المدقق لقراءة شعرهما وماتبادلاً من نقائص ، يحس

أن التنافس على الزعامة الشعرية في القبيلة، والنزاع حول شرف الدفاع عنها هو الدافع الأول إلى هذه المعركة الشعرية الخطيرة، التي لم تنته إلا بموت الفرزدق. يقول الفرزدق مخاطباً جرير:

واسأل بنا وبكم إذا وردت رمي أطراف كل قبيلة من يُسمع
صوتك وصوتك يخبروك من الذي عن كل مكرمة لخندف يدفع^(١)
ويقول له:

ستعلم يا حيض المراغة أيننا له حين يدعو من تميم قماقمه
ألم تعو عن قيس بن عيلان باسطاً إليهم يدي مستطعم لا تطاعمه
بأعراض قوم خندفين منهم لؤي بن فهر السعود ودارمه
ويقول له:

منعت تيمياً منك، إني أنا ابنها وراجلها المعروف عند المواسم
أنا ابن تميم والمحامي وراءها إذا أسلم الجاني ذماراً المحارم
ونلاحظ هذا التنافس كذلك حين يعرض الشاعران لذكر سعد — وهي
من أشرف فروع تميم وأكبرها، فيها الزبرقان بن بدر والأحنف بن قيس —
حيث نرى أن كلا منهما يحاول أن يكسب تأييدها، وأن يضمها إلى جانبه.
يقول جرير في بعض نقائضه.

ولم أنس من سعد بقصوان مشهدا وبالأدنى ما دامت العين تطرف
وسعد إذا صاح العدو بسرّحهم أبوا أن يهدّوا للصياح فأزحفوا
ديار بني سعد ولا سعد بعدهم عفت غير أنقاء بيئرين تُعرف
إذا نزلت أسلاف سعد بلادها وأثقال سعد ظلت الأرض ترجف

(١) خندف زوجة إلياس بن مضر. وهي الأم التي يجتمع عندها تميم وقريش.

فيجيبه الفرزدق بقوله :

تُبَكِّيَّ على سعد وسعد مقيمه بغيرين منهم من يزيد ويضعف
على ما وراء الردم لودكَّ منهم لماجوا كما ماج الجرادُ وطوفوا^(١)
فهم يعدلون الأرض لولا هم استوت على الناس أو كادت تسير فتُنسف
ولو أن سعداً أقبلت من بلادها لجاءت بغيرين الليالى تزحف

كان الفرزدق عميق الإحساس بتفوقه وامتيازه . فجده صعصعة بنحي الوئيدات ، الذى جعل على نفسه أن لا يسمع بموءودة إلا فداها ، جاء الإسلام وقد فدى ثلاثمائة موءودة أو أربعمائة فيما يقول الرواة . وأبوه غالب الذى يذهب فى كرمه إلى حد الإسراف والإتلاف ، يعطى الناس ولا يسألهم فيم يسألونه ، ويبلغ به جنون الكرم والحرص على التفوق فيه أن يعقر كل أبله ، وهى تتجاوز المائة ، بل تبغ أربعمائة فيما يرى بعض الرواة ، فينهبها الناس منافسة لرجل منهم سولت له نفسه أن يجاريه ويضاهى تمسه به^(٢)

وقد كان الفرزدق يحس هذا الامتياز منذ نشأته ، فهو طموح على الهمة ويبدو ذلك فى القطعة ، التى يظهر أنها من أول شعره ، يخاطب بها أمه وقد أرسلته فى غم يرعاها - وكان غلاما - فأغار عليها الذئب فاخطف كبشاً ، فلما راح إليها لامته .

ولأتمنى يوماً على ما أتت به صروفُ الليالى والخطوبُ القوارع
فقلت لها فيئى إليك وأقصرى فأومُ الفتى سيف بوصليه قاطع^(٣)

(١) يقصد بالردم سد ذى القرنين الذى ورد ذكره فى سورة الكهف . بناء على أهل يأجوج ومأجوج ليكف أذاهم عن الناس . طوفوا خرجوا كالطوفان .

(٢) الأغاني ١٩ : ٣ - ٥

(٣) فيئى أى ارجعى . أوم الفتى ظهاؤه ورغبته . يقول إني لأتمنى الموت بسيف قاطع من إلحاحك فى اللوم .

تلم على أن صَبَّحَ الذئبُ ضأنها فالوى بكبشٍ وهو فى الرعى راتع
وقد مر حول بعد حول وأشهرٌ عليه بيؤسٍ وهو ظمآن جائع
فلما رأى الإقدامَ حزمًا وأنه أخو الموت من سُدَّتْ عليه المطالع
أغار على خوفٍ وصادف غرَّةً فلاقى التى كانت عليها المطامع
وما كنت مضياًعاً ولكن همتى سوى الرعى مفطوماً وإذ أنا يافع
أبيت أسوم النفس كل عظيمة إذا وطوتْ بالـكثيرين المضاجع

ويبدو هذا الطمرح الجرى، فى قصة قدومه على معاوية، مطالبة بميراث عمه الحُتات وكان قد قدم عليه وأخذ عطاءه ألف دينار، ثم لم يلبث أن مات. فرد معاوية عطاءه إلى بيت المال، فقدم عليه الفرزدق - وكان غلاماً - فقال :

أبوك وعمى يا معاوى ورثنا ثرائاً فيحتاز التراث أقباه
فما بال ميراث الحُتات آكلته وميراثُ حربٍ جامدٌ لك ذائبه
فلو كان هذا الأمرُ فى جاهليَّةٍ عامت من المولى القليلُ حلايئه^(١)
ولو كان هذا الأمرُ فى غير ملِككم لأداهُ لى أو غصَّ بالماء شاربه
وكم من أب لى يا معاوى لم يكن أبوك الذى من عبد شمسٍ يُقاربه

وقد صادف هذا الطمرح وهذا الشعور بالامتياز من طبع الفرزدق خشونة وجفاء، فبلغ به حد الجنون والمرض. فهو لا يرى أن قبيلته ستجد من يملأ فراغه ويحل محله إن مات :

ألا ليت شعرى ما تقول مجاشع إذا قال راعى النيب أودى الفرزدق

(١) الحلايب جمع حلبة بفتح الحاء وسكون اللام وهى الدفعة من الخيل فى الرهان .
القليل حلاييه أى الضعيف .

ألم أك أ كفيها وأحى ذمارها وأبلغ أقصى ما به متعلق
ويقول مفاخرأ بتحمل غرامات قومه :

أرى كل جانٍ من تميم إذا جنى لهم حَدَثًا كانت على جرائره
وقد علم الجانون أن ابنَ غالب لكل ديم قالوا هرقناه غارمه
وهو لا يدع الفخر بنفسه بين أيدي الملوك والأمراء حين يمدحهم .
يقول في قصيدة يمدح بها عمر بن عبد العزيز وهو والى الحجاز :

وقوم أبوهم غالب أنا ما لهم وعام تمشى بالفراء أرامله
ومجد أذود الناس أن يَلَحَقُوا به وما أحدٌ أو يبلغ الشمس نائله
أنا الخنذقي الخنظلي الذي به إذا جمعت ركباً جمع منازلها
أرى كل قوم ودَّ أكرمهم أباً إذا ما انتبى لو كان مناً أوائله
بل هو يقرن نفسه به حين يقول :

إليك ابن ليلى يا ابن ليلى تجوزت فلاة ودوايأ دفاناً مناهله^(١)

وينشد مع جرير على يزيد بن عبد الملك ، وبين يديه بنية له ، فيقول له
الفرزدق : إن يكن دارم يضرب فيها فهي أكرم العرب^(٢) .
ويقول في قصيدة يمدح بها مسمع بن المنذر بن الجارود .

لها سورة كان المعلى بنى لها مكارم ما كانت يدان تنالها
من الناس إلا من قریش ودارم إذا سبق الأيدي القصار طوالها
وقد ظل الفرزدق زماناً وهو تمتنع على خلفاء بني أمية ، يمدحهم من
بعيد ، ولا يرحل إليهم . وقد كان سليمان أول من رحل إليه من ملوكهم ،

(١) ليلى أم عمر بن عبد العزيز ، واسم جدة الفرزدق لآية ليلى كذلك . الفلاة
والداوى والدوى والدوكلها أسماء للصحراء . دفان المناهل أى مطمة سة من شدة الرياح
بها . فالسافر فيها لا يجد حاجته من الماء .

(٢) الأغاني ١٩ : ٧

فهو يقول في أول قصيدة مدحه بها :

فلو كان لي بالشلم مثل الذي جبتُ ثقيفٌ بأمصار العراق وأكثرا^(١)
 فقيل آتته لم آتته الدهر ما دعا حمامٌ على ساقٍ هديلاً فقرقرا^(٢)
 تركتُ بني حربٍ وكانوا أئمةً ومروانٌ لا آتيةً والمتخيراً
 أباك . وقد كان الوليدُ أرادني ليفعل خيراً أوليؤمٍ من أوجرا^(٣)
 فما كنتُ من نفسي لأرحل طائعاً إلى الشام حتى كنت أنت المؤمرا
 فحبك أغشاني بلاداً بغضةً إلى وروميّاً بعمانٍ أقشرا^(٤)

وهو لا يرى لنفسه وقيلته كفوا إلا قريشاً . يقول :

وليس بعدل إن سببتُ مقاعساً بآبائي الشم الكرام الخضارم
 ولكن عدلاً لو سببتُ وسبني بنو عبد شمس من منافٍ وهاشم

ويقول لابن الزبير ، حين احتكمت إليه النوار فحكم لها ، وتعرض
 الفرزدق بعد ذلك لابن الزبير بشعر أذنبه ، فقال له : يا ألام الناس ! هل
 أنت وقومك إلا جالية العرب ؟ يقصد بذلك إجلاء تميم عن تهامة قبل
 الإسلام بمائة وخمسين عاما لو ثوبهم على البيت واستلابه . فأجابه الفرزدق
 بأبيات بدأها بقوله^(٥) :

فإن تغضب قريشٌ ثم تغضب فإن الأرض ترعاها تميم

(١) مثل الذي جبت ثقيف يقصد الحجاج بن يوسف لأنه من ثقيف . يقول لو كان
 لي في الشام مثل ما يحب الحجاج من مال العراق ما أتيتها . وإنما جئت من أجلك .

(٢) القرقة صوت ترجيع الحمام وهديله .

(٣) الأوجر الخائف الوجل .

(٤) عمان من أعمال دمشق . سميت باسم عمان بن لوط عليه السلام . الاقشرا الأحمر

(٥) الأغاني ٩ : ٣٢٨

بل إنه لا يعدل بقميلته شيئاً ، ولا يرى لهم كفواً أو نظيراً . فلولاهم
اضاع الإسلام والمسلمون :

وأفضل من يمشى على الأرض حيناً وما ضمنت في الذاهبين قبورها
لنادون من تحت السماء عليهم من الناس طراشمسها وبدورها
أخذنا بآفاق السماء عليهم لما برها من دونهم وبجورها
ولو أن أرض المسلمين يحوطها سوانا من الأحياء ضاعت ثغورها
لنا الجن قد دانت وكل قبيلة يدين مصلوها لنا وكفورها
ويقول :

ولو أن أم الناس حواء حاربت تميم بن مر لم تجد من يجيرها
وقدم على يزيد بن عمير الأسدي — وكان على البصرة — فوقف على
بابه ، فأبطأ في الأذن له . فغضب الفرزدق وانصرف قائلاً :

ألم يك من نكس الزمان على آسته وقوفى على باب الوقاح أزاوله
فإن يك شرطياً فإني ابن غالب إذا جمعت ركباً فجع منازل
وكان الفرزدق يتكلف في حياته مظهر السادة ، فكان لا يرى إلا متقنعاً
— وكان القناع من سيما الرؤساء — قال الجاحظ : والقناع من سيما الرؤساء
والدليل على ذلك والشاهد الصادق والحجة القاطعة أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم كان لا يكاد يرى إلا مقنعاً (١) .

يقول له جرير :

وتقول ظبية إذ رأتك مقنعاً أنت الخبيث عمامة وإزارا

ويقول له :

وتقول جعثن إذ رأتك مقنعاً قبحت من أسد أبي أشبال

وقد كثرت الروايات واضطربت الأقوال في ميل الفرزدق السياسي ،
 فيعض هذه الروايات يصوره أمويا مروانيا ، وبعضها يصوره شيعيا .
 ويستطيع الباحث أن يجد لكل هذه الروايات ما يؤيدها من شعره . فما
 يصور زبيريته ، قوله يؤنب مالك بن مسمع بن شيبان بن شهاب لفراقه قومه
 — وكانوا زبيرية — وانضوائه لآل مروان :

عجيتُ لأقوامٍ تميمُ أبوهم وهم في بني سعد عِراضُ المبارك
 وكانوا سِراةَ الحى قبل مسيرهم إلى الأزد مُصَفراً لحاها ومالك
 ونحن نفينا مالكا عن بلادنا ونحن فقأنا عينه بالنيازك
 فما ظنكم يا ابن الحوارى مُصعبٍ إذا اقترَّ من أنيابه غيرَ ضاحك
 أبا حاضر إن يحضر البأس تلقى على سابعٍ إيزيمه بالسنايك
 وما يصور تشيعه ، القصيدة المشهورة التي تنسب إليه في مدح علي بن
 الحسين . وينكر بعض المؤرخين نسبتها إليه .

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحلُّ والحرم
 ويؤيد ذلك ما يروى عن تشيع أبيه وعمه أعين - أبي النوار - ^(١) أما
 الشعر الذى يصور مروانيته فهو كثير يملأ ديوانه . وهو فى رأينا لا يدل على
 شيء ، لأن كل الشعراء كانوا يمدحون الأمويين فى ذلك الوقت ، عن رغبة
 أو رهبة .

وإذا تتبعنا سياسته العصبية ، وجدناه يؤيد قبيلة كلب المعروفة بعصبيتها
 الأموية فى مثل قوله :

إذا انتجعت كلبٌ عليكم فكنوا
 لها الدار من سهل المباعة والشرب ^(٢)

(١) الأغاني ١٩ : ٦ - بقائض جرير والاخلط ٢٠٢

(٢) الانتجاع طلب الكلاء والمرعى . المباعة المنزل :

فإنهم الأحلاف والغيث مرة

يكون بشرق من بلاد ومن غرب

أشد جبال بين حين مرة

جبال أمرت من تميم ومن كلب^(١)

وقوله :

وإننا وكلباً إخوة بيننا عرى من العقد قد شد القوى من غيرها

فمن يأتنا يرجو تفرق بيننا يلاق جبلا دون ذاك وغورها

تجبر على كلب فيمضى جوارنا ويعقد من كلب علينا مجيرها^(٢)

ويهاجم قيسا مهاجمة صريحة في مثل قوله :

رمى الله فيما بين قيس وبيننا على كل حال بالعداوة والبعد

وزادهم رغباً وعضت رقابهم بأيدي تميم مصلتاب من الهند

ولكنه يعتز بهم ويربط بينهم وبين قومه في مواضع أخرى فيقول :

إذا خندق بالابطحين تظرفت ورأى وقيس ذيلت بالمشرق

فما أحد إلا يرانا أمامه وأربابه من فوقه حين فلتق

ومن يلق بحرنا إذا ما تناطحا بخندق أو قيس بن عيلان يفرق

هما جبلا الله اللذان ذراهما مع النجم في أعلى السماء المحلق

فتحنا بإذن الله كل مدينة من الهند أو باب من الروم مغلق

(١) المرة بكسر الميم وتشديد الراء القوة : أمر الجبل أجاد قتله : يقول إن الحلف

الذى بين قومه وبين كلب قوى متين

(٢) يقول إذا أجرنا كان لجوارنا حرمة عند كلب . وكذلك هي تجبر علينا فتنفذ

ما عفدت ونحترم جوارها .

ويقول :

إذا زخرت قيسٌ وخندفٌ والتقى صمياهما إذ طاح كلُّ صميم
وما أحدٌ من غيرهم بطريقهم من الناس إلا منهمُ بمقيم
إذا مضى الحمراء يوماً تعطفتُ على وقد دقَّ اللجامُ شِكيمي
أبوا أن أسومَ الناسَ إلا ظُلامةً وكنتُ ابنَ ضرغامٍ العدوَّ ظلوم
ويهاجم اليمنية متعصبا لقيس ، حين قتل المنذر بن الجارود عمر بن يزيد
الأسيدى . ويبلغ من عنفه في ذلك ، أن يهاجم الخليفة هشام بن عبد الملك ،
الذى يحمى هذا الحزب اليمنى ويتهدده .

فمن مبالغ بالشام قيسا وخندفا أحاديث ما يُشفى بيرة سقامها
أحاديث منا نشتكها إليهم ومظلمة بغشى الوجوه ظلامها
فإن من بها لم يُنكر الضيم منهم فيغضب منها كهلها وغلامها
يعدُّ مثلها من مثلهم فينكلا فيعلم أهل الجور كيف انتقامها
بغلباء من جمهورها مضرية تُزِيلُ فيها أذرع القوم لامها
فغير : أمير المؤمنين فإنها يمانية حمقاء أنت هشامها

والواقع أن مثل هذه الروايات المتنافرة ، وهذا الشعر المتناقض ، يسهل
فهمه إذا لم ناس ماقررنا من أن الفرزدق لم يكن يهب ولاءه وإخلاصه إلا
لقومه من تميم . وهو بعد هذا مستقل في تفكيره السياسى — إن جاز لنا أن
نستعير هذا الإصلاح المعاصر ، لذلك العصر الغابر — فهو ينقد كل شيء ،
ولا يتمسك بتأييد الدولة في كل سياستها ، ولكنه يهاجمها حين يبدو له أن
الولاة لا يسيرون سيرة عادلة ، وحين يرى أن سياسة الدولة أو الحكام ،
تعارض مع تميم .

وبينما نجد جريرا في مدائح يكثر من الشكوى ، ويبالغ في وصف
بؤسه وفقر أهله ، استدراراً للعطف ، واستكثاراً من العطاء ، نجد الفرزدق
لا يتوسل إلى ممدوحه إلا بكرمه ونسبه ، فهو يسألهم في إباء وترفع . يمدح
عبد الرحمن بن عبد الله بن شيبه الثقفي - وأمه أم الحكم ابنة أبي سفيان - فيقول :

وما ساقها من حاجة أجحفت بها إليك ولا من رقة في مجاشع
ولكنها اختارت بلادك رغبة على ما سواها من ثنايا المطالع^(١)

ويمدح الوليد بن عبد الملك ، فلا يتوسل إليه بفقره كما يفعل جرير ، ولكنه
يتوسل إليه بشرفه قائلاً .

أغثنى بكنهي من نزار ومقبلى فإني كريمُ المشرقين وشاعره

وهو يفرض نفسه على الناس ، فيطالبهم وكأنه يجبي ضريبة مفروضة
يدفعونها اتقاء شره . كانت مية بنت الصلت بن حريث بن جابر الحنفي تعطيه
في كل سنة خمسمائة درهما ، فلم يزل يجيء إليها مطالباً بها ، حتى خرج إليه ابن
أخ لها فطرده^(١) . وأتى خالد بن عبد الله القسري ، يستحمله في ديات حملها
فقال له : إيه يافرزدق ! كآني بك قد قلت : آتى الحائك ابن الحائك^(٢) ،
فأخذ من ماله إن أعطاني ، أو أذمه إن منعتني . فأنا حائك ابن حائك ولست
أعطيك شيئاً ، فاذمني كيف شئت . فهجاه الفرزدق بشعر كثير منه :

ليتني في بجيلة اللؤم حتى يُعزلَ العاملُ الذي بالعراق^(٣)

فإذا عاملُ العراقيين ولّى عدتُ في أسرة الكرام العتاق

(١) وما ساقها الضمير يعود إلى ناقته : الثنايا جمع ثني بكسر الفاء وسكون اللام
وهو النعطف في الجبل .

(٢) ديوان الفرزدق ٣٩٤

(٣) الحائك بن الحائك ، لأنه يعني واليمن تعبيراً باحتراف الحياة والملاحة . والعرب

تحقر أصحاب الصناعات كما قدمنا :

(٤) بجيلة قبيلة يمنية ينتسب إليها خالد بن عبد الله القسري وإلى العراق :

كان الفرزدق مغروراً شديداً بالاعتداد بنفسه . وقد جعله هذا الغرور عيباً للناس ، لا يعجبه شيء ، لأنه لا ينظر إليهم إلا مستخفاً ، ولا يراهم إلا دونه . وهو من هذه الناحية يشبه المتنبي شهاً كبيراً . كان الفرزدق يحس امتيازاً بآبائه وأجداده إلى حد الجنون ، وكان المتنبي يحس امتيازاً بمواهبه ، ويغلو في تقديرها إلى حد الهوس والخيال . وقد أسرف المتنبي في هجماء الناس حتى قتله الهجماء ، وأسرف الفرزدق في الهجماء فعرضه ذلك لشرم متصل ، فلم يكن إلا سجيناً أو فاراً من السجن ، لا جناً إلى من ينفذه منه . وقد ساءت علاقته بكل ولاية العراق ، ولم يسلم من هجماء منهم أحد . هجماء زياد بن أبيه ، وظل طول حياته فاراً منه ، لم يستقر حتى مات . ثم هجماء الحجاج من بعده ، وهجماء عمر بن هبيرة ، وهجماء خالد بن عبد الله القسري بل لقد هجماء الخليفة هشام بن عبد الملك ، حين حج معه فلم يعطه إلا خمسمائة درهم ، فقال فيه :

يُرَدُّنِي بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالَّتِي إِلَيْهَا قُلُوبُ النَّاسِ يَهْوِي مُتَبِئُهَا
يُقَلِّبُ عَيْنًا لَمْ تَكُنْ خَلِيفَةً مَشْوَّهَةً حَوْلَاءِ بَادٍ عِيُوبُهَا^(١)
وقال فيه :

لَيْسَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَمِيرُكُمْ وَبِئْسَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هِشَامُ
تَنَائِكُ عَيْنَاهُ إِذَا مَا لَقِيَتْهُ تَبَيَّنَ فِيهِ الشُّؤْمُ وَهُوَ غَلَامُ
وقال لزياد حين تهدده ، لهجماء بني فقيم ، فهرب منه إلى سعيد بن العاص بالحجاز :

أَلَا مَنْ مَبْلَغُ عَنِي زِيَادَا بِأَنِّي قَدْ لَجَأْتُ إِلَى سَعِيدٍ
وَأَنِّي قَدْ فَرَرْتُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ إِلَى ذِي الْمَجْدِ وَالْحَسْبِ التَّلِيدِ

(١) كان هشام بن عبد الملك أحول .

إِذَا لَرَجُوتُ الْعَفْوَ مِنْكَ وَرَحْمَةً وَعَدَلَ أَمَامَ بِالرَّعِيَّةِ رَائِفَ
فَإِنْ أَلْكَ مَحْبُوسًا بِغَيْرِ جَرِيرَةٍ فَقَدْ أَخَذُونِي آمَنًا غَيْرَ خَائِفِ
وَمَا سَنُونِي غَيْرَ أَنِّي ابْنُ غَالِبٍ وَأَنَّى مِنَ الْأَثَرَيْنِ غَيْرِ الزَّعَانِفِ (١)
وَأَنَّى الَّذِي كَانَتْ تَعُدُّ لِنُغْرَهَا تَمِيمٌ لِأَبْيَاتِ الْعَدُوِّ الْمُقَاذِفِ
وَكَمْ مِنْ عَدُوٍّ دُونَهُمْ قَدْ فَرَسَتْهُ إِلَى الْمَوْتِ لَمْ يَسْطَعْ إِلَى السِّمِّ رَائِفِ
وَإِنِّي لِأَعْدَاءِ الْخُنَادِفِ مِدْرَةٌ بِذَحْلِ غَنَى بِالنَّوَائِبِ كَالْفِ
لِجَامُ شَجَنِي بَيْنَ اللَّهَاتَيْنِ مِنْ يَقَعِ لَهُ فِي فَمٍ يَرْكَبُ سَبِيلَ الْمَتَاكِلِ
وَإِنْ غَبْتُ كَانُوا بَيْنَ رَاوٍ وَمَحْتَبٍ وَبَيْنَ مَغِيبٍ قَلْبُهُ بِالشَّنَائِفِ (٢)
وَبِالْأَمْسِ مَا قَدْ حَازَرُوا وَقَعَ صَوْلَتِي فَصَيَّفَ عَنْهَا كُلُّ بَاغٍ وَقَاذِفِ (٣)
وَقَدْ عَلِمَ الْمُقَرُونُ بِي أَنَّ رَأْسَهُ سَيَذْهَبُ أَوْ يُرْمَى بِهِ فِي النِّفَانِفِ (٤)
أَرَى شَعْرَاءَ النَّاسِ - غَيْرِي - كَأَنَّهُمْ بِمَكَّةَ قُطَّانُ الْحَمَامِ الْأَوَالِفِ
وَلَوْ كُنْتُ أَخْشَى خَالِدًا أَنْ يَرُوْعَنِي لِطَرْتُ بُوَافٍ رِيْشُهُ غَيْرَ جَادِفِ (٥)
كَمَا طَرْتُ مِنْ مَصْرَى زِيَادٍ وَإِنِّهِ لَتَصْرِفُ لِي أَنْيَابُهُ بِالْمَتَاكِلِ
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَرَى فِي مَخْيَسٍ قَصِيرَ الْخَطَا أَمْشِي كَمَشَى الرُّوَاسِفِ (٦)

-
- (١) الأثرين جمع الأثرى وهو الكثير العدد . أصل الزعانف أجنحة السمك ثم أطلقت على الدّعى الملقق الذى ليس بصريح النسب .
(٢) يقول إنهم - مع سابق صنيعي - إن غبت كانوا بين راوٍ لهجائي أو محتبٍ يسمع ماهجيت به أو مضمّر للشحناء . والشنائف البغضاء والفعل شنف له وشنفه .
(٣) صيف وصاف أى عدل عنها .
(٤) النّفنف الجبل القائم كأنه الحائط . أو هو المهوى بين جبلين .
(٥) جدفه قطعه . وجدف الطائر طار وهو مقصوص الجناحين .
(٦) التخيس التذليل والمخيس السجن لأنه يندل .

أبيت تطوف الزُّطَّ حولي بِجُلُجُلٍ على رقيبٍ منهم كالمُحَايفِ^(١)
وقد كان الفرزدق لا يدعى إلى وال أو أمير إلا خاف وتوقع الشر .
عبث به رجلان فقالا له : أجب . الأمير يدعوك — وهما يلعبان معه —
فهرب وترك رداءً معهما . ثم قال فيهما :

وما كنتُ لو فرقتاني كلاكما بأكما عريانتين لأفراقا
وابكما فرقتاني بضيعم إذا ما رأى قرناً أبناً ودقدا^(٢)
وكان خوفه الشديد يلجئه في كثير من الأحيان إلى التقرب من الشرط
فيمدحهم بشعر غث ضعيف استجلاباً لرضائهم^(٣) وهو بعد هذا كثير
ذكر الخوف في شعره . وخير ما يتصوره في ممدوحيه من الفضائل ونبل
الصفات ، أنهم يرمون الخائفين . ولم تسكد مدحة من مدائحه تخلو من طلب
الأمان أو الحماية .

يتول لبشر من قصيدة يمدحه فيها .

لو أننى كنتُ ذا نفسين قد هلكت إحداهما كانت الأخرى لمن غربا
إذن لجئتُ على ما كان من وجلي وما وجدتُ حذاراً يغلب القدرا
كلُّ أمرئٍ آمنٍ للخوفِ آمنه بشرُ بن مروان والمذعورُ من دَعْرَا
ويقول في مدح الوليد بن عبد الملك .

وكم من كريم يشتكى ضعفَ عظمه أقت له ما يشتكى بالسقائف^(٤)
وآمنته مما يخاف إذا أوى إليك فأمسى آمناً غيرَ خائف

(١) الزط هم السباحة وهم قوم من السند كانوا بالبصرة جلاوزة (جمع جلواز وهو الشرطي) وحراس سجن . الجلجل الجرس الصغير والجلجلة التحريك وشدة الصوت

(٢) أبناً أقام . دقق سمع له صوت وجلبة .

(٣) الديوان ص ٦٦١ و ٨٧٦ .

(٤) السقائف الجبائر التي يوضع فيها المعضو المكسور .

ويقول في مدح سليمان بن عبد الملك .
 سليمان غيثُ الْمُحَلِّينَ وَمَنْ بِهِ عَنْ الْبَائِسِ الْمُسْكِينِ حَلَّتْ سِلَاسِلُهُ
 ويقول في مدح يزيد بن عبد الملك :
 وَلَا جَارَ بَعْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي وَضَعْتُ إِلَى أَبْوَابِهِ رَحْلَ خَائِفٍ
 إِلَى خَيْرِ جَارٍ مُسْتَجَارٍ بِجَبَلِهِ وَأَوْفَاهُ حَبْلًا لِلطَّرِيدِ الْمُشَارِفِ^(١)
 ويمدح المهلب فيقول :
 كَانَ الْمَهْلَبُ لِلْعِرَاقِ وَقَايَةً وَحَيَا الرَّبِيعِ وَمَعْقِلَ الْفُرَّارِ^(٢)
 ويمدح الوليد بن يزيد بن عبد الملك بقوله :
 مِنْ يَأْتِ رَابِئَةَ الْوَلِيدِ وَدِفْنَهَا مِنْ خَائِفٍ لَجْرِيرَةٍ لَا يُضَرَّرُ
 ويمدح أسد بن عبد الله القسري لا نقاذه من سجن خالد فيقول :
 رَمَى بِي إِلَيْهِ الْخَوْفُ حَتَّى أَتَيْتَهُ وَقَدْ بَمَتَّعُ الْحَامِي إِذَا مَا تَمَنَّعَا
 بِهِ حَطَمَ اللَّهُ الْقِيُودَ وَأَوْمِنْتَ مَخَافَةَ نَفْسٍ طَوَمَنْتَ أَنْ تَفَرَّعَا
 فَمَا يَجْنَى لَا أَخْشَى الْعَدُوَّ وَلَا أَزَلَّ عَلَى النَّاسِ أَعْلَوْفِي ذُرَى الْمَجْدِ مَفْرَعَا
 وشعر الفرزدق الذي صور فيه خوفه وحاله في السجن من أروع الشعر
 وأجمله . يقول للوليد بن عبد الملك مصوراً خوفه من الحجاج .
 وَقَدْ خَفْتُ حَتَّى لَوْ أَرَى الْمَوْتَ مُقْبِلًا لِيَأْخُذَنِي وَالْمَوْتَ يَكْرَهُ زَائِرُهُ
 لَكَانَ مِنَ الْحَجَّاجِ أَهْوَنَ رَوْعَةٍ إِذَا هُوَ أَغْضَى وَهُوَ سَائِمٌ نَوَاطِرُهُ
 أَدِيبٌ وَدُونِي سَيِّرُ شَهْرٍ كَأَنِّي أَرَاكَ وَلَيْلٌ مُسْتَحِيرٌ عَسَاكِرُهُ^(٣)

(١) المشارف الذي أشرف على الهلاك .

(٢) الحيا هو المطر .

(٣) عساكره ظنمته واستعارتها ثبوتها .

ذكرت الذى بينى وبينك بعد ما رعى بى من نجدى تهامة غارهُ
فأيقنتُ أنى إن نأيتك لم يردْ بى النأى إلا كلَّ شىء أحاذره
وأن لو ركبْتُ الریح ثم طلبتُنى لكنت كسئء أدركته مقادره
فلم أر شيئاً غير إقبالِ ناقى إليك وأمرى قد تعييت مصادره
وما خاف شىء لم يمت من مخافة كما قد أسرت فى فؤادى ضميره
أخاف من الحجاج سورة خدرِ ضوارب بالأعناق منه خوادِرُه
ويقول مصوراً رهبة الحجاج فى نفوس الناس .

إذا مابدا الحجاج للناس أطرقوا وأسكت منهم كل من كان ينطق
فما هو إلا بائل من مخافة وآخر منهم ظل بالريق يشرق
وطارت قلوب الناس شرقاً ومغرباً فما الناس إلا مهجس أو ملق (١)
ويقول لمالك بن الجارود مصوراً حاله فى سجن خالد ، متبرأ من هجائه
وإذا حملت إلى الصلاة كأنى عبء يميل بعدله المعدول
يمشى الرجال به على أيديهم لله در مقيد محمول
إن القرى سجن مع نيرانه عن كل نازل جنبه ودخيل (٢)
قد كنت أطعمهن كل سمينه للطارقين بأسرع التعجيل
يامال هل لك فى أسير قد أتت تسعون فوق يديه غير قليل (٣)
فجز ناصيتى وتفرج كركبى عنى وتطلق لى يداك كبولى (٤)

(١) الهجس الصوت الخفى تسمعه ولا تفهمه . اللقطة اضطراب الصوت .

(٢) الجنبه الضيف الذى ينزل فى ناحية من البيت . والدخيل الضيف الذى ينزل داخل

البيت .

(٣) يامال يخاطب مالك بن الجارود . مال ترخيم مالك .

(٤) يطلب منه الفرزدق أن يقص شعر رأسه ويطلقه . وجز الناصية عند العرب

فيه معنى الاذلال . وكذلك كانوا يفعلون بأسراهم إذا منوا عليهم باطلاقهم .

يامال هل أنا مُهاكى مالم أقلُّ ولْيُعْرَفَنَّ من القصائد قبلي
ويقول له من قصيدة يمدحه بها :
وكيف بمن خمسون قيداً وحلقةً عليه مع الليل الذي هو أدهم
أبيت أقاسى الليلَ والقومُ منهمُ معي ساهرٌ لى لا ينامُ ونومُ
ولو أنها صُمُّ الجبال تحمَّلتُ كما حملتُ رجلاى كادتُ تحطَّمُ
وعلمنى مشىَّ المقيدِ خالدٌ وما كنتُ أدنى خطوه أتعلَّمُ
أقول لرجلىَّ اللتين عليهما عرّى وحديدٌ يجبسُ الخطو أبهم
أما فى بنى الجارود من رايح لنا كما راح دُفَاعُ الفرات المثلَّمُ
ويقول أيضا مصورا حاله فى سجن خالد ، متبرأ من هجائه ، حين احتقر
النهر الذى سماه المبارك من قصيدة يمدحه بها .

ألا تذكرون الرحمَ أو تقرِّضونى لكم خلقاً من واسع الحلم ماجد
يقول لى الحدادُ هل أنت قائمٌ وهل أنا إلا مثلَ آخر قاعد^(١)
كأننى حرورىُّ له فوق كعبه ثلاثون قيداً من قرّوضٍ ملاك^(٢)
ورايِ علىَّ الشعرَ ما أنا قلتهُ كعترضٍ فى الرمح دون الطرائد^(٣)
ويقول من قصيدة يمدح بها هشام بن عبد الملك :

إذا قلتُ للحراس هل ليلتى دنتُ من الصبح أو كانتْ جنوحاً نجوماً
يقولون ما ينزلن إلا تنزلاً بطيئاً ومسوداً علينا أديما
فليت مكان الأربعين التى لها بساقى آثارٌ مبینٌ وشومها

(١) الحداد السجان لأنه يحذ الناس والحد المنع .
(٢) الحرورية الخوارج . قروض قيد يقرص ويعض فى الرجل . الملاكد الملازم .
(٣) الطرائد جمع طريدة وهى ما طردت من وحش أو غيره . يشبه نفسه بالذى
يعترض دون الطريدة فيصاب بالرمح خطأ وليس هو بالمقصود .

أخا نجدد عندى أخوه فجعته به والمنايا جانباً حثومها^(١)
فنازلى بالسيف عنه ودونة مع السيف خضب الأرض بادٍ شكيمة
كان الفرزدق أعرابياً جافياً غليظ الطبع . وتبدو هذه الغلظة وهذا الجفاء
فى فنه وفى حياته على السواء . أما فنه فالخشونة بادية فى ألفاظه وفى صوره .
فالكلمات تبدو فى شعره قلقة متنافرة ، وكأنه يجمعها بقوة واقتداره ، شاءت
أو لم تشأ . فهو يؤلف بينها متعسفاً ، وكأنه ينحت من صخر كما كان يقول
النقاد القدماء فى تصويره . وقد كان يقول : أنا أشعر الشعراء ، وقد يأتى على
وقت وقلع ضرس أهون على من بيت شعر . وذلك صحيح . ولسكننا نضيف
إليه أن الشعراء يدعون الإنشاء فى مثل هذه الأوقات ، حتى تصفو نفوسهم
وتسخو قرائحهم . وهم يجعلون الرغبة فى قول الشعر هى الذريعة إلى إنشائه ،
كما كان يقول أبو تمام فى وصيته للبحترى . أما الفرزدق ، فقد كان يمضى مكابراً
ويجتلب الشعر من غير وجهه ، فيبدو وكأنه يقتلعه من نفسه اقتلاعاً ، أو كأنه
يقلع أضراسه على حد تصويره . ولذلك كثرت المعاطلة فى شعره . انظر إلى
تراكب الألفاظ فى مثل قوله حين يتبرأ مما نسب إليه فى هجاء المبارك .
فلا رفعت إن كنت قلت التى رَوُوا على ردائى حين ألبسه يرى
يريد أن يقول : فلا رفعت يدى ردائى حين ألبسه إن كنت قلت التى
رووا على .

وفى قوله يمدح يزيد بن عبد الملك .

فلا أمَّ إلا أمَّ عيسى علمتها كأملك خيراً أمهاتٍ وأمجداً

(١) الحثوم جمع حتم بفتح الحاء وسكون التاء وهو التضاء . الجانب الذى لا ينقاد
والغريب . وجانبه مشى إلى جنبه . الحضب بكسر الحاء وسكون الضاد نوع من الحيات
أو ذكرها الضخم . الشكيم الأنفة والانتصار من الظلم . يقول ليت لى مكان هذه القيود
فارسا ينازلى ثائراً لآخيه الذى قتله فجعته به ، ينازلى بسيفه ، ومن دونه حية ضخمة
أبدت شراستها .

وفي قوله يمدح الوليد .

إلى ابن الإمامين اللذين أبوهما إمام له لولا النبوة يُسجد

وفي قوله يمدح أيوب بن سليمان بن عبد الملك .

تجاوزت عنهم فضل حلم كما عفا بمسكن والهندي تلو ذكورها

أبوك جنوداً بعد ما مرّ مصعب تفلّد عنه وهو يدعو كثيرها

وانظر إلى الارتباك الذي يبدو في رثائه لمحمد بن يوسف ومحمد بن الحجاج

ابن يوسف ، وقد مانا في جمعة واحدة ، على ما في الأبيات من تضمين قبيح .

لئن صير الحجاج ما من مصيبة تكون لمرزوء أجل وأوجعا

من المصطفى والمصطفى من ثقاته خليليه إذ باناً جميعاً فودّعا

... فلا صبر إلا دون صبر على الذي رزئت على يوم من البأس أشنعا

على ابنك وابن الأم إذ أدركتهما الـ منايا وقد أفنين عاداً وتبعا

وإلى قوله في هجاء طيء .

وما طيء إلا بجوس كأنهم بهائم تلو الأمهات فحولها

وما تلکم إلا بجوس نساؤها بناتهم آباؤهن بؤولها

وانظر إلى كثرة الضمائر وتراكمها واضطرابها في قوله :

ولكن أبوها من لؤي بن غالب مناف له منها من المجد كاهله

ملوك وأبناء الملوك اتتهم من الله بالفرقان منه رسائله

وانظر إلى الالتواء المتعب ، الذي يجعل شعره أقرب للأحاجي والألغاز

في قوله يمدح جميل بن حمران الفزاري .

أنت ابن أم أمري تنمي إذا نسبت حيث انتمت بأبيها بنت حسانا

نالت به الشمس لو كادت تناولها بالمجد إن كان مجده عندها كانا

لم يوهب الفرزدق ما وهب جرير من سلامة في الذوق ، وامتياز في الحس اللفظي ، فألفاظه كالصخر دائماً ، ولذلك كان أكثر ما يصادفه التوفيق إذا افتخر . انظر إلى قوله في قصيدته المشهورة (عزفت بأعشاش) حين يصور كرم قومه وقت الجذب ، كيف يصف العراصف العاتية ، فيخيل إلى السامع أن العالم قد أوشك على نهايته ، وأن الأرض قد زلزلت زلزالها ، وأخرجت أثقالها . فالسما قد اغبرت آفاقها ، والرياح الحمراء تهجم على البيوت في عنف فتتكشف ستورها . وذعرت النوق الضخمة التي امتلأ سنامها بالشحم ، فاندفعت تتبعها صغارها ، تقطع في طريقها الحبال التي شدت إليها البيوت . وشغل عنها راعيها في هذا البرد القارص ، فهو يياشر النار بصدرة وبكفيه ، لا يتحرف عنها ، ولا يحس لذعها وحرارتها . وظهر نجم الشعري في السماء ، ينذر بشتاء شديد ، وجذب يتقشر منه وجه الأرض . وبدأت الثلوج تنساقط على أسنمة الإبل ، تعلوها كأنها قطن مندوف . وأجهد البرد الكلاب ، فاندفعت إلى النار تقايل عنها أصحابها لتربض فيها . فإذا انتهى الفرزدق من هذا التصوير الرائع لشدة البرد ، وقسوة الجذب ، قال : في مثل هذه الأزمات ، تجدنا أكرم الناس وأكثرهم بذلاً للضيفان :

إذا اغبرت آفاقُ السماء وكشفتُ كسورُ بيوتِ الحَيِّ حمراءَ حَرَجَفْ^(١)
وهتكتِ الإطنابَ كلُّ عَظِيمَةٍ لها تَامِكٌ من صادقِ النَّيِّ أَعْرِفْ^(٢)
وجاء قريعُ الشَّوْلِ قبلَ إِفَالِها يَزِفُّ وراحتَ خَلْفَها وهي زَفَفْ^(٣)

(١) آفاق السماء جوانبها . الكسور جمع كسر وهو ما وقع على الأرض من الحياء . الحرجف الريح الشديدة .

(٢) الإطناب الحبال التي يشد بها الحياء . التامك السنام العظيم ، التي الشحم . أعرف مرتفع .

(٣) القريع فعل الإبل . الشول الإبل التي جفت ألبانها . إفالها صغارها . يزف بعدو مسرعاً .

وبأشمر راعيها الصلّا بلبّانه وكفّنه حرّ النار ما يتخرّف (١)
وأوقدت الشعري مع الليل نارها وأمست محولاً جلدّها يتوسّف (٢)
وأصبح موضوع الصقيع كأنه على سروات النيب قطن مندق (٣)
وقاتل كلب الحى عن نار أهله ليربض فيها والصلامة كنف (٤)
وجدت الثرى فينا إذا يبس الثرى ومن هو يرجو فضله المتضيف (٥)

هذا التوفيق العجيب الذى يصادف الفرزدق فى الفخر ، وفى تصوير مناظر الصحراء ، وحياة البدو ، يحافيه وينحرف عنه ، حين يتغزل أو يرثى أو يعرض لما يحتاج إلى الرقة من فنون الشعر . أنظر إلى جفاء غزله ، حين يطلب إلى صاحبه أن تديه لأنها قد قتلتته ، فإن لم تفعل قتلها بالسيف .

فلم أر مقتولا ولم أر قاتلا بغير سلاح مثلها حين أقصدا
فإن لا تفادى أو تديه فلا أرى لها طالبا إلا الحسام المهندا
وحين يهددها بالتخليد فى جهنم ، لأنها تسفك دمه بغير جريرة .

يا ويح أخت بنى كنانة إنها لبخيلة بشفاء من لم يجرم
فلئن سفكت دما يغير جريمة لتخلد مع العذاب الألام

(١) الصلا النار . اللبان الصدر . يتحرف ينحرف عن النار ويحيد .

(٢) الشعري نجم يطلع فى أول الشتاء . وأمست يعنى الأرض . محولا من المحل وهو الجذب . يتوسف يتقشر من الجفاف وقلة المطر .

(٣) سروات النيب أسنمتها . النيب مسان الابل .

(٤) الصلا متكفف اجتمع عليه الناس وقعدوا حوله .

(٥) الفرزدق متأثر فى بعض صورته ومعانيه بطريقة حيث يقول :

إنا إذا ما الغيم أمسى كأنه سماحق ترب وهى حمراء حرجف
وجاءت بصراد كأن صقيعه خلال البيوت والمنازل كرسف
وجاء قريع الشول يرقص قبلها من الدفء والراعى لها متحرف
ترد العشار المنقيات شطبيها إلى الحى حتى يمرع المتصيف
تبئت إماء الحى تطهى قدورنا ويأوى إلينا الأشعث المتجرف

ولئن حملت رمى عليك لتحمين^(١) ثقلاً يكون عليك مثل يلمم^(٢)
 وإلى سوء اختياره للألفاظ ، مع تراكب العبارات ، في قوله يرثي الحجاج
 فلم أر يوماً كان أنكى رزيةً وأكثراً لظاً للعيون الذوارف
 من اليوم للحجاج لما غدوا به وقد كان يحمى مضلعات المسكالف
 فاختياره لكلمة (لط) هنا ، على ما فيها من ثقل ، غير موفق . وسوء
 اختيار الفرزدق للكلمات ، وبلاغة حسه اللفظي واضح في اختياره لأسماء
 أولاده ، فقد سمى أحدهم خبطة ؛ وسمى الثاني سبطة ، وسمى الثالث لبطة . ولو
 أن الأسماء كانت شيئاً يشترى ، لقد كان له عن هذه الأسماء مندرجة ولو أن
 عدواهم أراد أن يلقبهم بأثقل الألقاب ، ما اختار غير الأسماء التي سماهم بها أبوهم .
 وانظر إلى خشونة التصوير ؛ حين يشبه صاحبه لفرط حيائها بمن ألح
 عليه النزف ؛ أو أنهكه السل .

يشبهن من فرط الحياء كأنها مراض سلال أو هوالك نرّف
 وحين يتمنى لها ولنفسه أن يكونا بعيرين أجريين ، يخاف الناس عدواهما
 فيتركونهما منفردين ، ليعيشا في عزلة سعيدين .

فياليتنا كنا بعيرين لا نرد على منهل إلا نسل ونقذ
 كلانا به عرّ يخاف قرافه على الناس مطلي المساعر أخشف^(٢)
 وانظر إلى بشاعة تصويره لسكرم العباس بن الوليد بن عبد الملك ، حين

(١) يلمم جبل .

(٢) المعر بفتح العين الجرب ، القراف المخالطة ، المساعر أصول الفخذين والباطنين
 وهي أول ما يصيب الجرب ، أخشف ، يابس الجلد من الجرب ، مطلي المساعر أى مطلي
 بالقطران ، ولكثير آيات شبيهة بهذه حيث يقول :

ألا ليتنا باعز من غير رية بعيرين نرعى بالخلاء ونعذب
 كلانا به عر فن يرنا يقل على حسننا جرباء تعدى وأجرب
 إذا ما وردنا منهلأ صاح أهله علينا فما تنفك نرمي ونضرب

يقول إن الندى والجود قد صاحباه ، وقد تحالفا على إغراق البشر - (وهو
يقصد بإغراق البشر) طبعاً إغداق النعم عليهم .

إن الندى صاحب العباس حالفه والجود هم أخوة قد أغرقوا البشر
وانظر إلى خشونة ذوقه ، حين يمدح يزيد بن عبد الملك ؛ فيقول له إنك
فعلت ما أعيا أباك :

تناولت ما أعيا ابن حرب وقبله وأعيا أباك الحازم المتخيراً
وإنما يمدح الخليفة بأنه كريم ابن كرام ، شجاع ابن شجعان .
وانظر إلى جفاء ذوقه ، حين يصور لذع الخمر القوية ، وشدة تأثيرها في
الشارب فيقول :

شربنا في بني جشيم بن بكر شراباً ليس من سقَط المتاع
شراباً يضِرُّ الباسورُ منه ويذهب بالمُكَيْلَةِ والصداع^(١)
وقد كان الفرزدق لجفاء طبعه بعيداً عن التأثر العميق بالإسلام ، لم يدخل
الإيمان قلبه ، ولم يرقق طبعه الوحشي الفظ . فهو يعيش بشعوره وعواطفه
في الجاهلية ، يهجم على اللذة متهتكاً ، ويفتخر بذلك ، ولا يبالي أن يصم نفسه
بالزنا وشرب الخمر ، في بلد إسلامي ، يتخرج فيه الناس من إعلان هذه
الآثام الغليظة ، وينكرونها أشد الإنكار . يقول في نديم له اسمه (ديكل)

شربتُ ونادمتُ الملوكَ فلم أجِدْ على الكأسِ ندماً لها مثل دَيْكَلٍ
أقلَّ مِكَاساً في جزورٍ سمينة وأسرعَ إنضاجاً وإنزالَ مرْجَلٍ
ففي كريمٍ يهتز للمجد لا ترى نداماهُ إلا كلَّ خَرَقٍ مُعَدَّلٍ^(٢)
عشية نسينا قبيصة نعلَه فبات الفتى القيسي غيرَ مُنْعَلٍ

(١) المليلة وجع الظهر .

(٢) الحرق الجواد . معذل يلام على إسرافه وتبذيره .

ويقول في هجاء جرير :

إن تك كلباً من كليب فإني من الدارمين الطوال الشقاشق^(١)
 نَظَلُّ ندامى للملوك وأنتم تمشون بالأرباق ميل العوائق^(٢)
 وإنا لتجري الحمُر بين سراتنا وبين أبي قابوس فوق النمارق
 لدُنْ غُدوةً حتى نروحَ وتاجه علينا وذاكي المسك فوق المفارق
 ويذهب مذهب الفتاك المتعهرين من شعراء الجاهلية ، أمثال الأعشى
 وامرئ القيس ، فيصف نزوله عند شيخ من ، وتظاهره أمامه بالتقوى ،
 حتى اطمأن إليه وضيقة ، ثم غلبه على زوجته :

نبئتُ عند الشيخ مُهرًا يبيعه من ال الحُرُون لم تقطعُ أباجله
 فلما أتيتُ الشيخَ يرجفُ رأسه وثرعدُ من بعد المشيب مفاصله
 قرأتُ عليه سورةَ الكهف واقفاً ليأخذَ فيه الحلمَ والجهلُ شامله
 وأطرتُ إطراقَ الشجاعِ وثمرتُ عن الساقِ تسميراً رقيقاً ذلاله^(٣)
 فما زلتُ حتى قال هل أنت نازلُ فإنك ممن لا تُخافُ غوائله
 فلما انبرتُ للغيِّ والشيخُ غافل من الخدرِ تُخفي شخصها وتضائله
 فقلتُ أبرقُ لاح في مدلهمة من الليل أم ريمُ لطيفُ أنامله
 فبت لها في مرصدٍ كنت أدري به الوحش لا يُخشى على غوائله^(٤)
 ويهجو المهلب فيقول إن قومه عن الأزد كانوا ملاحين ، فهم نبط لم
 يعبدوا الأصنام في الجاهلية :

فكيف ولم يأتوا بمكة مُنسكا ولم يعبدوا الأوثان عند المُحصَّبِ

(١) الشقاشق لغة البعير يخرجها عند هيجانه .

(٢) الأرباق العرى التي تشد إليها البهم . الواحد ربة بكسر الراء .

(٣) الشجاع الثمان .

(٤) أدري به الوحش أتبعه .

ولم يَدْعُ دَاعٍ يَا صَبَاحًا فِيرَكِبُوا إِلَى الرُّوعِ إِلَّا فِي السَّفِينِ الْمُضْطَبَّبِ (١)
ويكرر ذلك في قصيدة أخرى يهجو به :

وكيف ولم يقدر فرساً أبومكم ولم يحمل بنيه إلى الدوار (٢)

ولم يعبد يغوث ولم يشاهد لخمير ما تدين ولا نزار

وما لله تسجد أزدٌ بُصْرَى ولكن يسجدون بكل ناز

ويفتخر بظلمه للناس ، على طريقة الجاهليين ، في مواضع كثيرة من شعره . ومن ذلك قوله :

إذا مضى الحمراء حولي تعطفني على وقد دق اللجام شكمي

أبوا أن أسوم الناس إلا ظلاماً وكنت ابن مرغام العدو ظلوم

وقوله :

لخندف قبل الناس بيتان فيهما عديد الحصى والمائرات العظام

إذا ما هبطنا بلدة كان أهلها بها ولدوا يظعن بها كل جارم (٣)

لنا العز من تحلل عليه بيوتنا يمت غرقاً أو يحتمل أنف راغم (٤)

وقد اقترن جفاء الفرزدق بفتكه وفجوره ، فأنتج قدراً ضخماً من الشعر

الممغن في الفحش والفضاظة ومجافاة الذوق في آن معا . انظر إلى ما يقول هذا

الرجل الغليظ القلب ، في زوجته حدراء حين ماتت :

(١) يقول إنهم لا يعرفون إلا ركوب السفن . ولم يركبوا الخيل قط في قتال حين يصبح الداعي يا صباحا .

(٢) الدوار على وزن كتان بفتح الدال السكبية واسم لضم . وقد تضم الدال وقد تخفف الواو فلا تشدد كما هي هنا في البيت .

(٣) الظعن الرحيل . الجارم الذي ارتكب جرماً . ويتصد به هنا الشديد الجريء على الناس .

(٤) الرغام التراب . وأرغمه ألصقه بالتراب أي أذله . يحتمل أنف راغم يعني

يعيش ذليلاً :

يقولون زُرْ حدرَاءَ والتربُّدُ ونها وكيف بشيء وصله قد تقطعا
ولست وإن عزت على بزائر ترابا على مرسومة قد تضععا
وأهونُ مَقْقودٍ إذا الموتُ ناله على المرء من أصحابه من تقنعا
وأهونُ رُزءٍ لامرئ غير عاجز رزية مرتج الروادف أفرعا
وانظر إلى ما يقول هذا الرجل الفظ المفحش ، في رثاء جارية كانت قد
حمت منه ، ثم لم تلبث أن ماتت :

وغمدٍ سلاح قد رُزئت فلم أنح عليه ولم أبعث عليه البواكيا
وفي جوفه من دارم ذو حفيظة لو أن الليالي أنساته لياليا
ولكن رأيت الدهر يعثرُ بالفتى ولا يستطيع ردَّ ما كان جأيا
وكم مثله في مثاها قد وضعته وقد كنت وثابا أجر الدواهيا
ولكن وقاني ذو الجلال بقدره شرور زواني الناس إذ كنت زانيا
والفحش شيء أصيل في طبع الفرزدق . فهو ولوع بالتفصيل العارى
عن الاحتشام ، وكأنه يجد لذة في استعادة تجاربة ، وجر الناس إلى المشاركة
في التمتع بعرضها . يقول من قصيدة يمدح بها هشاما ، ويختم الغزل فيها بقوله:
مشين إلى لم يُطمئن قبلى وهنَّ أصح من بيض النعام^(١)
فبتن بجاني مضرعات وبت أفض أغلاق الختام

وليس الفحش وحده هو الذى يسترعى النظر فى مثل هذا الشعر ، ولكننا
نلاحظ فيه أيضا أنه يذهب فيه مذهب الفتك والهجوم على اللذة .

يمدح يزيد بن عبد الملك ، فيقدم لمدحه بمقدمة طويلة تستغرق ثلاثين
بيتا ، وهى من أحفش الغزل تفصيلا ، وأكثره إمعانا فى التدقيق العارى

(١) الطمث اقتضاض البكارة .

المتحلل من كل القيود الأخلاقية . يبدأها بقوله :

وَأَلْفَةً بَرْدًا الْحِجَالِ احْتَوَيْتَهَا وَقَدْ نَامَ مِنْ يُخْشَى عَابِهَا وَأَصْحَرَا^(١)

بل هو يحض الناس على الفجور ويدلهم على سبيله في قوله :

عَلَيْكَ الدَّوَّ إِنْ بَمَسْتَوَاهُ نَسَاءُ الْجَنِّ فِي الْبَلَدِ الرَّقَاقِ^(٢)

فتنكح ما اشتبهت بغير مهرٍ وَلَا عَدُوًى عَلَيْكَ وَلَا صَدَاقَ

وبينما نجد جريرا يبكى حين تمر به جنازة وهو يملى بعض شعره ، فيقطع

الإملاء وقد أخذته رهبة الموت ، نجد الفرزدق يقول للحسن البصرى ، وقد

اجتمع به في جنازة فسأله : ما أعددت لهذا اليوم ؟ فيجيبه : شهادة أن لا إله

إلا الله منذ ثمانين سنة . وقد كان يبدو للفرزدق في بعض الأحيان أن يتكلف

النسك ، ويحمل نفسه على طريق الصالحين من أهل العبادة ، فيقول في ذلك

شيئاً من الشعر . ولكن قارىء هذا الشعر لا يجد فيه أثراً لخشوع أو إيمان ،

بل هو يكاد يستفزه للضحك ، وكأن فيه شيئاً يشبه النهاون الساخر . وإن

كان غير مقصود . يقول يوم لقيه الحسن البصرى في الجنازة .

لَقَدْ خَابَ مِنْ أَوْلَادِ دَارِمٍ مِنْ مَشَى إِلَى النَّارِ مَشْدُودَ الْخُنَاقَةِ أَرْزَقَا

إِذَا جَاءَنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَائِدٌ عَنِيفٌ وَسَوَاقٌ يُسَوِّقُ الْفَرَزْدَقَا

أَخَافُ وَرَاءَ الْقَبْرِ إِنْ لَمْ يُعَاقِبْنِي أَشَدَّ مِنَ الْقَبْرِ التَّهَابَا وَأُضِيقَا

إِذَا شَرَبُوا فِيهَا الصَّدِيدَ رَأَيْتَهُمْ يَذُوبُونَ مِنْ حَرِّ الصَّدِيدِ تَمَرُّقَا

هذا شعر مضحك بقافيته القافية ، وبهذه القافات التي يستكثر منها في ثنايا

البيت ، فتجعله كتحقيقه الدجاج الذى يتهيا للبيض ، وبهذه الصورة التي يتخيل

فيها الفرزدق ألوان العذاب ، من شد الخناق ، والقائد العنيف ، والسواق

الذى (يسوق الفرزدقا) ، إلى آخر هذه الأخيلة ، التي تصور رجلاً يتكلف الخشوع

ويحمل نفسه عليه حملاً .

(١) الديوان ص ٤٢٧-٣٢١

(٢) الدَّوَّ الصحراء ،

وانظر بعد هذا إلى قصيدته التي يهجو فيها إبليس ويبدأها بقوله :

أطعتك يا إبليس سبعين حجةً فلما انتهى شيبي وتمَّ تَمَامِي
فررتُ إلى ربِّي وأيقنت أنني مُلَاقٍ لآيَمِ المَنُونِ حِمَامِي
فهى أبعد الأشياء عن هجائه . وكأنه كان ينطق فيها بلسانه ، كما قال له الحسن
البصرى حين ذهب إليه فقال له إني هجوت إبليس فاسمع . قال — لا حاجة لنا
بما تقول . قال — لتسمعن أو لأخرجن فأقول للناس إن الحسن ينهى عن
هجاء إبليس . قال له الحسن اسكت فإنه بلسانه تنطق ^(١) .

وبعد ، فقد كان الفرزدق هو الشاعر الوحيد الذى استطاع أن يصمد
لجرير من بين كل معاصريه ، وأن يكيّل له بمثل كيّله . وهو وإن لم يستطع أن
يبلغ مبلغه في هدوء الأعصاب ، وامتلاك النفس ، وذكاء القلب ، فقد استطاع
أن يدانيه من وجوه كثيرة . فمن ذلك براعته في خلق الصور وابتكارها ،
والتماهى في توليدها والكشف عن أجزائها ، حتى تبدوا واضحة مشرقة من
كل نواحيها . يقول لجرير معيراً ذلة عماته وخالاته ، وابتدأهن في رعى الغنم ،
ويتهمن بعد من الرعاة اسمه يسار :

كم عمّة لك يا جريرُ وخالةٍ فدعاء قد حلبتُ على عِشاري ^(٢)
كنا نُحاذِرُ أن تَضِيعَ لِقاحُنَا وَلَهَا إذا سمعتُ دعاء يسار ^(٣)
شغارةٍ تقْدُ الفصيلَ برجلها فطارةٍ لقوادِمِ الأُبكارِ

(١) الأغاني ١٩ : ١٤ والديوان ص ٧٧٠

(٢) الفدع خروج مفصل الإبهام مع ميل في القدم قليل ، يعيره بأنهاراعية لأن الرعى
في الرجال خاصة .

(٣) يسار اسم راع ، يقول إذا سمعت هذه المرأة دعاء الراعى تركت الإبل
وذهبت إليه .

(٤) الشغارة التي تشغّر الفصيل برجلها إذ دنا من أمه ليرضع ، الفطارة من الفطر
وهو الحلب بالسبابة والوسطى مع الاستعانة بطرف الإبهام ، والقوادِم جميع القادمين
وهما خلف الضرع ، ويقال إن الأبقار تحلب فطراً لأنه لا يمكن حلبها ضبا لقصر الخلف
والضرب الحلب بأربع أصابع مع الاستعانة بالإبهام ، أو الحلب باليدين جميعاً .

كانت تراوح عاتقها علية خلف اللقاح سريعة الإدراج^(١)

ويقول في قوم من بني يربوع نزل بهم فلم يعطوه إلا فصيلا .

ألا قبَحَ اللهُ القُلُوصَ التي سرتُ برجلي إلى خصي عِدَانِ المُمَهِّلِ

تجمَعُ لِي في فصيلِ كَأَنَّمَا تجمَعُ لِي في أغرٍ مُحَجَّلِ

ويقول لمالك بن الجارود :

لعمرك ما أشبهت جدك مالكا ولا جدك الجارودَ ياعصب الكلب

وما مالك إلا عجوزٌ كبيره مُضَيَّبَةُ الأسنانِ ترحفُ في الرِّكَبِ

ويقول لرجل من جيرانه :

قُودُكَ في الشَّرْبِ الكَرَامُ بَآيَةً ورأسُكَ في الإِكليلِ إحدى الكبائرِ

فما نطقتُ كأسٌ ولا طابَ طعمُها ضربتُ على حافتيها بالمشافرِ

ومن الهجاء الذي يعتمد على السخرية قوله في هجاء طيء :

ولو أنَّ عصفوراَ يمدُّ جناحه على طيء في دارها لاستظلت

وقوله في هجاء رجل اسمه صالح بن كدير ؛ وقد دخل عليه فوجد بين

يديه دراهم منشورة ، فسأله إياها ، فتشقى له صئارها :

يقولون صَبَّحْ صالِحاً فاستغثَ به وما صالحٌ رِيحُ الخُرُوءِ بصالح !

وقوله يهجر محمد بن جرير بن عبد الله البجلي :

تَنَحَّ أَهَانَ اللهُ مَثَوَاكَ خَاسِئاً عن اسمِ نَبِيِّ المُسْلِمِينَ مُحَمَّدٍ

وقوله في هجاء رجل من بني نهشل :

فِعْزَاكَ أَصْلَحُهَا التَّلَادُ فَإِنَّهُمَا سَنَاوُكَ فِيهَا أَنْ تَذِبُ وترضعا

(١) العلبة قدح ضخم من جلود الابل أو من الخشب يحلب فيها ،

سيأتي ابن مسعود على نأى داره ثناء إذا غنى به الركب أقنعا^(١)

وقوله في هجاء رجل من قومه أقرضه مائة درهم ، ثم ألح في طلبها حتى دفعها إليه ، وبراعة السخرية هنا تستند إلى الواقعية التي تحكى أسلوب عامة الناس في مألوف حديثهم .

أفى مائة أقرضتها ذا قرابة على كل باب ماء عينك يدمع ؟
تسيل ما قبك الصديد تلومنى وأنت امرؤ قحم العذارين أصلع
فدونكها إني أخالك لم تزل لدن خرجت من باب بيتك تلمع
تنادى وتدعو الله فيها كأنما رزئت ابن أم لم يكن يتضعضع
وقريب من هذا الأسلوب ، قوله يتهم بالانصار ، حين تحده رجل
منهم أن يقول مثل شعر حسان :

وبالله لولا أن تقولوا تمكثرت علينا تبم ظالمين وأسرفوا
لما تركت كف تشير بإصبع ولا تركت عين على الأرض تطرف
والفرزدق إن كان يقصر عن جرير في الهجاء الشخصي ، فهو يتفوق عليه
تفوقاً ظاهراً في الهجاء الاجتماعى ، الذى يبدو فيه أوسع أفقاً ، وأشمل نظراً
فالدارس للحياة الاجتماعيه فى ذلك العصر ، يستطيع أن يجد صورة منها فى
شعر الفرزدق ، هى أوضح بكثير مما يستطيع استخلاصه من شعر جرير .
فقد استطاع الفرزدق أن يصور فساد الحكم وتجبر الولاة ، وظلم الجباة ،
وانتشار الرشوة . وتأثر الحكم بالعصية القبلية . وقدم لنا صورة واضحة
للسجون فى ذلك العصر ، فبينما كانت عين جرير النقاداة لا تقع إلا على الأفراد
من الناس ، كان الفرزدق يقف من عصره موقف الرقيب ، الذى يفتح عينه
على كل ما حوله من أحداث ، لينهال بسوطه على المنحرفين عن جادة الصواب

(١) نيب التيس صياحه عقد الفساد ، يسخر به قائل سيأتيك ثناء ولكنه ثناء مقذع

الموالى والهجاء

عرفت الدولة الأموية بتعصبها لعنصر العرب ولكل ما هو عربى ، والاستخفاف بمن عداهم من سائر الأجناس . وبينما كان العرب ينظرون إلى هذا السيل من الموالى ، الذى يتدفق عليهم مع الفتوحات ، أسرى من الرجال والولدان ، وسبايا من الجوارى والإماء ، نظر الغالب إلى المغلوب ، كان هؤلاء الموالى ينظرون إليهم فى شىء من الحقد والاستخفاف . فالعرب من ناحيتهم لا يؤمنون إلا بالقوة . عليها وحدها كانت تدور حياتهم ، وفيها وحدها تركزت كل مثلهم وقيمهم الأخلاقية والاجتماعية ، فهم لا يرون هذا الخليط من الأسرى والإماء إلا عبيدا أرقاء ، قد أباحهم السيف لهم ليسخروا فى لذاتهم ولهوهم . والموالى - ومعظمهم من الفرس - لا يرون العرب إلا بدوا جفاة . قد أتاها الملك عفووا ليس فى قديمهم ما يؤهلهم لسيادة أو تدبير سياسة : وإنما هم الحظ ومحض الصدفة قد أسعدهم ، ففضى لهم الغلبة ، ونكب هذه الأمم العريقة ، ففضى عليها الذل والاستعباد .

ولم يكن بد لهذه الجيوش الجرارة من الموالى من أن تعيش وتلتمس طريقها للحياة ، وتستمر هذه الحسرة اللاذعة ، وهذا الحقد الذفين يستار من الرياء . فاتخذ بعضهم صناعة الغناء ، وكسب مكانه بالزلفى والغلبة على قلوب هؤلاء البدو ، الذين بهرتهم الألحان الجذبة المتقنة ، وما يصاحبها من آلات موسيقية لا عهد لهم بمنزلها . ولم تكن فتنتهم بهذه الطائفة نفسها من مغنين ومغنيات ، بأقل من فتنتهم بألحانهم الجديدة وموسيقاهم . فقد كانت هذه الطائفة تنشر البدع الجديدة فى أساليب الحياة الاجتماعية ، فى نفس الوقت الذى تفتن فيه الناس بهذا البدع الجديد من ضروب الغناء .

فهذا هو ابن سريج يخفى صلعه بحمّة مركبة ، ويخضب أطراف أصابعه

بالحناء ، ويلبس الثياب المصبغة ، ويسير في الطرقات عابثا ، يجر وراءه جرادة قد شد رجلها بخيط ، يطيرها ويجذبها كلها تخلفت عنه . وهو يصحب طبقة المترفين من أشرف العرب في مواسم الحج ، يتعرضون للنساء في طوافهن . يحج مرة مع عمر بن أبي ربيعة على نجيين ، رحلتا هما ملبستان بالديباج ، وقد خضبا النجيين . ويحج معه مرة أخرى ، وقد ركب عمر نجيباً مخضوباً بالحناء مشهر الرحل بقرباب مذهب ، وركب ابن سريج بذلة شقراء ، ومعه غلام له يقود فرساً أدهم أغر محجلاً ، في عنقه طوق ذهب ، ومع عمر جماعة من حشمه وغلماؤه ومواليه ، وعليه حلة موشية يمانية ، وعلى ابن سريج ثوبان هراويان مرتفعان^(١) .

وهذا هو حنين الحيرى ، يتخذ الأزياء الفارسية الزاهية الألوان ، فيغنى عند بشر بن مروان وعوده في حجره ، وعليه قباء زاهى اللون ، وجبة واسعة من الفرو الأحمر طويلة الكم تتذبذب يداها ، وخفان موشيان^(٢) . وهذا هو الغريض ، يُصنِّع نفسه ويُبْرِقُها - كما يقول صاحب الأغاني^(٣) - حين ينى ، فيضرب بالعود ، وينقر بالدف ، ويوقع بالقضيب ، فيفتن الناس بغنائه وبوضاعة وجهه وحسن زيه .

افتتن العرب بهذه الطبقة من الموالى التى اتخذت الغناء ، حتى لقد وقف ابن عائشة ينفى فى الموسم ، فحبس الناس ، واضطربت المحامل ، ومدت الإبل أعناقها ، وكادت الفتنة أن تقع ، فجئ به إلى هشام بن عبد الملك فقال له ، ياعدو الله ! أردت أن تفتن الناس ؟ فأمسك ابن عائشة عنه ، وكان تبيها . فقال له هشام : أرفق بتيهك ! فقال : حق لمن كانت هذه مقدرته على القلوب أن يكون تباعا . فضحك وخل سبيله^(٤) . ولم يسلم الفقهاء ورجال الدين

(١) الأغاني ١ : ٤٤٩ — ٢٧٤

(٢) الأغاني ٢ : ٣٥٠

(٣) الأغاني ٢ : ٣٦٠

(٤) الأغاني ٢ : ٢٠٨

— وهم أكثر الناس تحرجا — من هذه الفتنة . روى صاحب الأغاني أن الأوقص المخزومي ولى قضاء مكة، فما رأى الناس مثله فى عنافه ونبله . فإنه لنائمه لمة فى جناح له ، إذ مر به سكران يتغنى .

عوجى علينا ربة الهودج

فأشرف عليه فقال : يا هذا ، شربت حراما ، وأيقظت نياما ، وغنيت خطأ . خده عنى ثم أصلحه له . وبلغ من فتنة الناس بهم أنهم كانوا يحتفلون بمقدمهم ! فيجتمعون لاستقبالهم بما لا يجتمع لمنله خلق فى استقبال أمير أو خليفة . قدم حنين الحيرى على الحجاز ، حين دعاه إليها مغنوها الثلاثة المشهورون — ابن سريج والغريص ومعبد — فلما كان على مرحلة من المدينة بلغهم خبره ، فخرجوا يتلقونه ، فلم ير يوما كان أكثر حشراً ولا جمعا من يومئذ . ودخلوا منزل سكية بذت الحسين ، فلما دخلوا إليها أذنت للناس أذانا عاما ، فضاعت الدار بهم ، وصعدوا فوق السطح فسقط الرواق على من تحته . ومات حنين تحت الردم^(١) .

هذه طائفة من الموالى ، قد ابتغت الوسيلة للظهور والثراء بالغناء ، وانتقمت بسلاح المستضعف الذى يغزو القلوب والجيوب ، حين يعجز عن مواجهة الخصم . ويمكننا أن نضيف إلى هذه الطائفة أشعب وأضرابه من المهرجين ، الذى يكسبون مكانتهم بركاتهم الجسمية ونواذرهم البارعة . فقد مرنا أشعب على ألوان من الحركات العجيبة ، فكان ينفضن وجهه ويشنجه ، حتى يصير عرضه أكثر من طوله ، ويصير فى هيئة لم يعرفه أحد بها ، ثم يرسل وجهه ويطوله ، حتى يكاد ذقنه أن يجوز صدره ، ثم ينزع ثيابه ويتخادب فيصير فى ظهره حذبة كسنام البعير ، ويصير طوله مقدار شبر أو أكثر ، ثم يقوم فيتناول ، حتى يصير أطول ما يكون من الرجال^(٢) . وكان مع هذا من أكثر الناس نادرة ، وأحسنهم فكاهة ، وأجودهم أداء للغناء .

(١) كذا فى نسخة (٢)

(٢) الأغاني ١٧ : ٩٥ (٦)

(١) الأغاني ٢ : ٣٥٥

وطائفة أخرى من الموالى قد انصرفت للدين ودراسة القرآن والفقه ،
كالحسن البصرى ومحمد بن سيرين وسعيد بن جبير وعطاء بن يسار وربيعة
الرأى وابن جريح^(١) . وهؤلاء قد انصرفوا للعبادة ، فأذهب الإسلام خيط
قلوبهم ، وبرأهم مما اتسم به جندهم من الحقد على العرب والكيد لهم .

وطائفة ثالثة اتخذت الشعر وبرعت فيه ، فأتاح لهم نبوغهم شيئا من النفوذ .
احترف بعضهم السياسة ، فتعصب لهذا الفريق أو ذاك من الأحزاب العربية ،
كالذى يروى من تعصب سديف لبني هاشم ، وتعصب شبيب لبني أمية^(٢) ومناصرة
أبي العباس الأعمى للأمويين^(٣) وانتطاع اسمعيل ابن يسار لآل الزبير^(٤) .
وكان هؤلاء الشعراء فى معظمهم منافقين ، لم يعتنقوا هذا المذهب أو ذاك عن
عقيدة أو إيمان ، فالعرب عندهم سواء لا يحملون لهم إلا البغض والأزدراء ،
ولسكنهم يلتمسون السبيل للظهور ، بما يتكفون من تصنع الولاء والإخلاص
لأصحاب النفوذ . وخير ما يصور علاقتهم بهذه الأحزاب العربية ، ما يروى
صاحب الأغاني من قدوم اسمعيل بن يسار على الغمر بن يزيد بن عبد الملك
— وكان قد تحول إلى الأمويين بعد قتل ابن الزبير وإنشاء الملك إليهم —
استأذن اسماعيل على الغمر فحجبه ساعة ، ثم أذن له ، فدخل يبكي ، فقال له
الغمر — مالك يا أبا فائد تبكي ؟ قال وكيف لا أبكى ، وأنا على مروانيتى
ومروانية أبى أحجب عنك ؟ فجعل الغمر يعتذر إليه ، وهو يبكى ، فما سكث
حتى وصله الغمر بحملة لها قدر . وخرج من عنده ، فلحقه رجل فقال له :
أخبرنى ويلك يا اسمعيل ، أى مروانية لك ولأبيك ؟ قال — بغضنا إياهم .
امرأته طالق ، إن لم يكن يلعن مروان وآله كل يوم مكان النسييح ، وإن لم
يكن أبوه حضره الموت ف قيل له قل لا إله إلا الله ، فقال لعن الله مروان ،

(٢) الأغاني ١٤ : ١٦٢

(١) ضحى الاسلام ١ : ٢٧

(٤) الأغاني ٤ : ٤٠٨

(٣) الأغاني ١٥ : ٥٩

تقربا إلى الله تعالى وإبدالا له من التوحيد ، وإقامة له مقامة ^(١) وقد كان
إسماعيل هذا شعريا شديدا التعصب على العرب ، فكان لا يزال مضروبا محروما
مطرودا . وكذلك كان ابنه إبراهيم ^(٢) دخل إسماعيل على هشام بن عبد الملك
في خلافته ، وهو بالرصافة جالس على بركة له في قصر ، فاستنشدته — وهو
يرى أنه سينشده مديحا له — فأنشده قصيدته التي يفتخر فيها بالعجم .

ياربع مية بالعلياء من ريم هل ترجعن إذا حيت تسايحي
إلى أن انتهى إلى قوله .

إني وجدرك ما عودي بذى خور عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم
أصلى كريم ومجدي لا يقاس به ولى لسان كحد السيف مسموم
أحى به مجد أقوام ذوى حسب من كل قزم بتاج الملك معوم
ججاجح سادة بلج مرابة جرذ عناق مساميح مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معاً والهرمزان لفخر أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا وهم أذلوا ملوك الفرس والروم
يمشون فى الحلق الماذى سابغة مشى الضراغمة الأسدر اللهايم
هناك إن تسألى تنبى بأن لنا جرثومة قهرت عز الجرائم

فغضب هشام وقال : يا عاض بظر أمه ، أعلى تفخر ؟ وإياى تنشد قصيدة
تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ؟ غططوه فى الماء ! فخطوه فى البركة حتى كادت
نفسه تخرج ، ثم أمر بإخراجه وهو بشر حال ، ونفاه من وقته ، فأخرج عن
الرصافة منفيًا إلى الحجاز ^(٣) . وما يصور نفاق هذه الطائفة من الموالى فى

(٢) الأغاني ٤ : ٤١١ و ٤٢٧

(١) الأغاني ٤ : ٤١٠

(٣) الأغاني ٤ : ٤٢٢

علاقتهم بسادتهم ، ما يروى الطبرى ، من أن الوليد بن يزيد لما اشتد به الضيق واخذته الثوار من كل مكان ، قال - من جاء برأس فله خمسمائة . فجاء قوم بأرؤس ، فقال الوليد : اكتبوا أسماءهم ، فقال رجل من موالية ممن جاء برأس : يا أمير المؤمنين ، ليس هذا يوم يعمل فيه بنسيئة ^(١) .

وآثر بعض الشعراء من الموالى أن يتعد عن السياسة ومغامراتها ، وما تجر على محترفيها من مكاره ، فكتبوا مكانهم بهجاء الناس . وهؤلاء كثير ، منهم الحزين السكتاني ، وفيه يقول أبو الفرغ : كان هجاء خبيث اللسان ساقطا يرضيه اليسير ، ويتكسب بالشر وهجاء الناس ^(٢) . ومنهم ابن الخياط ، كان ما جئنا خليعا هجاء خبيث اللسان ^(٣) . ومنهم ابن ميادة ، كان عريضا للشر يطلب مهاجاة الشعراء ومسابة الناس . وكان يضرب بيده على جنب أمه ويقول : اعرنزمي ميادة للقوافي - واستمعين ولا تخافى - ستجدين ابنك ذا قذاف ^(٤) . ومنهم أبو عطاء السندى ^(٥) . ومنهم زياد الأعجم ^(٦) . ومنهم يزيد بن مفرغ الذى اشتهر بأهاجيه فى آل زياد ، وصلابته فى احتمال أذاهم ، وصبره على اضطهادهم ^(٧) .

وقد كان كثير من هؤلاء الشعراء لا يكتفون تعصبهم لقومهم ، وتهكمهم بكل ما هو عربى ، حتى لقد غلب عليهم الاستهتار ، وروى عن بعضهم ما يصور الاستخفاف بالإسلام ، وكأهم لم يروه إلا مذهبا سياسيا ، قد أتاح للعرب هذا النفوذ العريض ، الذى قوض دولتهم ، وجعلهم فى هذا المكان من الذل والاستعباد .

فقال تعصبهم قول ابن ميادة ، وكان بن أم ولد - ^(٨) .

(١) الطبرى ٥ : ٥٥٦ (٢) الأغاني ١٤ : ٧٦

(٣) الأغاني ١٨ : ٩٤ (٤) الأغاني ٢ : ٢٦٣

(٥) الأغاني ١٦ : ٨١ (٦) الأغاني ١٤ : ١٠٢

(٧) الأغاني ١٧ : ٥١ (٨) الأغاني ٢ : ٢٦٢

أنا ابن أبي سلمى وجدى ظالم وأمى حصان أخلصتها الأعاجم
أليس غلام بين كسرى وظالم بأكرم من نيطت عليه التمام
وقوله :

لنا الملك إلا أن شيئاً تعده قریش ولو شئنا لداخت رقابها
وإن غضبت من ذا قریش فقل لها معاذ الإله أن أكون أهابها
وقوله :

فضلنا قریشا غير رهط محمد وغير بنى مروان أهل الفضائل
وقد لقيه إبراهيم بن إسماعيل فقال له - أنت فضلت قریشا ؟ وجرده
وضربه أسواطاً (١) .

ومن أمثلة هذا التعصب كذلك ما يروى من أن زيادا الأعجم كان يخرج
وعليه قباء ديباج تشبها بالأعاجم ، حتى لقد مر به يزيد بن المهلب ذات يوم
وهو على حاله تلك ، فأمر به فقتل أسواطاً ومزق ثيابه قائلًا . والترك تشبهه
لا أم لك ؟ (٢) .

أما استهتارهم ومجافاتهم للإسلام فالأمثلة عليه كثيرة . كان زياد الأعجم
عند عمر بن عبد الله بن معمر بفارس ، وقدم عليه غزال بن محمد الفقيه من
مصر ، فكان غزال يحدثه بحديث الفقهاء ، فقال زياد :

يحدثنا أن القيامة قد أتت وجاء غزال يبتغي المال من مصر
فكم بين باب الترك إن كنت صادقاً

وإيوان كسرى من قلاة ومن قصر
ومر به يزيد بن حبناء الضبي وهو يشد هجاء مفحشا ، فقال له : ألم يأن

لك أن ترعوى وتترك تمزيق أعراض الناس ؟ ويحك حتى متى تتماذى في الضلال ؟ كأنك بالموت قد صبحك أو مساك . فهجاه زياد بقوله : (١) .

يحذرنى الموت ابن حبناء والفتى إلى الموت يغدو جاهداً ويروح
وكل أمرىء لا بد للموت سائر وإن عاش دهرًا في البلاد يسيح
فقل ليزيد يا ابن حبناء لا تعظ أخاك وعظ نفساً فأنت جنوح
تركت التقى والدين دين محمد لأهل التقى والمسلمين يلوح
وتابعت مرقاة العراقيين سادراً وأنت غليط القصريين صحيح (٢)
وروى الزبير بن بكار أن أباه ولى الحجاز ، فألزم ابن الخياط حضور
الصلاة مع الجماعة ، فجاء ابن الخياط وأنشده :

قل للأمر يا كريم الجنس يا خير من بالغور أو بالجلس
وعدتى لولدى ونفسى شغلتنى بالصلوات الخمس
فقال له - ويحك . أتريد أن أستعفيه لك من الصلاة ؟ والله لا يعفيك
وإن ذلك ليبعثه على اللجاج فى أمرك ثم يضرك عنده . فضى وقال - نصبر
إذن حتى يفرج الله تعالى ! (٣) وقد حمد ابن الخياط فى الخمر ، جلده مالك
ابن أنس . فلما ولى ابن سعيد القضاء بالمدينة قال فيه . (٤)

بَكَّتَنِي النَّاسُ لَأَن جَلَدْتُ وَسَطَ الرَّحْبَةِ
وَأَنى أَزْنى وَقَدْ غَنَيْتُ فِي الْمُحْتَسِبَةِ (٥)
أَعْرِفْ فِيهِمْ بَعْصاً ابْن مَالِكِ الْمُقْتَضِبَةِ

(١) الأغاني ١٤ : ١٠٧

(٢) السادر المتحير والذي لا يبالي ما صنع . القصريان ضلعان يليان الترقوتين .

(٣) الأغاني ١٨ : ٩٧ (٤) الأغاني ١٨ : ٩٩

(٥) المحتسبة طائفة من الشرطة يمشون فى الطرقات لمراقبة الناس وأخذ المستهترين

والمخالفين .

فقلت لما أكثروا على فيم الجلبة
ذا ابن سعيد قد قضى وحالنا مقربة
لا بل له التفضيل في ما لم أنل والغلبة
بحسن صوت مطرب وزوجة معتصة

وكان الحزين الكنانى مدمنا للشراب فاسد الدين . وفد على عبدالله بن عبد الملك فقال له : أى الرقيق أعجب إليك ؟ قال : ليختل الأмир . فاختر له عبدالله أحدهم وقال : قد رضيت لك هذا ، فإنى رأيت حسن الصلاح . فقال الحزين : لا حاجة لى به فأعطى أخاه . فأعطاه إياه ^(١) .

وكان بعض هؤلاء الشعراء - على مكانتهم فى الشعر - لا يفصحون ولا يحسنون النطق بالعربية . كان أبو عطاء السندى يجمع بين لثغة وأكسنة فلا يكاد يفهم كلامه . كان يقول (مرهبا مرهبا هيا كم الله) يقصد : مرحبا مرحبا حماكم الله . وكان يقول (زز) يعنى زج . و (ززادة) يعنى : جرادة . ويقول (أزن) يعنى : أظن . ويقول (بنو سيطان) يعنى : بنو شيطان . وكان الناس يسمعون فى كتمون الضحك ولا يحسرون على إظهاره خوفاً من شره ^(٢) . أتى سليمان ابن سليم فأنشده :

أعوزتني الرواة يا ابن سليم وأبى أن يُقيمَ شعري لسانى
وغلا بالذى أجمجمُ صدرى وجفانى لعجمتى سلطانى
وازدرتني العيون إذ كان لونى حالكا مجتوى من الألوان
فضربت الأمور ظهراً لبطنٍ كيف أحتال حيلة للسانى
وتمنيت أننى كنت بالشعر ر فصيحاً وبان بعض بيانى

فاكفنى ما يضيئ عنه لسانى بفصيح من صالح الغلمان
 يفهم الناس ما أقول من الشعر فإن البيان قد أعيانى
 فأمر له سليمان بوصيف بربرى فصيح ، فسماه عطاء ، وتكنى به ، ورواه
 الشعر ، فكان إذا مدح من يحتديه أو ينتجعه أمره بإنشاده ما قاله .^(١)
 وكان زياد الأعجم لا يحسن النطق بالعربية على ما أتيح له من التقدم
 فى الشعر . وقد ضرب أبو الفرج مثلاً لعجمته بقوله لغلّام نه دعاه فأبطأ
 عليه (منذ لدن د أوتك إلى أن قلت لى ما كنت تسناً ؟) يقصد : منذ لدن
 دعوتك إلى أن قلت لى ما كنت تصنع ؟ .

وقد حقق الهجاء لهذه الطائفة ما طمحوا إليه من مكانة ، فكان سلاحاً
 مرهوباً يخشاه الناس ، ويتقونه يا كرامهم ومداراتهم . روى رجل أنه كان
 جالساً عند المهلب ، فأقبل عليه رجل طويل مضطرب : فلما رآه المهلب قال
 اللهم إني أعوذ بك من شره . فجاء فقال : أصلح الله الأمير . إني قد مدحتك
 ببیت صفده مائة ألف درهم . فسكت المهلب . فأعاد عليه القول . فقال :
 أنشدنيه . فأنشده :

فتى زاده السلطان فى الخير رغبة إذا غيّر السلطان كلّ خليل

فقال له المهلب : يا أبا أمامه ، مائة ألف ! فوالله ما هى عندنا . ولسكن
 ثلاثون ألفاً فيها عروض^(٢) . فالمهلب لم يدفع الثلاثين ألفاً ثمناً لهذا البيت التافه
 من الشعر ، فهو لا يساوى شيئاً . وإنما دفعها اتقاء هجائه ، واشترى بها عرضه .
 ولقد بلغ من رهبة هؤلاء الموالى عند الناس ، وجرأتهم عليهم ، أن زيادا

(١) الأغاني ١٦ : ٨١

(٢) العروض جمع عرض بفتح العين وسكون الراء وهو المتاع وكل شيء سوى النقد . يريد المهلب أن يعطيه بعض المبلغ نقداً وبعضه متاعاً .

(٣) الأغاني ١٤ : ١٠٧

هذا شرب يوما مع حبيب بن المهلب ، فسجعت حمامة على شجرة ، فقال لها زياد .

تَغْنَى أَنْتِ فِي ذِمِّي وَعَهْدِي وَذِمَّةُ وَالِدِي إِنْ لَمْ تُطَارِي
فَإِمَّا يَقْتُلُوكَ طَلَبْتُ ثَارًا لَهُ نَبَأُ لَأَنَّكَ فِي جَوَارِي
فتحدثاه ابن المهلب فأصاب الحمامة بسهم تهكما به ، فانطلق زياد إلى المهلب
ابن أبي صفرة شاكيًا ، فألزم ابنه دية الحمامة ألف دينار لأنها جارتها^(١) . وإنما
فعل ذلك خوفًا من شره . وحج عبدالله بن عبد الملك بن مروان ، فقال أبوه :
سيأتيك الحزين الكنانى الشاعر بالمدينة ، وهو ذرب اللسان ، فيأيك أن
تحتجب عنه ، وأرضه . ووصفه له ، فقال إنه أشعر ذو بطن عظيم الأنف .
فلما قدم عبدالله المدينة وصفه لحاجبه ، وقال له : إياك أن ترده^(٢) . بل لقد
بلغ من جرأة الحزين الكنانى ، أنه كان يفرض الضرائب على أشرف الناس
وعلى القرشيين أنفسهم .

روى صاحب الأغاني أنه ضرب على كل رجل من قریش درهمين
فى كل شهر ، منهم ابن أبى عتيق ، فجاء يوما لأخذ درهميه وهو على
حمار أعجف ، وكان كثير الشاعر جالساً مع ابن أبى عتيق . فدعا ابن أبى عتيق
للحزين بدرهمين . فقال له الحزين : من هذا الذى معك ؟ قال : هذا أبو صخر
كثير — وكان قصير آدمياً — فقال له الحزين : أتاذن لى أن أهجوه ببیت ؟
قال : لا لعمرى لا آذن لك أن تهجو جليسى ، ولكن أشتري عرضه منك
بدرهمين آخرين . ودعا له بهما . فأصغى ثم قال : لا بد من هجائه ببیت . قال :
أو أشتري ذلك منك بدرهمين آخرين . ودعا له بهما . فأخذهما وقال :
ما أنا بتاركه حتى أهجوه . قال : أو أشتري منك ذلك بدرهمين آخرين .
فقال له كثير : ائذن له وما عسى أن يقول فى ؟ فأذن له ابن أبى عتيق فقال :

(٢) الأغاني ١٤ : ٧٧

(١) الأغاني ١٤ : ١٠٣

قصير القميص فاحش عند بيته يعضُ القُرَادُ بأسه وهو قائم
فوثب كثير إليه فوكزه فسقط هو والجمار ، وخلص ابن أبي عتيق بينهما^(١) .
وقد كان معظم هجاء هذه الطبقة غثاً تافهاً إذا وزن بموازين الشعر .
وكان شطر كبير منه مرتجلاً ينشئه الشاعر لساعته . كان الحزين السكناني يمدح
محمد بن مروان ويهجو عمرو بن عمرو بن الزبير . ثم إن ابن مروان سأله أن
يكف عن عمرو فأبى ، وقال : لا والله ولا بحمر النعم وسودها ، لو أعطيتها
ما كففت عنه ، لأنه ما علمت كثير الشر ، قليل الخير ، متسلط على صديقه
فظ على أهله . (وخير ابن عمرو بالثرثيا معلق) فقال له محمد بن مروان :
هذا شعر ؟ فقال : بعد ساعة يصير شعراً ، ولو شئت لعجلته ، ثم قال^(٢) :

شرُّ ابن عمرو حاضر لصديقه وخير ابن عمرو بالثرثيا معلق
ووجه ابن عمرو بأسرُّ إن طلبته نوالا إذا جاء الكريم الموق
فنفس الفتى عمرو بن عمرو إذا غدت كئائب هيجاء المنية تبرق^(٣)
فلا زال عمرو للبلايا رديةً تباكره حتى يموت وتطرُق^(٤)
بهزُّ هرير الكلب عمرو إذا رأى طعاماً فما ينفك يبكي ويشهق

وهذا شعر تافه كما هو بين . ولكن أمثال هؤلاء الهجائيين كانوا من
الضعة وضياع الحسب بحيث يكبر على الأشراف ما يقولون لهم وإن كان
تافهاً . ثم هم لا يبالون أن يهجوهم الناس . ولذلك كانوا أكثر ما يتعرضون
للسادة والوجهاء . ولم يكونوا يتعرضون للذين لا يبالون أن يهجوهم ،
ويظهرون عدم الاكتراث بشعرهم . هجا ابن الخياط موسى ابن طلحة
ابن بلال التيمي فقال :

(٢) الاتغاني ١٤ : ٨٣

(١) الأغاني ١٤ : ٧٦

(٤) ردية أى هدف وغرض

(٣) برق كطرب تحير

عجب الناس للعجيب المحال حاض موسى بن طلحة بن بلال
 زعموه يبيض في كل شهر ويرى صفرة لكل هلال
 فلقية موسى فقال : يا هذا ، وأى شيء عليك ؟ نعم حضت وحملت
 وولدت وأرضعت . فقال له ابن الخياط : أنشدك الله أن لا يسمع هذا
 منك أحد فيجترى على شعري الناس فلا يكون شيئاً ، ولن يبلغك منى
 ما تكره بعد الآن (١)

وقد غلب على هجاء هذه الطبقة الاقتضاب والقصر ، فكان ذلك أدعى
 لذيوه وخفته على الألسن ، وأشد للذعة ونكايته . كان عبيد الله بن زياد يقول :
 ما هجيت بشيء أشد على من قول ابن مفرغ :

فكر في ذاك إن فكرت مُعْتَبِرٌ هل نلتَ مكرمةً إلا بتأخير
 عاشت سُمَيَّةٌ ما تدرى وقد عُمِرَتْ أن ابنها من قریش في الجماهير
 وقال في هجاء زياد بن أبي سفيان :

فأقسم ما زياد من قریش ولا كانت سُمَيَّة من تميم
 ولكن نسلُ عبدٍ من بغيٍّ عريق الأصل في النسب اللثيم
 وقال فيه :

إن زيادا ونافعا وأبا بكرة عندي من أعجب العجب
 إن رجلا ثلاثة خلقوا في رحم أنثى ما كلهم لأب
 ذا قرشي كما يقول وذا مولى وهذا بزعمه عربي

ويقول زياد الأعجم لكعب الأشقرى الشاعر حين هجاء :
 قبيلة خيرها شرها وأصدقها الكاذب الآثم

وضيفهم وسط أبياتهم وإن لم يكن صائماً صائماً
ويقول له :

إذا عذب الله الرجال بشعرهم أمنت لكعب أن يعذب بالشعر
وقال لرجل من جرم :

قضى الله خلق الناس ثم خلقتهم بقية خلق الله آخر آخر
فلم تسمعوا إلا بما كان قبلكم ولم تدركوا إلا بدق الخوافر
فلوردة أهل الحق من مات منكم إلى حقه لم يدفنوا في المقابر

هذه طائفة من المستضعفين المغلوبين على أمرهم ، فرضت عليهم القوة
والذل ، وقضى عليهم التعصب المتطرف أن يعيشوا مستعبدين مهضومي
الحقوق ، فتسلح بعضهم بالرياء يستتر به حقه الكامن ، وتسلح فريق منهم
بالهجاء ، ودفع اليأس فريقاً ثالثاً إلى الزهد ، يلتمسون في نعيم الآخرة المقيم
عوضاً من جاه الدنيا الحائل . ولسكنهم في جملتهم ظلوا يكيدون للعرب ،
وينشرون حضارتهم الفارسية في بطن وتصميم ، حتى أتيح لهم الظفر الكامل ،
فقوضوا ملك الأمويين ، وأقاموا على أنقاضه دولة عربية المظهر ، فارسية
الروح والتصميم .

[انتهى القسم الثاني في العصر الاسلامي]

المراجع

نصوص :

- ديوان جرير ط : الصاوى
 الفرزدق ط . الصاوى
 الأختل ط . اليسوعيين
 أعشى همدان ط . أوروبا
 نقائص جرير والفرزدق ط . أوروبا
 نقائص جرير والأختل ط . اليسوعيين
 وقعة صقين ط . هارون
 المفضليات ط . هارون ١٣٦١ هـ
 حماسة أبى تمام ط . مصر
 شرح حماسة أبى تمام ط . مصطفى محمد
 جمهرة أشعار العرب ط . مصر ١٣٤٥ هـ
 شعراء النصرانية ط . اليسوعيين

نقد :

- العمدة لابن رشيق ط . مصطفى محمد
 الموازنة للآموى ط . صبيح
 ديوان المعاني للعسكرى ط . مصر ١٣٥٢ هـ
 الصناعتين للعسكرى ط . الأستانة ١٣١٩ هـ
 الوساطة للجرجاني ط . مصر ١٣٦٤ هـ
 الموشح للرزباني ط . مصر ١٣٤٣ هـ
 نقد الشعر لقدماء ط . مصر ١٩٣٤ هـ
 نقد النثر لقدماء ط . الجامعة المصرية

أدب :

ط . دار الكتب	نهاية الأرب للنويرى
ط . العريان ١٩٤٠ م	العقد الزريد
ط . السندوبى ١٩٢٦ م	البيان والتبيين
ط . مصطفى محمد	الكامل للبرد
ط . دار الكتب	الأمالى للقالى
ط . العصارى ١٩٣٤ م	المعارف لابن قتيبة

تراجم وطبقات :

ط . دار الكتب فى الأجزاء العشرة الأولى . وبولاق فيما يليها	الأغاني
ط . بولاق ، مصر (فريد رفاعى)	وفيات الأعيان
ط . مصر (السقا) ١٩٣٢ م	الشعر والشعراء لابن قتيبة
ط . مصر (السعادة)	طبقات الشعراء لابن سلام
ط . مصر (الحلبي) ١٩٣٠ م	خزانة الأدب للبندادى
ط . مصر ١٣٤٨ هـ	الفهرست لابن النديم
ط . مصر (القدسى) ١٣٥٤ هـ	معجم الشعراء للمرزبانى
ط . مصر (القدسى) ١٣٥٤ هـ	المؤتلف والمختلف للأمدى
ط . أوروبا	الطبقات الكبرى لابن سعد
ط . مصر (فريد رفاعى)	معجم الأدباء لياقوت

تاريخ :

ط . مصر ١٩٣٩ م (مصطفى محمد)	تاريخ الطبرى
ط . مصر ١٣٤٨ هـ (المنيرية)	تاريخ ابن الأثير
ط . ١٣٤٦ هـ	مروج الذهب للمسعودى
ط . مصر	معجم البلدان لياقوت

- نسب عدنان وقحطان للمبرد ط . مصر (لجنة التأليف)
 الإنباه على قبائل الرواه لابن عبد البر ط . مصر (السعادة) ۱۳۵۰ هـ
 شرح نقائض جرير والفرزدق ط . أوروبا
 مقدمة ابن خلدون ط . مصر ۱۹۳۱ م
 فتوح البلدان للبلاذري ط . مصر ۱۹۳۲ م
 الخراج لأبي يوسف ط . مصر (السلفية)
 الخراج للتمرشي ط . مصر (شاكر)
 التنبيه والإشراف للمسعودي ط . ۱۹۳۸ م
 مختصر الفرق بين الفرق ط . مصر ۱۹۲۴ م (الهلال)
 التبصير في الدين الاسفراييني ط . مصر ۱۹۴۰ م
 النزاع والتخاصم بين بني أمية ط . مصر
 وبني هاشم للمقریزی

مراجع :

لسان العرب	لابن منظور	مجمع الأمثال	للميداني
* القاموس المحيط	للغیر وزبادی	شرح القاموس	للزیدی
أساس البلاغة	للزحشری	المعرب	للجری الیق

كتب حديثة :

بلوغ الأرب	للألوس
تاريخ آداب اللغة العربية	لجورجی زيدان
تاريخ التمدن الإسلامي	لجورجی زيدان
تاريخ آداب العرب	لرافعی
النصرانية وآدابها	لشیخو
الروائع	للبيستاني
فجر الإسلام	لأحمد أمين
ضحى الإسلام	لأحمد أمين
حديث الأربعاء	لطه حسين

فهرس

نشأة الأحزاب السياسية

(ص ٥ - ١٦)

العقلية العربية لم تسع النظام الجديد الذى جاء به الاسلام ، ولم تنس وطنها الأول الصغير (القبيلة) لتتفانى فى الوطن الكبير — تصورهم الاسلام على أنه سيادة لقريش على بقية القبائل — العرب ينفرون من الزكاة — ظهور المتنبيين من مختلف قبائل العرب منافسة لقريش — الردة حركة عصبية والشعر الذى قيل فيها منصب كله على القبائل لاعلى مبادئ الاسلام — الجزيرة العربية تتحول سريعاً إلى أمبراطورية واسعة — حاجة الظروف الجديدة إلى نظم سياسية وإدارية واجتماعية — عدم صلاحية النظام القديم للظروف الجديدة — اضطراب الجزيرة بالفتن وظهور الأحزاب الثلاثة الكبيرة (الشيعة ، والخوارج والأمويين) — بين على ومعاوية — معاوية رجل الساعة الذى أنقذ الامبراطورية الاسلامية ووطد أساسها — عودة إلى الاضطرابات والفتن بعد موت معاوية الثانى — آثار هاتين الثورتين فى التفكير العربى — مناقشة نظام الحكم للمرة الأولى بين العرب — العصبية القديمة تتخذ صورة حزبية مهيمنة — اختلاف برامج الأحزاب — أثر العصبية القديمة فى الأحزاب الجديدة — حرب العراق والشام — العراق موطن المعارضة فى العصر الأموى .

الهجاء السياسى

(ص ١٧ - ٥٧)

الهجاء السياسى من أظهر فنون الشعر فى العصر الأموى — حرص معارضة

على تشجيع الشعراء وتألف الناس بالمال — عودة الشعر للظهور بعد أن خفت
صوته منذ وفاة النبي — اعتماد الزعماء والملوك على الشعراء في تهيمته الناس لمشاريعهم
والترويج لها في الدفاع عنهم ومهاجمة خصومهم — السياسة الحزبية حرفة يتكسب
بها الشعراء — استفحال الهجاء السياسي — الهجاء بدع العصر — المربد في
العراق يحتل مكان عكاظ في الجاهلية — اختلاف صور الهجاء السياسي وتعدد
مذاهبه — بعضه جاهلي الأسلوب يقوم على العصبية ، وبعضه يهاجم أصحاب
الدعوة والمطالبين بالملك ، وبعضه يهاجم الولاة ، وبعضه يصور سخطا على جميع
المتنافسين في الملك من قریش يصفهم بالطمع والجشع — شعر العصبية امتداد
لشعر الحروب في الجاهلية لم يتأثر بالمثل الإسلامية — الفتن الإسلامية منفذ للحزازات
القديمة التي تلمست طريقها للظهور عن طريق الزعماء المتقاتلين على الحكم —
ظهور لون جديد من الهجاء العصبي هو هجاء الأفليم — عصبية الشام وعصبية
العراق — الشعر الذي يتصل بأصحاب الدعوة ويهاجم المطالبين بالملك يتميز
بادراكه للحياة الجديدة وتأثره بمثل الإسلام وأسلوب القرآن — بعضه ينصب على
نظام الحكم وبعضه ينصب على أشخاص الحكم — غلبة الحزن على شعر العلويين
وغلبة الفدائية على شعر الخوارج — الشعر الذي يعارض الولاة وينقد سياستهم
من أمتع ألوان الشعر السياسي ، وأكثرها دقة ووضوحا في تصوير المجتمع والكشف
عن معانيه — تدفق الأموال على الناس — تميز طائفة الحكم — الحجاب —
تأثر الخلفاء والولاة بالمعصية — عنف الولاة وتجبرهم لاعادة الناس إلى احترام
الإنان — كثرة شكوى شعراء العراق من ظلم العمال في جباية الأموال .

الأخطل

(ص ٥٨ - ٩٦)

طفولته — حرمانه وتمرده — تعرضه لكعب بن جعيل التماسا للشهرة — هجاء

الأنصار واتصاله بيزيد - دخوله في السياسة ودفاعه عن الدولة ومهاجمة أعدائها
حظوته عند الأمويين وعلو شأنه في قبيلته - الأخطل شاعر القبيلة وزعيمها -
سعيه في الإصلاح بين قومه وجمع كلمتهم - ربطه بين قبيلته وبين الأمويين -
أثره في موقف تغلب أيام الفتنة الثانية - اشتباك قيس بتغلب وموقف الأخطل -
قسوته وبشاعة تصويره لمناظر القتال - الأخطل في قمة مجده السياسي - تيهه
وإدلاله على عبد الملك - الأخطل لسان الحكومة الذي يعبر عن رأيها واتجاهاتها
هجاء القيسية في النقائص - (خف القطين) مثال رائع للشعر السياسي - الغلظة
القاسية طابع الأخطل في أهاجيه - ألفاظه بدوية خشنة - تأييده لسياسة الولاة
وتبرير مسلكهم في عنفهم وشدتهم - حق الأمويين في الملك - القوى الغالب
هو صاحب الحق لأن الله لا ينصر الظالمين - المثل الجاهلية التي تعتمد على القوة
تلبس ثوب الحق الإلهي على يد الأخطل - الأخطل بدوى يعيش على المثل
الجاهلية في حياته وفي فنه - كثرة الوشائات حول الأخطل وضعف نفوذهم في
البلاط الأموي - عدى بن الرقاع يحتل مكان الأخطل عند الوليد .

الهجاء الشخصي

(ص ٩٧ - ١٢٥)

الهجاء الشخصي من أظهر فنون الشعر في العصر الأموي - العراق بنوع
خاص موضع هذا الفن - الشعراء يصطنعون أسلوب الخطيئة في التكسب بالهجاء
خوف الأشراف والوجهاء من الهجائيين - المتهتكون من الهجائيين المحترفين -
الحكم بن عبدل ، الأقيشر - الهجاء القصير اللاذع - فن النقائص - محور هذا
الفن شعراء العصر الثلاثة ، كثرة عدد الشعراء الذين دخلوا بينهم وانشغال الناس
بأمرهم ، العداوة وحدها ليست هي الدافع للهجاء ، المناقضة منافسة فنية ومباراة

أدبية ، الارتجال فى النقائض ، الشعراء يتربصون بخصوصهم ، مهارة الهجاء تتركز فى إدراكه لوجه النقص البارز فى خصمه وقدرته على الافتنان والتصرف فيه ، الإجابة من نفس البحر والروى مظهر للتنافس الفنى ، الشاعر يستكمل قصيدته بإضافة الأبيات بعد سماع نقيضة خصمه . الشاعر يقابل نقيضته بقصيدة خصمه فى الأسلوب والمعانى والأغراض . الأسلوب القصصى فى الهجاء ، الواقعية العارية - الهجاء والعقد النفسية ، أمثلة من جرير والفرزدق والأخطل والأقيشر والمغيرة ابن حبناء والحكم بن عبدل وشعراء الموالى .

نقائض جرير والفرزدق والأخطل

(ص ١٢٦ - ١٤٣)

النقائض ليست هجاء خالصاً فهى خايط من فنون الشعر التى عرفها العرب لم يكن الهجاء هو الغرض الأساسى فى كل النقائض . النقائض منافسة فنية . التزام نفس البحر والروى فى النقيضة مظهر للتحدى الفنى . كثرة فخر المتناقضين بالبراعة الشعرية - من الظلم للنقائض أن تقارن بغيرها من فنون الشعر المتأخرة أو شعر الأمم الأخرى والإصاف يقتضى أن تقاس بعصرها وبيئتها ، النقائض محدودة الغرض فهى شعر شخصى محوره الفرد لا يكاد يسمو إلى الحياة فى أفقها الواسع ، النقائض على قيمتها التاريخية والعلمية بعيدة عن أذواق المعاصرين ، النقائض تصور عصرها جملة وتصور الناحية الأدبية فيه خاصة . النقائض سجل لكثير من الأحداث التاريخية التى عاصرتها والتى سبقها منذ وعى العرب تاريخهم - تباين شعراء النقائض الثلاثة فى أسلوبهم الفنى - الأخطل يرضى فنه - جزالة ألفاظه تضعف هجاءه وتحرمه روح الدعابة - الأخطل شاعر خاصة - جرير مرح مداعب ، جرير لا يجهد نفسه فى الشعر - ذبوع شعره وغلبته على قلوب الناس - الفرزدق معنى

بفنه ولسكنه ليس موهوبا كجرير — الفرزدق يجارى جريرا فى تناول المعانى الهجائية من قرب — الخصائص العامة للنقائض : العامة والابتدال فى المعانى والألفاظ والأخلاق ، تكرار المعانى والفخر الكثير بالمقدرة الشعرية ، القصص الهجائى ، جرير أكثرهم تفوقا فى هذا المذهب والأخطل أكثرهم تخلفا .

جرير

(ص ١٤٤ - ١٦٨)

بنو يربوع — غلبتهم على البصرة والكوفة وخراسان فى أيام الفتنة الثانية — ثروة الخطفى جد جرير وخمول عطية أبيه — مولده فى أواخر أيام عثمان حوالى ٣٠ هجرية اشتباكه بغسان السليطى — وفوده على يزيد — بنو يربوع يدعون لابن الزبير — تميم فى موقفها من الفتنة حزبان يتزعم أحدهما سلمة بن ذؤيب الرياحى ويتزعم الآخر الأحنف بن قيس — خلوشعر جرير مما يدل على لونه السياسى فى هذه الفترة وتعليل ذلك — زبيرية جرير وتعصبه للقيسية — ضعف جرير ونفاقه وصلابة الفرزدق وأنفته — جرير يعول فى التكسب على المدح ولا يهجو إلا من هاجمه — إلحافه فى سؤال ممدوحية — شعر جرير رقيق سهل — عدم أصابته المدح — رقة شعر جرير صورة من طبعه السمج ونفسه المطمئنة — إجادته فى الغزل والرثاء — مواهب جرير الشعرية تبدوا كاملة حين يهاجم الأفراد — هدوء طبعه وبرود أعصابه — تهكمه وسخريته — امتياز حسه اللفظى — عينه نقادة تقع على العيوب وتهتدى إلى مواضع السخرية — خياله الخصب وذكاؤه النفاذ يمدّه بالصور الغريبة فى الافتنان وبالنكت البارة اللاذعة — جرير من أخطر الهجائين فى إطلاق الألقاب على خصومه وترويج الإشاعات الباطلة عنهم — هجاء جرير واقعى يستند إلى دقة الملاحظة وبراعة الحكاية للأصوات والأشياء .

الفـرزدق

(ص ١٩٦ - ٢٠٤)

بين جرير والفرزدق - مولد الفرزدق حوالى ٢٤ هـ - الفت الظروف بين جرير والفرزدق من وجوه وخالفت بينهما من وجوه . ضعة جرير وشرف الفرزدق رقة جرير وغلظة الفرزدق ، جرير رقيق يؤسر السلام والفرزدق عنيف يحيا حياة نضال ، جرير زبيرى قيسى والفرزدق لا يعتد إلا بقبيلته ؛ جرير ينافس الفرزدق على زعامة تميم فى الشعر - الفرزدق يحاول أن يضع حداً لتقدم جرير وشهرته - التنافس على الزعامة الشعرية للقبيلة هو الدافع الاول لتهاجيها - الفرزدق طموح شديد الاحساس بالتفوق والامتيار إلى حد الجنون والمرض - والفرزدق لا يرحل إلى الخلفاء - الفرزدق يتكلف فى حياته مظهر السادة - اضطراب الروايات وتناقض الآراء فى مذهبه السياسى - الفرزدق مستقل فى تفكيره السياسى لا يصدر فى شعره وتصرفاته إلا عن مصاحبة قبياته - الفرزدق لا يستجدى ممدوحيه كجرير ولكنه يسألهم فى أنفة وترفع - الفرزدق هجاء لانه مغرور بنفسه لا ينظر إلى الناس إلا مستخفا هازئاً - تشابه الفرزدق والمتنبى - سوء علاقة الفرزدق بالولادة وهجاؤه لهم وجرأته عليهم - الفرزدق يجمع بين نقىضتين فهو مجنون بالفرور والكبرياء ولكنه شديد الضعف فى احتمال المكاره والصمود للكفاح - شعر الفرزدق مزاج من الشعور بالعظمة والشعور بالرهبة والخوف - شعر الفرزدق رائع فى وصف السجون وتصوير خوفه - الفرزدق جاف غليظ الطبع فى فنه وفى حياته - الفرزدق ينحت من صخر - تراكب الالفاظ واضطرب الضمائر والتعسف فى التراكيب - ملاءمة طبعه الشعري للفخر ولوصف المظاهر العنيفة وتصوير حياة الصحراء والبادية - فشله فى الغزل والمدح -

الفرزدق لجفاء طبعه بعيد عن الإيمان العميق والإسلام الصحيح — مثله جاهلية تدور حول القوة — يذهب مذهب الفتاك المتهمرين كأمريء القيس والأعشى — يفتخر بالزنا وشرب الخمر ويجهز بذلك في شعره — اقتران جفائه بفتكه وفجوره قد أنتج قدرا ضخما من الشعر الممعن في الفحش — الفرزدق ولوع بالتصوير العارى يجد في ذلك لذة حسية — الفرزدق يبدو مضحكا حين يتكلف النسك والخشوع — الفرزدق هو الشاعر الوحيد الذي استطاع أن يصمد لجريير — موارنة أخيرة بينه وبين جريير في الفن الهجائي — تفوق جريير في الهجاء الشخصي ونبوغ الفرزدق في الهجاء الاجتماعي .

الهجاء والموالى

(ص ٢٠٥ — ٢١٨)

العرب يرون الموالى عبيدا أرقاء والموالى لا يرون العرب إلا بدوا جفاة — الموالى يسترون حقدهم بستار من الرياء — بعض الموالى يحترفون الغناء ويتغفلون في البيوت العربية الكبيرة ويفتنونهم بموسيقاهم وبأزيائهم وبما ينشرون من ألوان الحضارة والبدع — فريق آخر من الموالى ينصرف إلى الدراسات الدينية فيذهب تعصبهم — فريق ثالث يتخذ الشعر صنائه — بعضهم يحترف السياسة وبعضهم يكسب عيشه ومكانته بهجاء الناس — رقة دين معظم هؤلاء الموالى صورة لاستخفافهم بكل ما هو عربي — بعض شعراء الموالى لا يحسنون النطق بالعربية — الهجاء يحقق لشعراء الموالى مكانة وجاها — خوف الناس من شعرهم على ثقافته من الناحية الفنية — غلبة المقطوعات القصيرة على هجائهم — الموالى ثلاث فرق فريق منافق يستر حقه مدهانا ، وفريق يدفع عن نفسه بالهجاء ، وفريق دفعه يأسه إلى الزهد والانصراف عن الدنيا — ولكنهم في مجموعهم يكيّدون للعرب حتى يتحقق لهم الظفر بالقضاء على الدولة الأموية وإقامة الدولة العباسية .

فهرست الأخطاء المهمة

الصفحة	السطر	الصواب	الصفحة	السطر	الصواب
٦	٧	بن خويلد	٦٥	٢	النضار(بالهامش)
٧	٢	فأبصر	٦٦	٩	وْغَالَتْ مَالِكَا
٧	٢	والدافع إليها	٦٧	٤	أُغْلِيَتْ حِينَ
٨	١١	يجرف في طريقه	٦٧	١٢	تُوْءِ وَكَلَتْ أَعْنَاقُهَا
١١	١٥	على فتية	٦٨	١٢	عند قبيلته من جهة ،
١٥	١٩	بالأرض الفضاء			وعند البيت الحاكم ..
٢٠	٧	أنا سنرضى	٧٠	٤	في تصوير
٢١	١٢	يتجالدون بالسيوف	٧١	١٨	وكنتم بنى العجلان
٢٧	١٠	والحكلم من مضر	٧٢	١	ترى كعبها
٢٩	٥	إلا تهتدا	٧٣	٧	تنوشه
٣٣	٢	رميناهم	٧٤	١٠	من بكر
٣٣	١١	المتخلف الرجعى	٨٠	١	من بنى أمية
٤٢	٥	ينحوض الناس فيه	٨٢	١	العقبان
٤٥	٦	سبرة بن الجعد	٩٠	٩	وعتاد
٤٥	٦	سمير الحجاج	٩٥	١٥	طريد القتل
٤٥	١٠	يجر الخنز	٩٦	١	من أنوائه
٤٦	٧	عند التهايج	٩٩	٥	تعين على
٤٨	٤	فشبه الفتاة	١٠٠	١١	إلا ذلك
٤٩	١٦	ذلك المتن			

الصفحة	السطر	الموضوع	الصفحة	السطر	الموضوع
١٠٣	١٥	رأت بعد عهد . . .	١٦٨	٧	حوارى الرسول
١٠٨	٣	المحتبي	١٦٩	٩	١١٤ هـ
١١٢	٣	عن سبيلكم	١٦٩	١٥	غُبْرٌ
١٢١	١٧	مِدْرَار	١٧٧	١٣	رُكبانٌ فجَّ
١٢٧	١	على القانون	١٨٠	١٨	الأصطلاح
١٣٢	١٦	لستم إليهم	١٨٢	١٣	مُنِيهَا
١٣٣	١٢	شهدتْ	١٨٧	٣	وما سجنونى
١٣٤	١٦	أوائله	١٨٧	٨	و بين مغيبٍ
١٣٥	٢٢	كان الفرزدق	١٨٩	١١	وقد يَمْنَعُ
١٣٧	١١	ويولدون	١٩٠	٦	سُورَةُ مُحْذَرٍ
١٣٩	٢	محبوكة القرى	١٩٣	٤	والهندي
١٤٠	٨	قصدت له	١٩٤	١٦	كُسُورَ . . . حمراء
١٤٥	٢	وادعاه لنفسه	١٩٦	٥	ونعزب (ه' مش)
١٥٤	١	عريشاً	٢٠٢	٧	فانك بلسانه . . .
١٥٥	٩	عيابهم صفرا	٢٠٢	١٧	للقوادِرِ - الأُبْكار
١٥٩	١٥	لا نخاف	٢٠٥	٢١	بجُمَّةٍ مَرَكَبَةٍ
١٦٦	٢	أنت	٢٠٩	١٢	والهرمرزان

1857 №.

حسين، م. محمد

الهجاء والهجاءون في صدر الاسلام

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01034163

